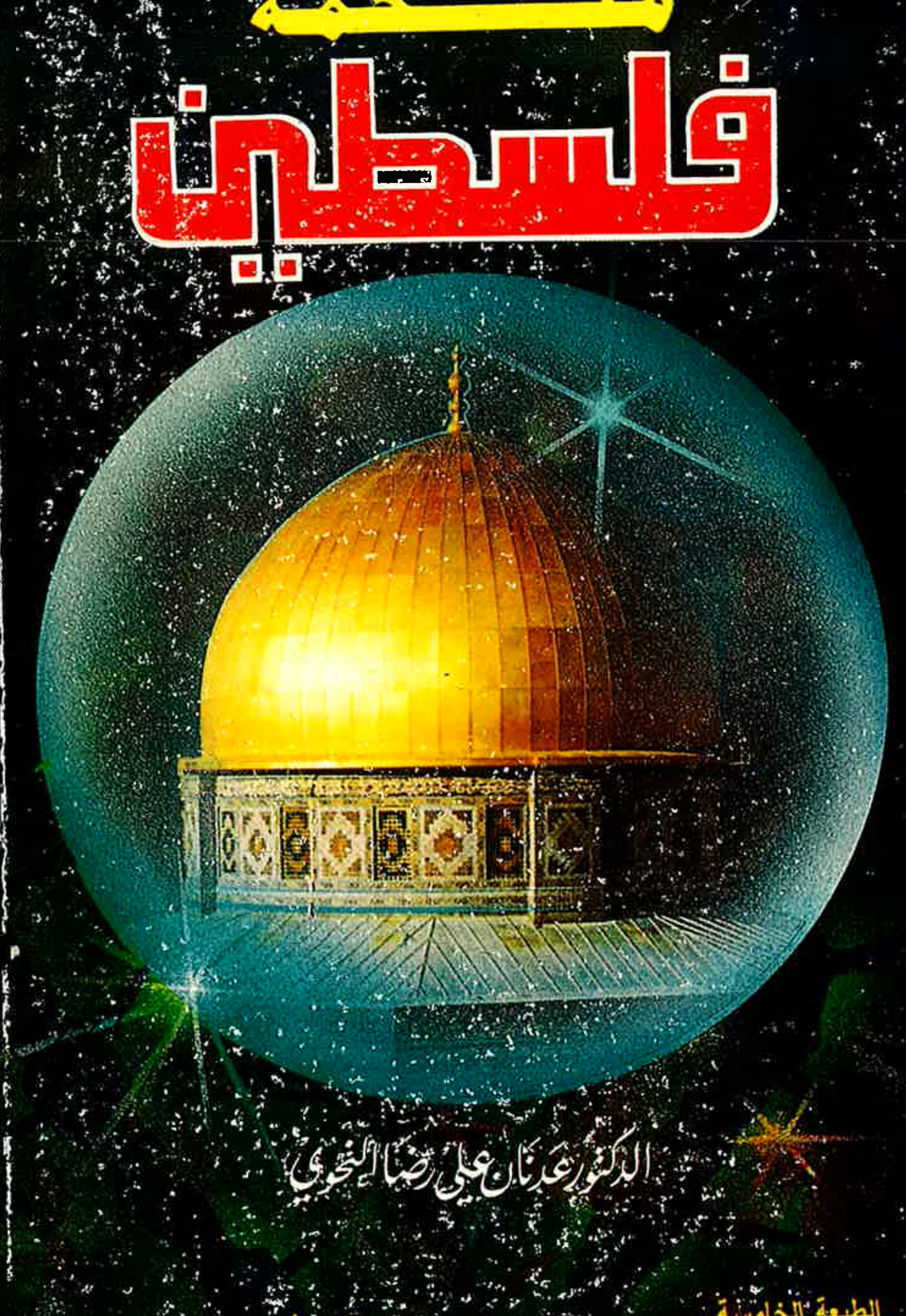
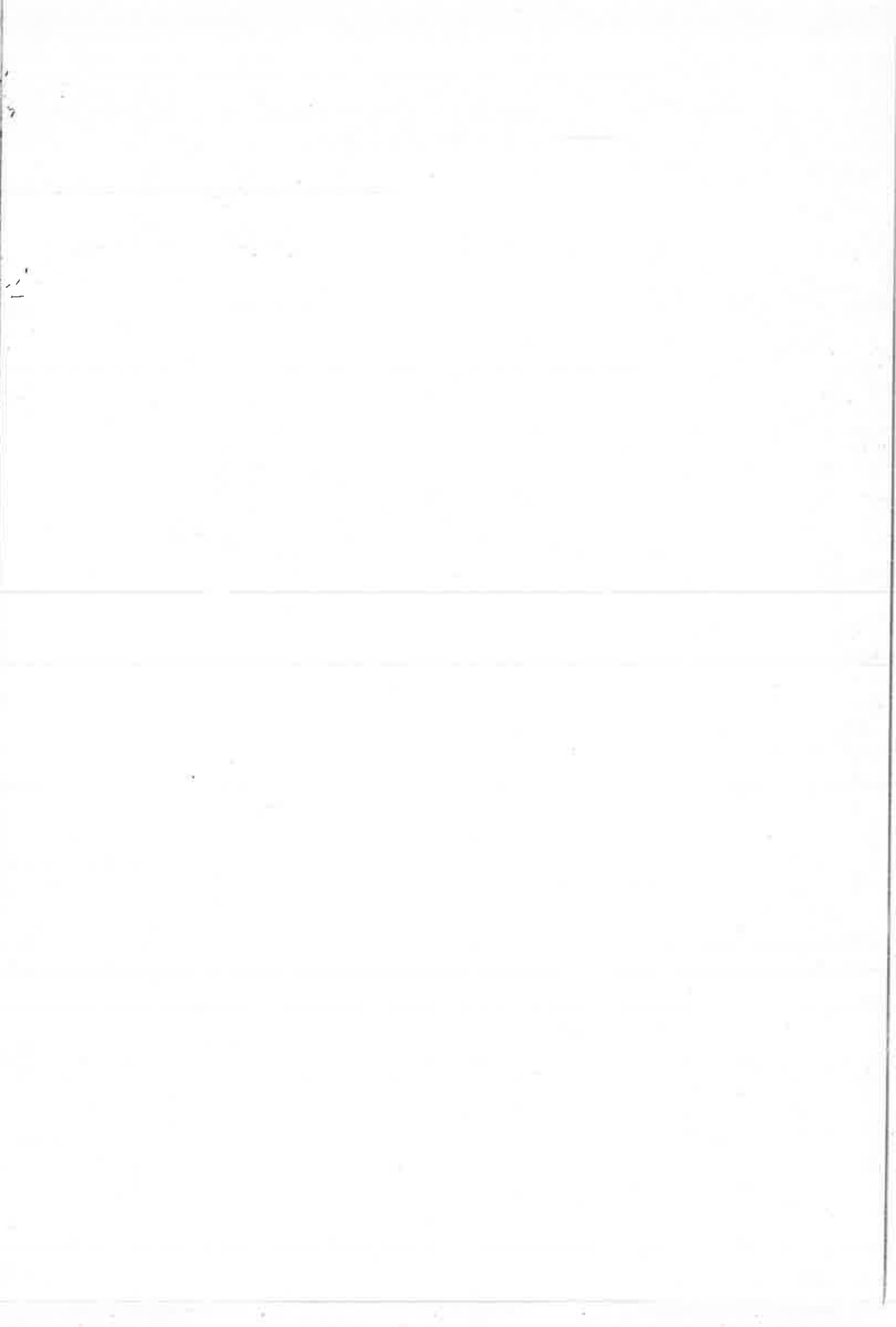


الطبعة الخامسة
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار النحوي للنشر والتوزيع



إلى
لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن

ملحمة فلسطين

الدكتور عدنان علي رضا النحوي

دار النحوي
للنشر والتوزيع

الطبعة الخامسة
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

٨١١,٩٥٣١٠٩٣ النحوي، عدنان علي

٢٣٧ ن ملحمة فلسطين./ عدنان علي رضا النحوي. ـ الرياض:

دار النحوي، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

٢٨٠ ص، ١٤ X ٢٠ سم

رقـم الإيـداع

١٤/١٤٥٨

ردمك ٧ – ١٤ – ٦٨٧ – ٩٩٦٠

١– السعودية ـ الشعر العربي ـ دواوين وقصائد.

٢– القضية الفلسطينية ـ الشعر.

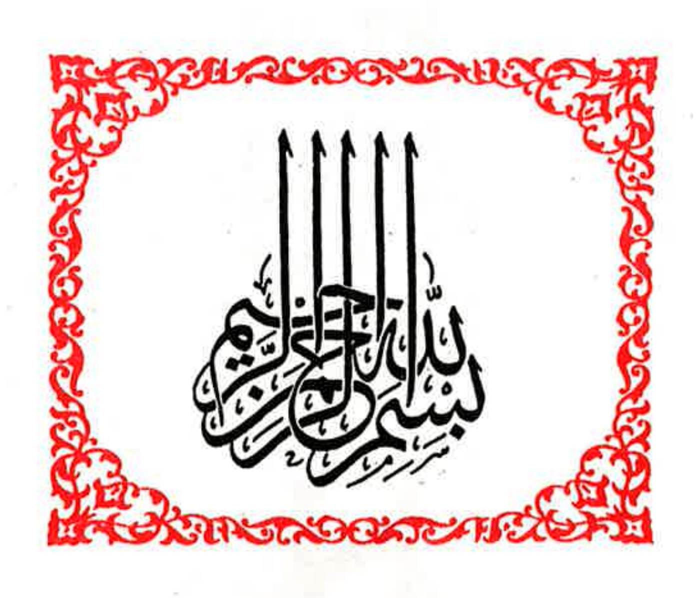
٣– الصهيونية.

٤– الملاحم. أ– العنوان.

رقم الإيداع

١٤/١٤٥٨

ردمك ٧ - ١٤ - ٦٨٧ - ٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
الطبعة الثانية
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م
الطبعة الثالثة
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م
الطبعة الرابعة
١٤١١هـ - ١٩٩١م
الطبعة الخامسة
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م



دار النحوي للنشر والتوزيع
هاتف وفاكس: ٤٠١٠٢٥٧
ص . ب: ١٨٩١ الرياض ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية

١ - قبسات من القرآن الكريم

عهد وميثاق

• ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

[المائدة : ٧]

* * *

• ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

[آل عمران : ٨١]

* * *

• ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾.

[الرعد : ١٩ – ٢١]

٢- قبسات من هدي النبوة

● عن ثوبان رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**».

[رواه مسلم]

كتاب الإمارة (٣٣)، باب (٥٣)

حديث رقم ١٩٢٠/١٧٠

* * *

● عن جابر بن سمُرَة، عن النبي ﷺ أنه قال:

«**لن يبرح هذا الدين قائماً، يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة**».

[رواه مسلم]

كتاب الإمارة (٣٣)، باب (٥٣)

حديث رقم ١٩٢٢/١٧٢

• الافتتاح •

• بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ •

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾. [الإسراء: ١]

* * *

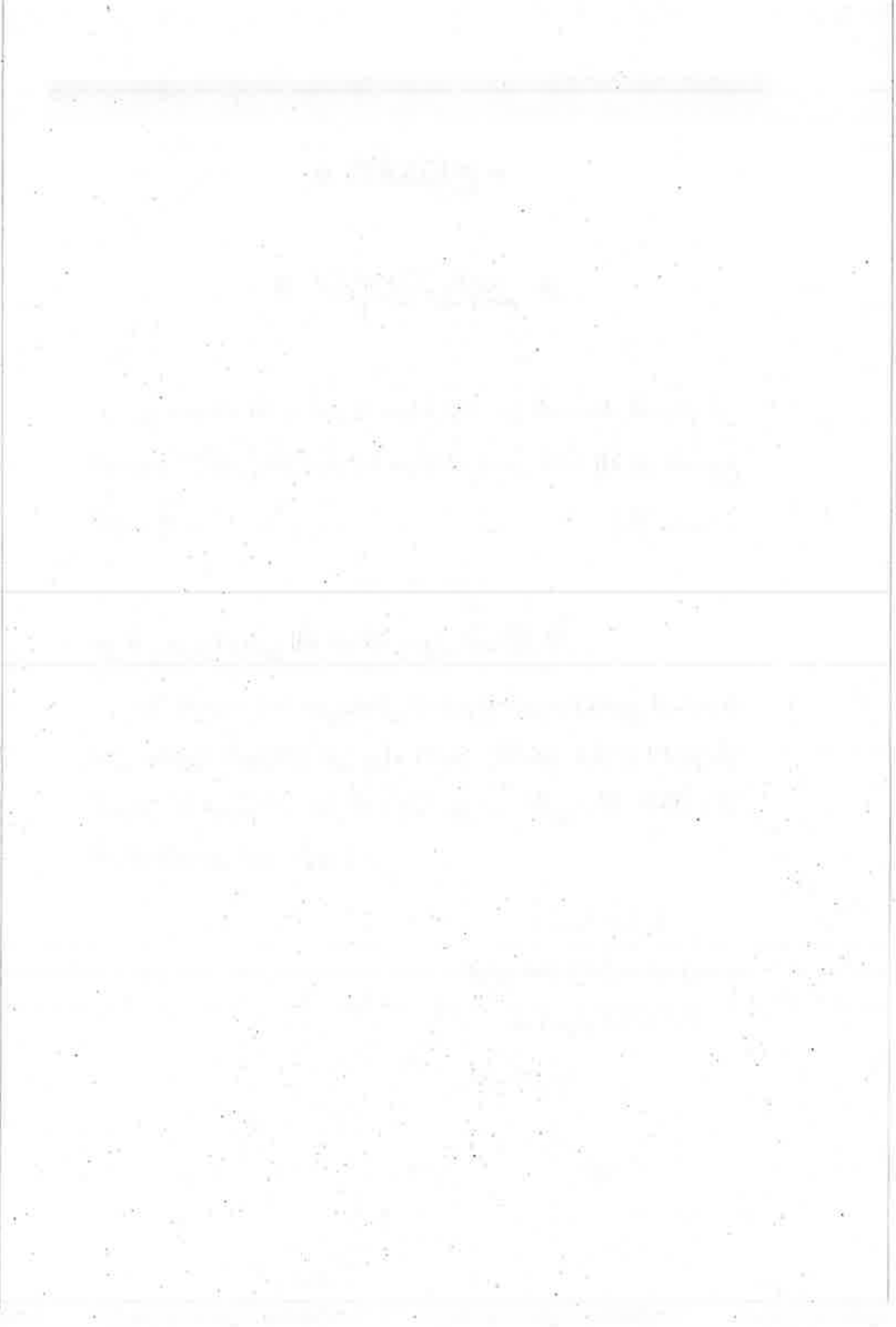
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهوديٌّ خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنّه من شجر اليهود».

[رواه مسلم]

كتاب الفتن (٥٢)، باب (١٨)

حديث رقم ٨٢/٢٩٢٢



• الإهـــداء •

- إلى كلّ طفل وصبي حمل الحجارة في أرض فلسطين فقاتل بها أعداء الله.
- إلى كلّ فتى وكهل وشيخ جاهد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله.
- إلى كلّ صبيّة مؤمنة،وامرأة تقية، صدقت ربها وأوفت عهدها مع الله.
- إلى كلّ قلب طاهرٍ تقيٍّ يَحِنُّ إلى الأقصى فيفزع له.
- إلى كلّ من صدق عهده مع الله.
- إلى كلّ من أخلص ولاءه لله.
- إلى كلّ من ترك زخرف الدنيا وتنافسها وأقبل على الله...
- ليعلم هؤلاء جميعاً أن من أهم أبواب النصر رسم الدرب ووضع الخطة والنهج، ليقود ذلك إلى الهدف المحدّد، على أساس من منهاج الله والواقع.

• مقدمة الطبعة الخامسة •

مع هذه الطبعة الخامسة تكون قضية فلسطين قد دخلت في مرحلة بعيدة من «مسلسل التنازلات» الذي عرضناه في كتاب «على أبواب القدس». وتكون الأخطاء التي وقعت والتي عرضنا بعضها في ملحمة الأقصى، وفي هذه الملحمة، وفي كتاب «فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع» وكذلك في كتاب «على أبواب القدس»، قد أخذت تظهر وتظهر نتائجها المذهلة بسرعة تجاوزت أوهام الحالمين.

في هذه الطبعة الخامسة جرت تعديلات وإضافات تهدف إلى متابعة الأحداث، وكذلك إلى جلاء الصورة وبيان الحقائق، والنّصح للأمة نصحاً أميناً يقوم على أساس من منهاج الله والواقع الذي نفهمه من خلال منهاج الله.

وأهم هذه الإضافات والتعديلات هذه المقدمة للطبعة الخامسة التي توضح طبيعة هذه الملحمة وما جرى فيها من إضافات. وكذلك تمهيد أدبيّ حول الملحمة في الأدب الإسلامي، أطرح فيه رأياً جديداً عن الملحمة لنبتعد عن التصوّر الوثنيّ اليونانيّ وما رافقه من اعتبارات فنيّة كالطول والأساطير وغير ذلك. ومع هذا الرأي الذي أُقدّمُه

والنظرية التي أعرضها أُقدّم النموذج التطبيقي لهذه النظرية في سبعة ملاحم: ملحمة الغرباء، ملحمة القسطنطينية، ملحمة الجهاد الأفغاني، ملحمة فلسطين، ملحمة الأقصى، ملحمة الإسلام في الهند، ملحمة البوسنة والهرسك. ولقد شرحت هذا الرأي في تمهيد في بعض الملاحم وفي كتابي: «الأدب الإسلاميّ إنسانيته وعالميته».

والإضافة والتعديل الآخر هو ترتيب القصائد في الملحمة الشعرية إلى فصول تترابط فيما بينها في الفترة الزمنية والأحداث. وقد جعلت لها افتتاحاً. وجاءت الملحمة في خمسة فصول بعد الافتتاح.

لم يكن هدف هذه الملحمة عرض قضية فلسطين وتاريخها. فقد تمّ عرض الكثير منه في الدواوين الشعرية وبعض الملاحم الأُخرى. ولكن هذه الملحمة تعرض فترة من أخطر فترات قضية فلسطين. تعرض فترة تمتدّ من سنة (١٩٤٨م) حتى بداية الانتفاضة في أرض فلسطين ومضيّ خمسة أشهر تقريباً عليها.

في هذه الفترة انزلقت قضية فلسطين إلى منعطف جديد تجاوز كل القيم الماضية والثوابت الممتدة في تاريخ القضية، الثوابت النابعة من حق الأُمة المسلمة ودينها، النابعة من منهاج الله.

وفي هذه الفترة انكشفت أحوال العالم الإسلامي، وما يمرّ فيه من وهن قاتل وخلافات واسعة، فتحت أبواباً كثيرة يدلف منها الأعداء، وبدأت المساومات تظهر علناً ومسلسل التنازل يتحرّك بسرعة عجيبة.

لقد شهدت هذه الفترة أخطر أحداث قضية فلسطين، فهي التي مهّدت لكل ما حسبه الناس مفاجآت، وفي الوقت نفسه كانت هذه الفترة نتيجة طبيعية لمرحلة سابقة، وأحداث مهَّدت لها.

هذه الفترة هي التي رسمت بصورة محزنة مروّعة المستقبل المظلم لقضية فلسطين، وربما لسائر قضايا العالم الإسلامي.

المستقبل بظواهره الجليّة مظلم وخطير. ولا أرى فرجاً إلا إذا أفاق الغافلون وعادوا عودة صادقة نقيّة لله، خالصة من شوائب الدنيا وشهواتها، عودة تحمل الإيمان والتوحيد، والعلم بمنهاج الله والواقع، والنهج والتخطيط، والدعوة إلى الله ورسوله، والإعداد والبناء، في عمل جاد متواصل لا يكل، فعسى أن يرحمنا الله جميعاً!

﴿...... وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. [النور: ٣١]

لقد جاءت الفصول الخمسة متناسقة مترابطة تقدم صورة للملحمة الإسلامية كما أعرضها في الرأي والنظرية. فالفصل الأول: إقرار للحق الثابت تحت عنوان: فلسطين أرض الإسلام وحقه، والفصل الثاني: صراع المخيمات في لبنان، الفصل الثالث: رحلة الموت، الفصل الرابع: وثبة شراع وانتفاضة طفل وحجر، والفصل الخامس والأخير: فلسطين وواقع العالم الإسلامي. وهذا الفصل يحمل ختام هذه الملحمة.

لقد كان أخطر ما برز في هذه المرحلة أن الأعداء يسيرون على خطىً مدروسة ونهج واعٍ وقوّة فعّالة. وكنا نحن أقرب إلى الارتجال والعاطفة، بعيدين عن النهج والتخطيط، غارقين في الوهن. فكان من السهل أن تضيع الجهود، وتغيب الأهداف، وتسقط الشعارات!

إن هذه اللحظات التي نعيشها، وأنا أُعدّ هذه الملحمة للطبعة الخامسة، نمرّ بأقسى مرحلة توالت النكبات والمآسي المروعة. وسيظل ضياع فلسطين أكبر مأساة في تاريخ المسلمين، وأكبر جريمة ترتكبها الحضارة الغربية بعد أن خدّرتنا بكل وسائل التخدير.

ولكننا لا نفقد الأمل ولا نيأس. وإن الدرب مفتوح ينتظر فرسانه الصادقين، والجيل المؤمن الأمين، جيل النصر، لا جيل الهزيمة. نحن نعيش اليوم في جيل عرف كيف يصنع الهزيمة، فعسى أن يأتي الجيل الذي يعرف كيف يصنع النصرا.

* * *

الطبعة الثانية

بعد صدور الطبعة الأولى من ملحمة فلسطين حتى اليوم، تلاحقت الأحداث سريعة جداً، كأنها تجري لاهثة وراء شيء. ووقف الناس مشدوهين أمام سرعة الأحداث وأمام الأحداث ذاتها.

لقد عرف العالم معطيات متضاربة عن قضية فلسطين، معطيات كان يطرحها اضطراب واقعنا وتناقضه، وحيرته وتردده، وكثرة المشكلات التي تزاحمت في ساحته الممتدة، وعودة كثير من الناس إلى تصوّراتهم البشريَّة الخاصة، ونزعاتهم الهائجة، وعواطفهم المتدفقة، في زحمة من الشعارات المحببة للنفوس، دون أن يتذكر بعض الناس أن هنالك قواعد ربّانية وثوابت إيمانية، عليها يقوم الفكر والعاطفة والتصور، وعلى أساسها يتحدّد الرأي والموقف والخطوة.

لذلك نقدم مع هذا الكتاب ما نؤمن أنه يقدم تصوراً قرآنياً، ربّانياً، إيمانياً، لقضية فلسطين، وما يوفّر أسس الدراسة والتحليل. إن مثل هذا التصور أساسي في حياة أمتنا اليوم وغداً، كما كان بالأمس درب جهاد ونهج أمّة. إن هذا التصور ضروري لتحقيق خمسة أهداف رئيسة في حياتنا:

أولاً: لنعيَ واقعنا وعياً إيمانياً، وعياً نؤمن به نحن أولاً إيماناً صادقاً، يتمثل في الممارسة والرأي والموقف، إيماناً يمسح التناقض والوهن.

ثانياً: لنربّيَ أجيالنا عليه، لتحمل منه الصورة المشرقة الغنيّة المحددة، حتى تنشأ أجيالنا صادقة التصور موحدّة الرأي والموقف والخطوة.

ثالثاً: لندعو العالم كله إلى تصوُّر حقٍّ عادل صادق، نؤمن به ونبذل له، حتى يُصدِّقنا العالم ويحترمنا.

رابعاً: ليكون هذ التصوُّر ينبوع أدبنا، وفيض شعرنا ونثرنا وقصصنا، وغذاء المواهب المؤمنة، وعطاء القلوب التقية النقيّة.

خامساً: ليكون مصدر إعلامنا، ومحور دعايتنا، وقوة حجتنا، ونور دربنا.

لقد ظل اليهود يعلِّمون أجيالهم أحلامهم الكاذبة حتى صدّقوها، وأمانيَّهُمُ الباطلة حتى آمنوا بها، ونثروها نثراً ونظموها شعراً، حتى أصبحت جزءاً من منهاج التربية وموضوع الأَدب ونهج الإعلام. ونشروا ذلك في العالم مع إثارة مصالح وفتنة شهوة وإغراء زخرف، حتى صدّق باطلهم كثير من الناس، فأنكروا حقّاً لنا سكتنا عنه، وتقاعسنا دونه، واضطربت دعوانا به.

فلنخاطب العالم كله، من منابره كلها، بلغة القرآن ومنهاج القرآن وحجة القرآن! وهل هناك بيان أبلغ أو حجة أعلى؟ ربما يقول قائل: كيف نخاطب العالم بالقرآن وهم لا يؤمنون به، وكيف نحاجُّهم به؟! فنقول لهؤلاء: لقد خاطبناهم بكل لغة يريدونها: بالقانون، بمبادئ هيئة الأمم المتحدة، بالمنطق، بالعقل، بالشرف، بالمروءة، بالتاريخ، فما أفاد ذلك شيئاً، ولا هم صدّقونا، ولكننا خسرنا حين تخلّينا عن حُجَّتِنا الحقيقية الصادقة من القرآن الكريم، فأغضبنا الله وما أرضيناه ولا أرضيناهم، ولا كسبنا جولة سياسة ولا جولة حرب. وأنَّى لنا أن نكسب وقد فقدنا القوة الحقيقية؟! واليهود جعلوا التوراة - التوراة المحرفة - شعاراً ودعاية وحُجَّة، وأعلنوها على العالم وسخّروا لها الإعلام والأدب والمال والجهد، فصدّقهم كثيرون، وخضع لهم كثيرون، وسار في ركابهم كثيرون!

ولقد جاء القرآن الكريم لِيُبَشِّر المؤمنين، ولينذر الكافرين ويجادلهم ويقيم الحجّة عليهم. فهو حجّة لمن آمن به وحجّة على من لم يؤمن به. وهو أعدل حجة وأصدق بيان، وهو الذي يَرُدُّ دعوى الكافرين المجرمين، ويبطل دعواهم اليوم كما أبطلها أول ظهور الإسلام. وسيظل الحجّةَ التي نقارع بها الكافرين مدى الدهر. لقد كان القرآن الكريم يردُّ على الكافرين الذين يجادلون بالباطل لِيُدْحضوا به الحقّ، كان يردّ عليهم وهم لا يؤمنون به، وكانت حجتُه غالبةً مفحمةً.

فلنجعل القرآن حُجَّتنا اليوم، ليصوغ لنا منهاج الله ـ قرآناً وسنَّة ـ آمالنا ودعوانا وحُجَّتنا ونهجنا ورأينا وخطوتنا، فنرضي الله سبحانه وتعالى لتنزل علينا رحمته، وينزل علينا نصره إن علم أننا صادقون:

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

[التوبة: ١١٩].

لسنا أول من تتعرض دياره لخَطرٍ غازٍ، فكم من أمةٍ دهمها العُداة، فهبوا يدافعون عن حقهم ودارهم، كفاراً كانوا أم مسلمين.

فلا نكوننَّ أول من يتنازل عن حقّه وداره! وإذا كان وطن غيرنا أرضاً فحسب دافع عنها وما فرّط فيها، فحقُّنا أرض ترتبط بعقيدة، ووطن مقدس باركه الله. فنحن أولى بالثبات وعدم التفريط، وأحقُّ بالبذل والصبر!.

د. عدنان علي رضا النحوي

الرياض: ١/٧/١٤٠٩هـ

٧/٢/١٩٨٩م

* * *

الطبعة الأولى

مع هذه الملحمة لا أهدف إلى أن أسجّل تاريخ فلسطين، ولا تاريخ قضيتها، فهذا التاريخ العظيم أوسع من فسحة هذه الملحمة.

ولكن لا بُدَّ من وضع معالم عن القضية، ومعالم في تاريخ فلسطين ومنزلتها في الإسلام، ومعالم في طريق العودة إليها. لذلك جاء الباب الأول يضمُّ جميع هذه المعالم في ثلاثة فصول، لتكون هي المقدّمة النثرية بين يدي الملاحم والقصائد، ليقدِّم الشعر والنثر صورة لملحمة فلسطين الممتدة مع التاريخ، ولتكون هذه الصورة إشراقة إيمان وعقيدة، ولهفة شوق وحنين، ووثبة عزيمة وجهاد.

لا بد للمؤمن أن يحمل صورة إيمانية عن قضاياه، عن قضايا العالم الإسلامي، عن واقعة الذي يعيش فيه، حتى يمدّه العلم بالواقع بالزاد الذي يحتاجه على درب الإيمان، ليرسمَ خُطة ونهجاً، يصْدُقُ به النِّية لله سبحانه وتعالى، وينيرُ به الدربَ على صراط مستقيم، وتشرقُ الأهداف جلية في أفق السعي والجهاد، يقوم ذلك كله على إيمان صادق وعلم كريم بمنهاج الله قرآناً وسُنَّة.

ويضم الباب الثاني ثمانية ملاحم وقصائد تدور حول أهم أحداث القضية في تاريخها الحديث، مثل تل الزعتر، وحرب

المخيمات، وزيارة القدس، والأحداث الأخيرة (الانتفاضة)، ووثبة الشراع وغيرها.

ولا يعني هذا الكتاب أن القصائد التي يعرضها هي حصاد ما قلته عن فلسطين. فالدواوين الشعرية والملاحم التي صدرت تناولت قضية فلسطين بأحداثها وتاريخها وآمالها، وكذلك سائر قضايا العالم الإسلامي وهمومه وأحداثه، مثل الحرب الأهلية اللبنانية، وسقوط الخلافة، وفتح القسطنطينية، والجهاد الأفغاني وغير ذلك، من خلال التصوّر الإسلامي لهذه القضايا والواقع الذي نعيش فيه.

وإني أدعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم نقياً من شوائب الدنيا، وغنياً بالعزيمة، قوياً بالإيمان. والحمد لله رب العالمين.

د. عدنان علي رضا النحوي

الرياض: ١٢ رجب ١٤٠٨هـ

٢٩ شباط (فبراير) ١٩٨٨م

* * *

وثيقة[1]

أيّها الأمريكان: احذروا اليهود!!

* في عام ١٧٨٩م ألقى الرئيس بنجامين فرانكلين خطاباً عند وضع دستور الولايات المتحدة جاء فيه ما يلي:

«هناك خطر عظيم يتهدد الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك الخطر العظيم هو خطر اليهود.

أيها السادة: في كل أرض حل بها اليهود أطاحوا بالمستوى الخلقي وأفسدوا الذمة التجارية فيها، ولم يزالوا منعزلين لا يندمجون بغيرهم، وقد أدى بهم الاضطهاد إلى العمل على خنق الشعوب مالياً، كما هو الحال في البرتغال وإسبانيا.

منذ أكثر من ١٧٠٠ عام وهم يندبون حظهم الأسيف، ويعنون بذلك أنهم قد طردوا من ديار آبائهم ولكنهم أيها السادة لن يلبثوا إذا ردت إليهم الدول فلسطين، أن يجدوا أسباباً تحملهم على ألاَّ يعودوا إليها، لماذا؟ لأنهم طفيليات لا يعيش بعضهم على بعض، ولا بد

---

(١) مجلة أرض الإسراء العدد ٨٧ ربيع الأول ١٤٠٦هـ الموافق كانون أول (ديسمبر) ١٩٨٥م.

لهم من العيش بين المسيحيين وغيرهم ممن لا ينتمون إلى عرقهم.

إذا لم يبعد هؤلاء عن الولايات المتحدة (بنص دستورها) فإن سيلهم سيتدفق إلى الولايات المتحدة في غضون مائة سنة إلى حد يقدرون معه أن يحكموا شعبنا ويدمروه ويغيروا شكل الحكم الذي بذلنا في سبيله دماءنا وضحينا له بأرواحنا وممتلكاتنا وحرياتنا الفردية.

ولن تمضي مئتا سنة حتى يكون مصير أحفادنا أن يعملوا في الحقول لإطعام اليهود، على حين يظل اليهود في البيوتات المالية يفركون أيديهم مغتبطين.

وإنني احذركم أيها السادة، إنكم إن لم تبعدوا اليهود نهائياً، فلسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم في قبوركم، إن اليهود لن يتخذوا مثلنا العليا ولو عاشوا بين ظهرانينا عشرة أجيال، فإن الفهد لا يستطيع إبدال جلده الأرقط.

إن اليهود خطر على هذه البلاد إذا ما سمح لهم بحرية الدخول، إنهم سيقضون على مؤسساتنا، وعلى ذلك لا بد من أن يستبعدوا بنص الدستور» (ا. هـ.).

* * *

الملحمة في الأدب الإسلامي

لقد تحدث أرسطو عن الشعر اليوناني وأجناسه في كتابه «فن الشعر». واعتبر أرسطو أن الشعر ثلاثة نماذج: المأساة والملهاة والملحمة. ووضع لذلك كله قواعد خاصة استوحاها من الواقع اليوناني ومن التجربة اليونانية والفكر اليوناني. كان أرسطو يحمل مفهوماً خاصاً للشعر ودوره، ويحصر الشعر في المحاكاة. والمحاكاة عنده هي عرض أفعال البشر، خيرها وشرها، مرتبة ترتيباً تبدو معه ضرورتها، ويبدو كذلك توالد بعضها من بعض. هذه المحاكاة عند أرسطو هي أساس المفارقة بين الشعر والنثر. من هذا المفهوم كان أرسطو يعتبر هوميروس اليوناني شاعراً عظيماً يفضله على غيره من الشعراء، لأنه عرض الأفعال بأسلوب مسرحي يعطي للوقائع حركتها. ولم يُقِمْ أرسطو وزناً كبيراً للشعر الغنائي، ولا لذكر شعرائه.

لقد أثَّرتْ نظريات أرسطو في أوروبا تأثيراً كبيراً، كما أثر الفكر

اليوناني كله تأثيراً كبيراً. وبرز هذا الأثر في عصر الأدب الكلاسيكي. ثم جاء العصر الرومانسي ليمثّل ردَّة فعل لذلك، وليُمثِّل بُروزاً أوسع للشعر الغنائي.

لسنا هنا بصدد مناقشة نظريات أرسطو في الأدب والشعر، ولكن لا بد من أن نشير إلى أن هذه النظريات كانت وليدة التجربة اليونانية في المجتمع اليوناني الوثني. وبالرغم مما يحمل لها الكثيرون من إجلال، فإنها لا تمثل بالنسبة للغة العربية من ناحية، ولا للأدب الإسلاميّ من ناحية أخرى، فرضاً واجب الاتباع، أو قدسية تعلو عن النقد.

وأوّل ما تجب الإشارة إليه هو أن نظرية المحاكاة التي اعتمد عليها أرسطو وجعلها قاعدة الشعر ومحوره، لا تنهض كنظرية مقبولة في التصور الإيماني، ولا تنسجم مع طبيعة اللغة العربية. وكذلك فإن ما يطلبه أرسطو من الشعر ويحصره فيه، يمكن أن تقدمه اللغة العربية نثراً أو شعراً. فلا تصلح نظرية المحاكاة لأن تكون قاعدة للشعر في الأدب الإسلاميّ.

والناحية الثانية هي أن آراء أرسطو هي وليدة تجربة وثنيَّة في مجتمع وثنّي، حملت معها روح الوثنيّة، ومضت بها. ومفهوم الأخلاق ووظيفة المحاكاة نفسها، تحمل من آثار الوثنية الشيء الكثير.

والملحمة عند أرسطو محاكاة بالقصة الشعريّة، لتروي الأحداث

رواية يقرأها القارئ، ولا يشاهدها النظارة كما يتمّ في المأساة، ويجب أن تتوافر لها الوحدة العضوية كالمأساة.

ونود نحن أن نجعل «الملحمة» تعبيراً إسلامياً، لنوع متميّز من الشعر الإسلامي.

لذلك نقول أولاً إن الملحمة تمتاز من القصيدة الشعرية العاديَّة بالنقاط التالية:

أولاً ـ الحجم: وذلك بان لا يقل طول الملحمة الشعرية عن عدد مُحدَّدٍ من الأبيات يُتَّفَقُ عليه. ونهدف من ذلك إلى تشجيع المواهب على أن تطرق الموضوعات الإسلامية وتعرضها في الأدب دون أن تبلغ الملحمة الشعرية آلاف الأبيات في جهد قد لايثمر كثيراً. وأرى أن يكون أدنى حد لعدد الأبيات بين ثمانين إلى مائة بيت.

ثانياً ـ الموضوع: ينحصر موضوع الملحمة في قضيّة من قضايا الأمَّة المسلمة وتاريخها. وتعرض الملحمة هذا الموضوع على أساس ارتباطه بالأمة المسلمة وتاريخها وعقيدتها، دون أي أساس آخر. وَتَرِدُ الأحداث في الملحمة لتبرز هذا الارتباط والمعنى. وتكون الأحداث متعلقة بقضيّة من قضايا الأمة الإسلامية، بقضية ذات محور واحد تدور الأحداث حوله. قد تحمل الأحداث أكثر من موضوع ولكنّ الموضوعات كلها يجب أن تتناسق حول محور واحد ترتبط فيه. وكذلك يجب أن تكون الموضوعات تحمل ارتباطاً زمنياً،

وتسلسلاً تاريخياً.

ثالثاً ـ الزمن: يجب أن لا تتناثر أحداث الملحمة على مساحة زمنية واسعة مجهولة، وفترات متباعدة لا رابط بينها. فالفترة الزمنية للقضية يجب أن تكون فترة زمنيَّة محدودة معلومة، تحمل ترابطاً وعلاقة.

رابعاً ـ أجزاء الملحمة: أرى أن تتألف الملحمة من ثلاثة أجزاء: المقدمة أو الافتتاح، الموضوع أو القضيّة، الخاتمة والنتيجة.

أما المقدّمة فتشمل تمهيداً للموضوع والقضية يعرض بعض مبادئ الإسلام أو سنن الله في الحياة، أو تحليلاً نفسياً إيمانياً. فإن كان موضوع الملحمة نصراً، حملت المقدمة معاني العزة الإيمانية، والحمد لله والخشوع له، مع وصف تمهيدي لأرض الأحداث وزمانها. وإن كان الموضوع مأساة تاريخية قدم لها الشاعر بمعاني الصبر والعزيمة، والقوة والجلد، والثقة بالله، ينطلق ذلك كله من عقيدة وإيمان وقواعد التوحيد.

أما الموضوع فقد سبق أن تحدثنا عنه بتفصيل في كتاب «الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته».

أما الخاتمة والنتيجة فيجب أن تربط الأحداث كلها بالتوحيد، وأن تبرز ما يمكن من قواعد العقيدة، التي تقدّم للقارئ الدرس والعبرة، لتحقق الهدف المرجو. أما الواقع فيجب أن ينال نصيبه

العادل من المقدّمة والنتيجة، وأن يكون جزءاً من التحليل وأساساً للعبرة.

خامساً ـ الهدف: لا بد من أن يكون للملحمة هدف واضح، تسعى الملحمة إلى بلوغه. ذلك أن هذا الجهد الكبير في بناء الملحمة لا يعقل أن يضيع في متعة تائهة، دون أن يُشارك الأمةَ في فرحتها أو ألمها، ودون أن يُقَدِّم بركة الكلمة وإشراقة الصدق، وذكاء العبرة ونباهة القلب. إنَّ الأمة الإسلامية تتميز من شعوب الأرض بأنها أمة تحمل رسالة الله، وأمانة العهد، ومسئولية العمارة. فلا تستطيع هذه الأمة أن تضع جهودها خارج أهدافها، ولا أن تبعثرها على شتات، أو تطويها في تيه. ولا بد من أن يكون الهدف إيمانياً نابعاً من التوحيد، مرتبطاً بواقع الأمة الإسلامية، مرتبطاً بأهداف الدعوة الإسلامية.

هذه العناصر الخمسة هي العناصر الرئيسة التي نضعها للملحمة الإسلامية. ونهدف نحن من ذلك توفير أساس وقاعدة في الأدب الإسلامي، يجعل من تاريخ الأمة المسلمة ما يبرز وحدتها على الدهر، ويوفر لها الزاد النامي مع الأيام، ويجعل تجاربها مشاعل خير ينقلها جيل إلى جيل، وعصر إلى عصر، حتى يمتدّ التاريخ نمواً إيمانياً، يحفظ للإنسان بذور الخير، وللبشرية موارد العزّة والحق.

ولقد دار حوار أدبي في بعض الصحف المحلية حول الملاحم

وحول المطولات الشعرية، أسهم فيه بعض الأدباء بآرائهم التي امتدت بين المؤيد للمطولات والملاحم وبين المعارض والمنابذ[1].

وجاء في ثنايا الحوار مصطلحات وتعبيرات، كالملحمة مثلاً، دون أن يكون هناك معنى محدد أو تعريف مقرر يسهّل على الأدباء وضوحَ الحوار، ويسهِّل على القارئ حُسْنَ التقدير، ويوفِّر في ساحة النقد الأدبيّ قواعد راسخة لا تهتز في أعاصير الخلافات، المطوّلات والملاحم تعبيران ينتظران التحديد والتعريف.

ولا يقتصر الأمر في أدبنا اليوم على هذين المصطلحين العائمين، فهنالك مصطلحات أُخرى ما زالت تحتاج إلى تحديد وتعريف، أو إلى توضيح وتدقيق، أو اتفاق ورضا. وغياب ذلك سيطيل الحوار دون أن ينتهي إلى نتيجة مثمرة. ولقد رأينا الخلاف حول مصطلح «الأدب الإسلامي»، وإن كان هذا الخلاف ينحصر في المصطلح نفسه في الظاهر، إلا أنه يخفي خلافاً حول المعنى والتعريف.

ما هي «المطوّلة الشعرية»؟! ما هي حدودها؟! وعلى أي أساس فنِّي أو علمي يقوم ذلك؟!

---

(١) المسلمون العددان: ٢٧٥، ٢٨٠، مجلة الدعوة العددان: ١٢٥٠، ١٢٥٢ في ٤ محرم ١٤١١هـ، ١٨ محرم ١٤١١هـ، وقد أسهم في هذا الحوار: الدكتور مأمون فريز جرّار والدكتور محمد حلمي القاعود والدكتور عدنان علي رضا النحوي.

ما هي «الملحمة الشعرية»؟ ما هو تعريفها المتفق عليه؟ وعلى أي أساس يجب أن ينهض التعريف؟

أشعر أن كثيرين من الناس تحمل ألسنتهم اللفظة العربية «الملحمة»، ولكن القلوب والعقول تحمل لها التراثَ اليوناني والمعنى اليوناني والظلالَ اليونانّية، حتى كادت كلمة «الملحمة» تفقد معناها العظيم الذي حددته المعاجم العربية، والذي حددته أحاديث رسول الله ﷺ. وكأنَّ كلمة «الملحمة» أصبحت تدلّ غالباً على شيء واحد أساسي هو القصيدة الطويلة، دون أن يكون لهذا الطول تحديد، وبهذا التصور لم تعد تحمل كلمة «الملحمة» مدلولاً فنيّاً من حيث التركيب أو الموضوع أو الأسلوب أو الصياغة الفنية والألفاظ وغير ذلك. وأصبح الشاعر لا يجد أمامه قواعد فنّيَّة يلتزم اتباعها لبناء ما نتوهمه أو ما نسمّيه «بالملحمة»، إلا شبح الطول غير المحدد، الطول الذي أصبح موضوع الخلاف والحوار، وموضع القبول والرفض. وقد حملت بعض الصحف رأياً يشير إلى أن الملحمة يجب أن لا تقل عن ألف بيت، وكان هذ هو محور الأساس النقدي الذي عرضته الصحيفة لفكرة الملحمة. وربما رأى آخرون أنها يجب أن تكون عشرة آلاف بيت أو أكثر[1].

---

(١) مقالة الدكتور حلمي القاعود حول المطولات الشعرية في «المسلمون» العدد (٢٧٥) - للسنة السادسة. ومقالة الدكتور مامون فريز جرار حول الموضوع نفسه في العدد =

يبدو أن كلمة «ملحمة» جاءت ترجمة للكلمة اليونانية (Epic)، وأصبحت هذه اللفظة العربية الفنية تحمل ظلالاً يونانية وافدة من طبيعة اللغة اليونانية وتاريخ اليونان ووثنية اليونان، وأصبحت هذه الظلال تضغط ضغطاً شديداً على فكرنا وأدبنا ومصطلحاتنا.

إن كلمة (Epic) ذات الأصل اليوناني تعني قصة شعرية طويلة ذات أسلوب عالٍ تدور حول أعمالٍ خرافية لبطل خرافي، أو لبطل تاريخي ترفع القصة الشعرية أعماله إلى مستوى المعجزات والوهم. وقد تستعمل بالمعنى المجازي لتشبيه حدث واقعي بذلك المستوى الأسطوري، وتدخل الآلهة اليونانية في ميدان هذه القصة الشعرية لتحارب أو تتحارب، ولتَعْشَق وتخوض من أجل عشقها صراعاً.

= (٢٨٠) من السنة السادسة. ومقالتي كذلك في «المسلمون» - بعنوان: «الفرق بين المطوّلات الشعرية والملاحم» في العدد (٣٠٠) - «المسلمون» - تاريخ ١٥ ربيع الآخر ١٤١١ هـ، الموافق ٢ نوفمبر ١٩٩٠م، والعدد (٣٠٢) منها للسنة السادسة أيضاً تاريخ ٢٩ ربيع الآخر ١٤١١ هـ الموافق ١٦ نوفمبر ١٩٩٠م - ثم كلمتي حول هذا الموضوع في مجلة الدعوة السعودية في العدد (١٢٥٠) - ٤ محرم ١٤١١هـ والموافق ٢٦ يوليو ١٩٩٠م، والعدد (١٢٥٣) بتاريخ ١٨ محرم ١٤١١هـ الموافق ٩ آب (أغسطس) ١٩٩٠م. وكلمة الأستاذ الدكتور محمد بن سعد بن حسين في جريدة الجزيرة العددين: ٦٣٦٠، ٦٣٦٧ للسنة (٢٧)، تاريخ ١ شعبان، ٨ شعبان ١٤١٠هـ (٢٦ شباط، ٥ آذار ١٩٩٠م).

ولقد ابتدأ هذا المنحى الشعريّ قديماً في تاريخ اليونان، ثمّ أخذ ينمو ويترعرع في جو الوثنية اليونانية، الوثنية التي امتدت إلى جميع نواحي حياة اليونان: من فكر وأدب وفلسفة. وفي القرن التاسع ق.م. قدّم الشاعر اليوناني «هوميروس» قصتيه الشعريتين الأسطوريتين الطويلتين: «الإلياذة» و«الأُديسًا»، وهما تدوران حول حروب طروادة، وتحملان الخصائص التي ذكرناها والتي نوجزها بما يلي:

١ ـ قصة شعرية.

٢ ـ تعرض البطولات الخرافية والمعجزات الوهمية من خلال فكر وثني واضح في وثنيّته.

٣ ـ للآلهة اليونانية المدّعاة دور فيها.

ولذلك جاء زمن ثار بعض المفكرين والأدباء اليونانيون ضد «هذه الآلهة» وضد هذا الدين المرتبط بها، ودار صراع بين الشعراء والفلاسفة استغرق مساحة واسعة من تاريخ اليونان وفكرهم وأدبهم. حتى إن الذين وقفوا بجانب الدين من الشعراء، مثل «أريستوفان»، لم يخل إنتاجه من شكّ في ذلك الدين واتهام له.

ولقد احتلت هاتان القصتان الشعريتان الأسطوريتان، «الإلياذة، والأديسا»، مكاناً عالياً عند اليونان، ثم عند الرومان، ثم في الفكر

الأوروبي كله، الذي كان يعتبر أدب اليونان وفكرهم هو المثل الذي يُحتذى، وهو الأساس الأول للمذهب الكلاسيكي. ولا عجب في ذلك، حيث لم تكن أوروبا بعيدة عن الوثنية حتى في ظل ازدهار النفوذ المسيحي، في عهد الامبراطور قسطنطين الروماني وغيره. وما زال حتى يومنا هذا أثر واضح لإجلالهم للفكر اليوناني الوثني. وفي محاضرة الدكتور نجم الدين أربكان التي قدمها مؤخراً في مؤسسة الملك فيصل[1]، قدَّم صورة لإعلان أصدرته شركة «توشيبا» تقول فيه إن حضارة اليوم تعود في جذورها إلى «الفرعونية»، التي نشأت عنها الحضارة اليونانية. إنهم يلجّون إذن على ربط حضارتهم وأعمالهم بكل جذور الوثنيّة والإلحاد، فما بالنا نجري لاهثين وراءهم، ولا نربط حضارتنا وأدبنا وفكرنا بالتوحيد.

هذا بالنسبة للكلمة (Epic) ذات الأصل اليوناني (Epikos). فما هي كلمة «الملحمة» وما جذورها وظلالها ومعانيها؟! في المعاجم العربية نجد هذه المعاني: الوقعة العظيمة في الفتنة، الحرب ذات القتل

---

(١) الدكتور نجم الدين أربكان رئيس حزب السلامة الإسلامي في تركيا سابقاً ورئيس حزب الرفاه حالياً، وكان عضواً في المجلس الوطني للفترة (١٩٦٩م - ١٩٨٠م)، وشغل منصب وزير للدولة، ومنصب نائب لرئيس الوزراء. وكانت محاضرته في مؤسسة الملك فيصل الخيرية بالرياض يوم الإثنين في ١٨/١١/١٤١٠هـ الموافق ١١/٦/١٩٩٠م، بعنوان «المسلمون والتكتلات العالمية».



الشديد. وفي قولهم: نبيُّ الملحمة قولان: أحدهما: نبيٌّ القتال، كقوله في الحديث: «**بعثت بالسيف**»، والثاني: نبيّ الصلاح وتأليف الناس، كأن يؤلّف أمر الأمة. وقد «لحم الأمر» إذا أحكمه وأصلحه. و«ألحمتُ القوم» إذا قتلتهم حتى صاروا لحماً. والملحمة أيضاً موضع القتال. وقال ابن الأعرابي: «الملحمة حيث يقاطعون لحومهم بالسيوف»... فالملحمة في المعاجم إذن مرتبطة بالقتال الحقيقي الشديد، لا قتال الوهم والخرافة، ومرتبطة بأرض القتال، ومرتبطة بالنبوة، وبالإصلاح وتأليف أمر الأمة[1].

ولننظر في أحاديث رسول الله ﷺ. ففي الحديث الشريف عن فتح مكة يرد: «... **فقال سعد بن عبادة يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة..**»[2]. وفي حديث آخر عن جبير بن نضير عن الهدنة بين المسلمين والروم يقول جبير: «... **فعندئذ تغدر الروم وتجمع للملحمة**»[3]. وعن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال، قال رسول الله ﷺ: «**عمران بيت المقدس خراب يثرب وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال ثم ضرب بيده على فخذ محدثه أو**

---

(١) معاجم: لسان العرب، تاج العروس، الصحاح، قاموس المحيط.

(٢) البخاري كتاب المغازي (٦٤). باب (٤٨).

(٣) سنن أبي داود حديث رقم (٤٢٩٢).



منكبه ثم قال: إن هذا لحق كما أنك ها هنا أو كما أنا قاعد. يعني معاذ بن جبل»[1].

وعن معاذ ـ رضي الله عنه ـ أيضاً ـ: «**الملحمة الكبرى وفتح القسطنطينية وخروج الدجال في سبعة أشهر**»[2]. وعن عبد الله بن بسر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ، قال: «**بين الملحمة وفتح المدينة ست سنين ويخرج المسيح الدجال في السابعة**»[3].

وقد جعل أبو داود في سننه فصلاً سماه «كتاب الملاحم». وما لجأ أبو داود في هذه التسمية إلى مصادر أجنبية، ولا خضع لضغوطها وسلطانها. فهذا مدار «الملحمة» وظلالها في أحاديث رسول الله ﷺ، حيث نجد أنها تتحدث عن وقعة قائمة، لا وهم فيها ولا خيال، مثل فتح مكة، أو أنها تتحدث عن الغيب من أمر الأمة المسلمة مما هو حقٌّ لا ريب فيه، ولا تختلط بالخرافات والوهم، ولا بالآلهة المتعددة، ولا بالوثنية كلها.

من هنا نجد أنَّ ارتباط كلمة «ملحمة» هو ارتباط بالنبوة، ارتباط بالتوحيد ورسالته، ارتباط بأمة التوحيد، ثم هو ارتباط باللغة العربية.

---

(١) سنن أبي داود رقم (٤٢٩٤).

(٢) سنن أبي داود رقم (٤٢٩٥).

(٣) سنن أبي داود رقم (٤٢٩٦).

فلم ترد الملحمة في هذه الاستعمالات كلها مرتبطة بالشعر من قريب ولا بعيد، ولكن الكلمة (Epic) مرتبطة بالشعر، فأساس معناها قصة شعرية. ولم تأت كلمة ملحمة مرتبطة بخيال ووهم وخرافة، بل جاءت مرتبطة بواقع صادق وغيب صادق، ولكن كلمة (Epic) مرتبطة بالخرافة والوهم. وارتبطت كلمة «ملحمة» بالنبوة والتوحيد. أما كلمة (Epic) فمرتبطة بجذور معانيها وظلالها بالوثنية اليونانية، ثم ارتبطت مع التاريخ بأشكال متعددة من الوثنية.

فمع هذه الفروق الواسعة في معاني اللغة، وفي الأصل والمنشأ، وفي الاستخدام والاصطلاح، وفي الظلال والدلالات، أعجب كيف جازت هذه الترجمة، وكيف تناسى الذين ترجموا كلمة (Epic) هذا الزاد الغنيَّ العظيم الذي تحمله لفظة «الملحمة» في لغتنا وتاريخنا ودیننا، زاداً يختلف عن زاد اليونان كما يختلف التوحيد عن الوثنية.

إن لفظة «الملحمة» أعزّ من أن تختلط بذلك الخليط العجيب!. فليبحثوا لهم عن ترجمة أخرى لها «كالأسطورة» مثلاً ولتمض ملحمتنا مستقلة عنهم.

فإذا أردنا أن نبني «الملحمة الشعرية» في الأدب الإسلامي، فإن أمامنا شرطين أساسيين يجب أن نحققّهما أولاً:

١ ـ أن نطهّر كلمة «الملحمة» الكلمة العربية الغنيّة، أن نطهرها من أوهام اليونان الفكرية ومن وثنيّتهم، ومن شروطهم الفنيّة.

٢ ـ أن ينبثق تصور «الملحمة الشعرية» في أدبنا من طبيعة اللغة العربية والشعر العربي، ومن تاريخنا الصادق، ومن ديننا وعقيدتنا، من حقيقة الأمة المسلمة، أمة التوحيد، ومن رسالتها، لتحمل خصائصها الذاتيّة، لاخصائصها المستوردة، ولتنمو «الملحمة الشعرية» نموّها الطبيعي، في جوها الطبيعي، وهوائها وريها وغذائها، تدفعها مواهب الأمة الحقيقية.

وإذا كانت اللغة اليونانية تسمح بقصيدة تتجاوز الآلاف من الأبيات، وإذا كانت موضوعات الخيال المتفلّت في أجواء الوثنية يمكن أن يطوف في موضوعات خرافية تحتاج إلى آلاف الأبيات، فإن طبيعة اللغة العربية وطبيعة شعرها من ناحية، وكذلك موضوعات تاريخنا وواقعنا ومستقبلنا من ناحية أخرى لا تتطلب هذه الإطالة في «الملحمة الشعرية». إن تاريخنا وواقعنا ومستقبلنا يتبرأ من الخرافة والوهم، يظلُّ كلُّه موجهاً برسالة الصدق والحق، برسالة التوحيد، لينمو في جوها وميدانها. لسنا بحاجة إلى الآلاف المؤلفة من الأبيات الشعرية لنطرق موضوعاً من موضوعات تاريخنا أو واقعنا أو مستقبلنا. إني أشعر أننا نرهق الموهبة الشعرية، ونتطلب منها ما لسنا بحاجة إليه، عندما نفرض عليها أن تقدِّم ما لا تحتاجه الموهبة واللغة والواقع، وما لا حاجة للأدب فيه. ولكننا بحاجة مع ذلك كله إلى «الملحمة»، إلى الملحمة التي تنمو في بيئتنا، إلى الملحمة التي تتناسق

وخصائص اللغة العربية وطبيعة الشعر العربيّ. فإذا كان لدى اليونان عوامل خاصة في خرافاتهم ولغتهم تسمح بهذا الطول الكبير الذي ينشر الفكر الوثني، ففي اللغة العربية وآدابها عوامل أخرى تتحكَّم في الطول. فالذي يحدِّد طول القصيدة عوامل عدة: الموضوع نفسه. فالقصيدة عن الجهاد الأفغاني لا يُعقل أن يكون طولها مثل طول القصيدة التي تتحدَّث عن وصف وردة مثلاً. فالموضوع وأهميته وامتداد مساحته في تاريخ الأمَّة وواقعها يؤثر حتماً في امتداد القصيدة وطولها. وكذلك قدرة الشاعر الفنية واستطاعته على المحافظة على مستوى الجمال الفنيّ المؤثر، مع امتداد القصيدة دون أن يضطر إلى هبوط مفسد، تؤثِّر كذلك على طول القصيدة. إن طول القصيدة لا يُحدِّده هوى الشاعر. فالشاعر لا يقول ابتداءً أُريد أن أبلغ ذلك العدد المحدد من الأبيات. إن الشاعر ينطلق في قصيدته حتى يشعر أنه أتمَّ اللوحة الفنية التي يريدها بكامل مناظرها وألوانها وتناسقها. هناك يقف الشاعر وينتهي من قصيدته مهما بلغ معه طولها. إلا أن يكون الشاعر ناظماً فقد يلزم نفسه دون مسوّغ فني بعدد محدد من الأبيات، وهذه ليست موضوع حديثنا.

ولا ننكر أن عدداً غير قليل من الجامعات في العالم الإسلامي غرس التصور اليوناني لهذا اللون من الشعر، من خلال دراساتها الجامعية، ومن خلال ما تحمله المناهج ودراسات الأدباء ومباحث

النقد الأدبي من تقدير مُبالغ فيه غير عادل لذلك اللون من الشعر الأسطوري. ولكنه آن الأوان لمراجعة حساباتنا وردِّ الأمور إلى ميزان لغتنا وعقيدتنا وتاريخنا، وإلى ما نحتاجه حقيقة وما لا نحتاجه.

وأعود لأؤكد أن المصطلحات الأدبية الفنّية كالمطوّلات الشعرية التي تحمل خصائصها من اللغة العربية ومن عقيدتنا ومن تاريخنا، يجب أن نضع لها مدلولاً فنياً محدَّداً. وهنا أميل إلى اعتبار هذه المطولات هي الملاحم الحقيقية إذا كانت موضوعاتها ملحمية حقاً، وإذا تحددت خصائصها الفنية بشكل واضح جليّ.

وإن كنت أود أن أضيف شيئاً جديداً على ما سبق عرضه، فهو أني أرى أن الملحمة لن تزيد عن مئات محدودة من الأبيات إذا حافظت على الوزن والقافية. وكذلك فإنه يمكن تقسيم هذه الملحمة إلى عناوين جانبية تساعد القارئ على جمع الموضوع ووعيه، وتضيف شيئاً من الحركة والحياة، وسهولة التفاعل والتأثُّر. بهذا الحجم الأقصى نكون قد وافقنا بين طبيعة الشعر العربي، وبين إطلاق القدرة الشعرية في ميدان منتج ومُجيد. ولكن يمكن تجاوز هذا الحجم إذا كانت الملحمة تمثل مجموعة قصائد طويلة أو متوسطة تختلف في الوزن والقافية، ولكن تدور حول قضية ملحمية واحدة. ولا بد في جميع الحالات من تحديد الحدِّ الأدنى لأبيات الملحمة، الحد الذي أعتقد أنه يمكن أن يكون بين ثمانين بيتاً من الشعر إلى مائة بيت مثلاً،

ولكنَّ الموضوع الملحمي على أسس اللغة العربية والعقيدة هو الذي يجب أن يحدِّد منطلق «الملحمة الشعرية»، وأن يحدد خصائصها الفنية الأخرى، أكثر من قضية الطول التي يجب أن يتوقَّف شبحها اليونانيّ.

إن هذا التحديد الذي قدّمته يمثل محاولة لطرح القضية وللنموّ بها. ذلك لأني أُؤمن بضرورة إطلاق الموهبة الشعرية المؤمنة لتمارس حقَّها في التجربة والنمو، وفي عرض قضايا الأمة، في ميدان تستطيع أن تجول فيه جولات حقيقية، وتستطيع أن تنتج فيه إنتاجاً مثمراً، دون أن تُرهَقَ بمحاولة ما لا جدوى منه، وما لا طاقة لها به، إلا على حساب معاناة شديدة ينسحب منها الكثيرون دون أن يقدموا للأمة ثمراً نامياً مع الأيام، موصولاً مع الزمن، غنيّاً بمستواه من الجمال الفني.

وأعود وأُؤكد أن طبيعة اللغة العربية والشعر العربي، وكذلك موضوعات الحقائق والواقع والصدق، لا تستدعي امتداد الطول في الملحمة كما امتدت عند هوميروس في الوهم والخرافة والمعجزات، وفي اللغة اليونانية.

قصتان شعريتان قدمهما هوميروس، مجَّدهما أرسطو، وغنتهما أوروبا، كل ذلك من بواعث أقرب إلى الوثنية، أو هي الوثنية، ثمَّ أخذنا نلهث وراءهم نتتبع هاتين القصتين الشعريتين الخياليتين، دون

أي مسوّغ لنا، إلا التبعية غير الواعية.

وإني إذ أُقدِّر قيمة الحوار الذي دار هنا أو هناك، دون أن نخرج بنتيجة أو رأي يُتفق عليه للبناء والعمل، فلا بد أن أُبين في هذه المناسبة أن الذي نلحُّ عليه ونصرّ هو أننا يجب أن نبني أدباً ينبع من التوحيد، مستقلاً عن الوثنية، يرتوي من منهاج الله قرآناً وسنة، ليكون سلاحاً صادقاً نخوض به معركتنا اليوم. فإننا أمة كتب الله عليها أن تخوض معركة حقيقية لا وهمية، وملاحم صادقة لا خرافية، وأن تدفع في التاريخ البشريّ بطولات واقعية عبقرية، لا بطولات خيال ووهم. ولا بد لأدبنا الإسلامي من أن يصوغ هذه الملاحم الصادقة في ملاحم شعرية، تحمل خصائص لغتنا وتاريخنا وإيماننا، وتنطلق بها المواهب المؤمنة مستقلة عن التبعيّة المضلّة.

وستظل كلمة «الملحمة» محتفظة بمعانيها التي قدمتها المعاجم واستخدمتها النبوة الخاتمة، سواء أأقمنا الملحمة الشعرية أم لم نقمها، وسواء أتفقنا أم لم نتفق، وستظل الملاحم في أرض الإسلام دائرة في الفلبين والهند وفلسطين وأرتيريا وسائر أجزاء العالم الإسلامي، فإذا لم نقدم الملحمة الشعرية فإن ملحمة الدم ماضية لا تنتظر الأُدباء، وإنما على الأدباء الشعراء ورجال الفكر والكلمة أن يلحقوا بها إذا شاءوا.

نحن المسلمين أهل الفكر الحق وأصحاب الرسالة الحق، العالم كله بحاجة إلى رسالتنا ودعوتنا وديننا. العالم كله بحاجة إلى أدبنا

وملاحمنا أكثر مما نحن بحاجة إلى أدبه وملاحمه. فلنشعر بالعزّة الصادقة ولنرتفع إلى مستواها الحق.

لا صلة بين الملحمة الإسلامية وبين ما يسمونه (Epic)، فالملحمة في ديننا ولغتنا مرتبطة بالنبوة والأحاديث الشريفة، أما (Epic) فهي مرتبطة بالوثنية والكفر.

والملحمة مرتبطة بالقتال والالتحام، بالجهاد في سبيل الله، و(Epic) مرتبطة بخرافات العشق وأساطير الغرام، بين الآلهة والأبطال.

والملحمة مرتبطة بصدق الواقع والحق، و(Epic) مرتبطة بالوهم والخرافة والأساطير.

والملحمة مرتبطة بالخير والصلاح ومحاربة الفساد والجريمة في الأرض، و(Epic) تدعو إلى ذلك كله!

فأين العلاقة بين هذه وتلك؟!

لقد عَرَفت المطوّلات الشعريةَ شعوبٌ مختلفة في التاريخ البشري ففي الهند ظهرت المطوّلتان الأُسطوريتان: «رامايانا» «ومهابارتا» تقصّان بطولات قديمة أسطورية عن الحب والآلهة، وتصف حروب «كورو» و«باندو» وأعمال «كرشنا» الإله الهندي[1]. والأُسطورة

(١) د. عدنان النحوي ـ ملحمة الإسلام في الهند ـ (ص: ١٧). أحمد الخاني ـ ملحمة بدر ـ المجلد الأول ـ (ص: ١٢).

الشعرية (الملحمة) التي عُثر على جزء منها في «مجيدو» سنة ١٩٥٩م والتي تسمى «جلجامش» مكتوبة بعدة لغات منذ الألف الثاني قبل الميلاد[١]. وكذلك «الإلياذة» و«الأوديسا» لهوميروس اليوناني حول حروب طروادة وما فيها من أساطير وبطولات خرافية وحروب بين الآلهة والبشر أو عشق وزواج. و«صلاة الفيداس» عند الهنود قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة. و«الإلياذة» الرومانية التي وضعها شاعر الرومان «فيرجيل» تحمل من الأساطير ما حمله غيرها. و«الفردوس المفقود» للشاعر الإنجليزي «ميلتون» تدور مع الخيال والأساطير. ولعل أحمد محرّم كان أول من طرق هذا الباب في عصرنا الحديث حين سمى كتابه «الإلياذة الإسلامية» أو ديوان «مجد الإسلام» فكشف بالتسمية الأولى التأثر باليونان من حيث اللفظة والنزعة إلى الطول. والأستاذ عمر أبو ريشة نشر قبل وفاته قسماً سماه «مقدّمة ملحمة النبي» وجاء استخدام كلمة الملحمة هنا موفّقاً غنيّاً بالمعنى والدلالة. فقد اعتمدت الملحمة الحقائق وابتعدت عن الخرافات والأساطير، وتناولت موضوعات القتال، وموضوعات هامة في التاريخ الإسلامي، وكذلك «ملحمة بدر» لأحمد الخاني. وفي هذه الملاحم الشعريّة كان التأثّر باليونان من حيث قضية الطول واضحاً، إلا أنها فارقت التصور اليوناني الوثني من حيث الموضوع،

---

(١) روجيه غارودي ـ فلسطين أرض الرسالات السماوية ـ (ص: ٢٨).

وكأن هذا الطول أصبح مفروضاً علينا مقترناً بكلمة «الملحمة» بما تركته الترجمة الخاطئة لكلمة (Epic)، وبما تركته الأساطير اليونانية وغيرها من ضغوط علينا في فكرنا وعمّقته بعض الدراسات الجامعية. أو أنه أصبح هدفاً نريد أن نحققه دون أيّ مسوّغ فنّي أو دينيٍّ أو عقلي أو علمي.

وأوجز هنا في هذه الكلمة الراي الذي أعرضه بالنقاط التالية:

١ ـ فصل «الملحمة» وتصورها في الأدب الإسلامي عن الوثنية اليونانية وفلسفتها وآدابها وأساطيرها، وما تبع ذلك من خصائص فنّية ترتبط بطبيعة اللغة اليونانية وغيرها من اللغات القديمة، وبواقع الفكر والفلسفة.

٢ ـ أن ينبع تصور «الملحمة» في الأدب الإسلامي من طبيعة اللغة العربية والتاريخ الإسلامي ومن كتاب الله وسنة رسوله. وأهم ما ينتج عن ذلك هو مفارقة الأساطير والتزام الحقائق في تاريخ الأمّة. فإن في الحق والصدق في تاريخنا ما يلهم بأعظم الملاحم. ولنا من حقائق تاريخنا ما يغنينا عن الخوض في خرافات وأساطير أصبحت أساساً للأدب الوثني والأدب الحداثي.

٣ ـ أن لا تتقيد الملحمة الإسلامية بإيحاءات الطول الكبير الذي تمليه أساطير الوثنيين. وحسبنا أن نحدد الحدَّ الأدنى للملحمة،

والشكل العام، وأهم الخصائص الفنية.

٤ ـ أن تأخذ الملحمة الإسلامية تعريفاً فنيّاً محدَّداً يوضح شكلها وموضوعها وسائر الخصائص الفنيّة التي تعين على إطلاق الموهبة، وعلى المساهمة في جهاد الأمة المسلمة، حتى يكون للملحمة هدف واضح محدد.

٥ ـ أن لا يكون الطول المحدّد للملحمة مسوّغاً لهبوط المستوى الفني من حيث اللغة والتركيب والصياغة وعناصر الجمال الفني.

٦ ـ يمكن تحديد الحدّ الأدنىٰ الذي تبتدئ فيه الملحمة في الأدب الإسلامي، بحيث إذا بلغته القصيدة وتوافرت فيها العناصر الفنيّة الأخرىٰ، اعتبرت ملحمة. ويترك امتداد طولها بعد ذلك للشاعر وموهبته وللقضيّة وأهميّتها.

٧ ـ لا بد من تحديد الأهداف المرجوّة من الملحمة تحديداً واضحاً يعيه الشاعر كما يعيه الناقد والقارئ، ليكون بين جميع الأطراف لغة مفهومة وتواصل قويّ.

أما بالنسبة لأهداف الملحمة فإنها تُحَدَّدُ على أساس من قواعد ثلاث: الإيمان والتوحيد، ومنهاج الله قرآناً وسنة كما جاء الوحي بهما باللغة العربية، ثم واقع الأمة الذي تعيشه الأُمة وتجتازه، وحاجاتها في هذا الواقع، ومدىٰ مساهمة الملحمة في تحقيق هذه

الحاجات، ثُمَّ الخصائص الفنيّة التي يجب أن ترتبط بالقاعدتين السابقتين وبخصائص اللغة العربية لا اللغات الأجنبية.

وعلى ضوء هذه القواعد الثلاث، ندرك أننا اليوم أُمة ممزّقة، أصبح الشاب المسلم يجهل أمته وامتدادها، ويجهل تاريخها وروابطها الإيمانية، ويجهل سبيل التواصل والتعارف والتعاون.

معظم المسلمين كانوا لا يعرفون شيئاً عن أفغانستان قبل انطلاق الجهاد فيها، ولا يعرفون كذلك إلا النذر اليسير عن البوسنة والهرسك، أو الهند وكشمير وباكستان، بل أكثر من ذلك، فعندما خرج الفلسطينيون سنة ١٩٤٨م إلى العالم العربي وضحت حقيقة مذهلة هي أن قطاعاً واسعاً من الأمة المسلمة يجهل قضية فلسطين وخطورتها عليه، ومنزلتها في دينه وإيمانه، والعجب الأكبر أن بعضاً من هذا الجهل ما زال حتى اليوم، بعد مضي أكثر من سبعين سنة على بدايتها المفجعة.

لم يعد المسلمون اليوم يعرف بعضهم بعضاً، ولا يشعرون بحقيقة الأخوة الإسلامية إلا شعاراً يسقط في ميدان الواقع والممارسة. ولا يكادون يمارسون حديث رسول الله ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً»**[1] أو **«المؤمنون تتكافأ دماؤهم**

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي موسى. صحيح الجامع الصغير للألباني (ح: ٦) (ص: ٦).

وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ألا يُقتَل مؤمنٌ بكافر، ولا ذو عهد في عهده، من أحدث حدثاً فعلى نفسه، ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[١].

لذلك يكون من أهداف الملحمة الإسلامية أن تساهم في تحقيق هذه الغاية، ومعالجة هذا المرض في واقعنا. لقد كانت «ملحمة الإسلام في الهند»، «ملحمة الغُرباء»، «وملحمة الجهاد الأفغاني»، «ملحمة القسطنطينية»، «ملحمة فلسطين»، «وملحمة الأقصى»، «وملحمة التاريخ»، «وملحمة البوسنة والهرسك»، تهدف إلى تحقيق ذلك أو بعض منه، وتهدف إلى تقديم مثل تطبيقي للرأي الذي نعرضه هنا والنظرية التي نقدّمها عن الملحمة في الأدب الإسلامي فعسى أن تكون قد بلغت شيئاً من أهدافها.

وجاءت ملحمة ـ البوسنة والهرسك ـ لتساهم في ذلك وتعرّفنا بهذا الشعب العظيم وبصلتنا بهم، فما هي قضيتهم؟ وما هي مسئوليتنا الإيمانية نحوهم؟ وجاءت ملحمة الهند تعرّفنا بتاريخنا العظيم الممتد على أرض الهند. وكذلك جاءت سائر الملاحم لتحقق هذا الهدف.

---

(١) رواه أبو داود والنسائي، الحاكم في مستدركه، صحيح الجامع الصغير (ح: ٦ ص: ٨).

هذا هدف من الأهداف الرئيسة للملحمة الإسلامية حين تعالج قضايا واقعنا المعاصر.

القسيس الشاعر نيقوس من الجبل الأسود وضع ديوانه «انتقام الجبل» ليُبَيِّن بالشعر كيف يجب على أهل الجبل الأسود أن ينتقموا من المسلمين الذين لم يؤذوهم إلا أن قالوا ربنا الله! وإلا أن نقلوا إليهم نورالإسلام. فالشعر الإسلامي والملحمة الإسلامية تردّ على هؤلاء ردّاً ينبع من الكتاب والسنة لتعلّمهم ما يجب أن يتعلّموه. والملحمة الإسلامية أولى أن تحمل هموم الأمة وأهدافها.

هدف آخر! نحن أُمة تحمل رسالة الله إلى الناس. أخرج الله هذه الأمة لتكون خير أُمة أُخرجت للناس بهذه الرسالة فقط كما نصَّت الآية الكريمة، لا بعرق أو دم، فقد أذهب الله عنا نخوة الجاهلية وعصبيتها. لذلك يجب أن تساهم الملحمة الإسلامية في تبليغ هذه الرسالة وإيصال نور الإيمان والهداية إلى الناس لتذهب عنهم الجاهليات وعصبياتها وضلالها.

وهدف آخر! نحن أُمة مجاهدة. تهافتت علينا الأُمم كتهافت الأكلة على قصعتها. فلا بد أن تحمل الملحمة الإسلامية معنى الجهاد كما يرسمه القرآن الكريم والسنة النبوية.

الملحمة الإسلامية تحمل معها أهداف الأدب الإسلامي، وتحمل معها أهداف الأمة المسلمة في الأرض، ممتدّة مع الزمن!

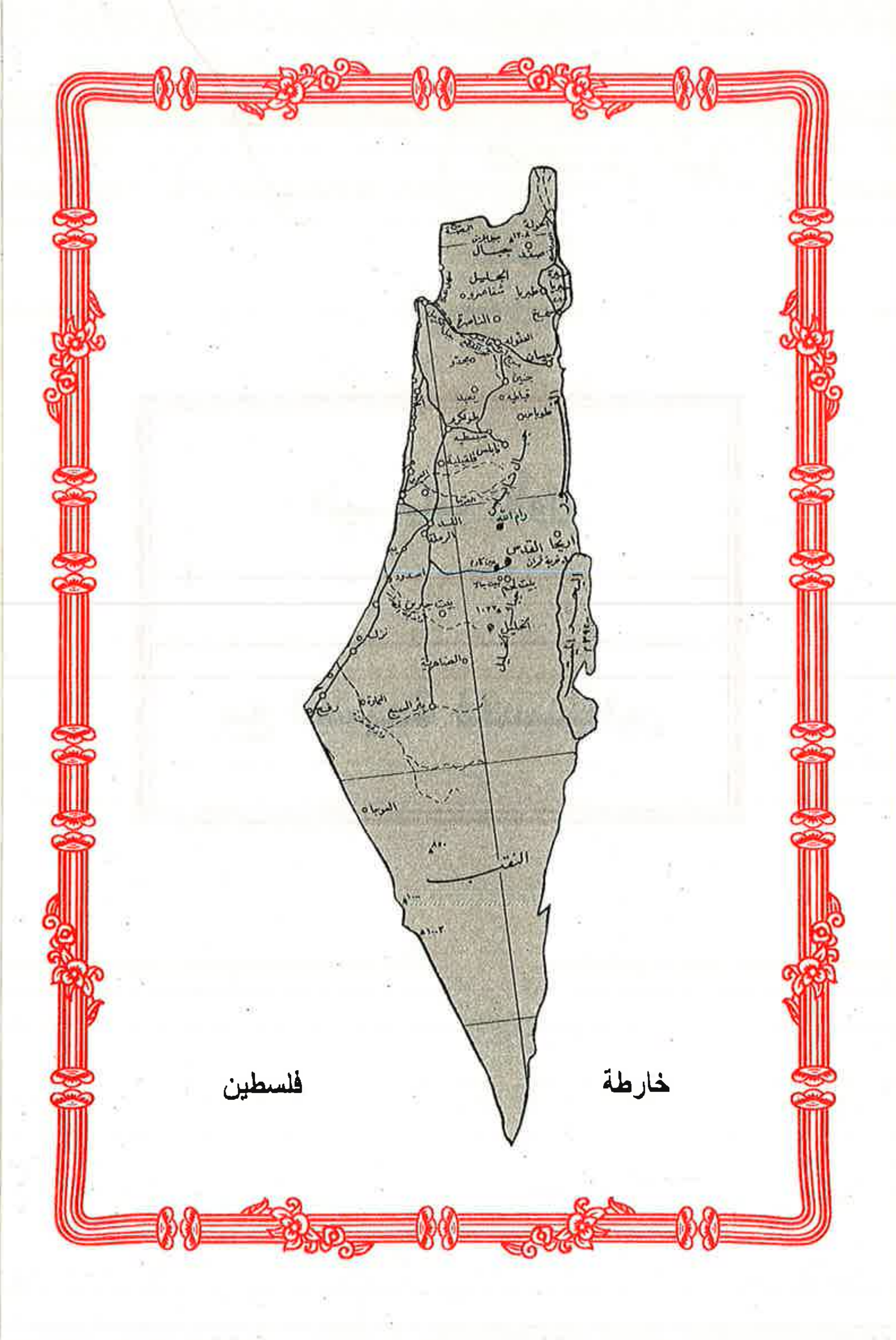
ولقد قسمت كل ملحمة من الملاحم التي ذكرتها قبل قليل إلى قسمين: قسم نثريّ يروي القضية وتاريخها نثراً، وقسم شعري يعرض القضية ذاتها وتاريخها شعراً.

والسبب الرئيس في ذلك أن هنالك فكرةً وقضيَّةً يجب أن يعرفها الناس، ويجب أن تلائم قدراتهم. فمن الناس من يحب الشعر، ومنهم من يحب النثر، ومنهم من يحب النثر والشعر. وتظل الملحمةُ ملحمةً في النثر والشعر، ما دامت تحمل خصائص الملحمة التي عرضناها. واجتماع النثر والشعر من أجل قضيّة هامة أمر جيّد ومفيد، وأبلغ في البيان وأعدل بين الناس.

* * *

البـــاب الأول

مع قضيــة فلســطين


صفد
جبال
الجليل
طبريا
شفاعمرو
الناصرة
العفولة
بيسان
جنين
قباطيه
طولكرم
نابلس
قلقيلية
طوباس
رام الله
اللد
الرملة
أريحا
القدس
بيت لحم
الخليل
الظاهرية
بئر السبع
رفح
العوجا
النقب
خارطة فلسطين

الفصل الأول

فلسطين

بين التاريخ والإيمان

يا فِلَسْطِينُ! يَا رُبَى المَسْجِدِ الأقـ
ـصى؟ حَنَانَيكِ مِنْ أسىً قَتَّالِ
أنْتِ حَقُّ الإِسْلام لؤلؤة الإِيْـ
ـمَان، دَارُ الجِهَادِ والأمْثَالِ
أنْتِ عَهْدٌ مَضَى لأحْمَدَ بالأقْـ
ـصى نَدِيّاً عَلَى جَدِيد اللَّيَالي
والنُبُوَّاتُ ومضَةٌ مِنْ غُيُوبِ
شَهِدَتْهُ وَوَثَّقَتْ مِنْ حِبَالِ

فلسطين

بين التاريخ والإيمان

١ ـ لمحة من تاريخ فلسطين القديم :

أرض فلسطين أرض التاريخ العميق، وأرض النبوة الممتدة، وأرض الإسلام والمسلمين.

يروي لنا التاريخ أنها حملت أسماء مختلفة على مرّ العصور. فقد سمّى قدماء المصريين جنوب فلسطين « خارو »، وشمالها « رتينو ». كما سميت بأرض كنعان نسبة إلى الكنعانيين الذين كانوا من القبائل العربية التي استوطنت فلسطين منذ سنة ٢٥٠٠ ق.م. أما اسم « فِلَسْطِين » فهي اللفظة المُعَرَّبة لاسم « بالِسْتِين » الذي كان يطلق على البلاد، والمأخوذ من اسم الشعب الذي كان يسكن السهول الشمالية والجنوبية من فلسطين، والذي كان يُسمَّى « الفلستينيون ». ومن أقدم الإشارات التاريخية لهذه التسمية لفظة « بلاستو » التي أطلقها الملك الآشوري ليشير إلى ساحل « فلستيا ». وقد أطلق الامبراطور الروماني « فسباسيان » اسم « بالِسْتِين » على البلاد. ولعلّه

نقله عن اليونان الذين أطلقوا هذه اللفظة أو ما يشبهها على هذه البقعة من الأرض.

لقد عَرَفتْ فِلسطين عبر التاريخ القديم سلسلة من الهجرات العربية والسامية، وسلسلة طويلة من الحروب والغزوات، وسلسلة من الشعوب التي مَرَّت بها أو اقامت فيها أو حكمتها. فبالإضافة إلى الكنعانيين العرب، كما ذكرنا قبل قليل، فقد هاجر إليها وأقام بها عدد من القبائل الساميّة: كالآموريين والجيوبون والغرغازيين والبرزيين واليبوسيين. وجاء كذلك الحثّيون، والفلسطينيون، والبابليون والآشوريون والكلدانيون، وغزاها اليونانيون والفرس والرومان، وحكمها الأنباط العرب بحدود سنة (٣٠٠) ق. م. كذلك.

وكان اليهود من بين الشعوب التي دخلت فلسطين، إلا أنهم دخلوها أول مرة يحملون رسالة الإسلام، كما سنوضح بعد قليل. وحين أتوا إلى فلسطين كانت فلسطين آهلة بسكانها، غنيّة برقيها المادي، قويّة بعدتها. ونلمس هذه القوة المادية في إشارة القرآن الكريم إلى ذلك، حين طلب موسى عليه السلام من قومه أن يدخلوا فلسطين حاملين الإيمان والتوحيد ورسالة الإسلام، أجابوه:

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾. [المائدة: ٢٢]

فكلمة «جبّارين» تشير إلى القوة المادية لدى سكانها آنذاك، حتى حسب اليهود لهم هذا الحساب وجبنوا عن حمل الأمانة.

لقد كانت أرض فلسطين مفتاح الشرق لكل غاز منذ أقدم العصور. ذلك أن من يحتل فلسطين يستطيع أن يتحرك شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، ويستطيع أن يقفز إلى ثلاث قارات، ويستطيع أن يتحرك برّاً وبحراً. وهي أرض غنيّة، متنوعة في طبيعتها، فنجد فيها البرد القارس والطقس المعتدل والجوّ الحار والطبيعة الدافئة، ونجد فيها الجبال الشاهقة والسهول الممتدة، والانخفاض الكبير، كل هذا في بقعة ضيّقة من الأرض، تصبح مركز الانطلاق والحركة مع كل أنحاء العالم. وهي تكوّن مع سائر بلاد الشام موقعاً يزيدها خطورة وأهمية. فهي تكوّن مع بلاد الشام والجزيرة العربية موقعاً وسطاً، خرجت منه أمة وسط ليكونوا شهداء على الناس، ألا وهي أمة الإسلام.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. [البقرة: ١٤٣]

لذلك كانت أرض فلسطين ميدان الرسالة السماوية، وميدان النبوّات والرسل. والرسالة السماوية في جميع العصور هي رسالة واحدة، هي رسالة الإسلام التي جاء بها جميع النبيين والمرسلين، والتي ختمت برسالة محمد ﷺ، هي رسالة التوحيد والإيمان.

٢ ـ فلسطين والنبوة:

يكاد يكون لجميع الأنبياء والرسل الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم صلة بفلسطين؛ فَنبيٌّ يَمُرُّ بها، ونَبِيٌّ يدعو فيها، ونَبيٌّ يُدْفن فيها. وعيسى عليه السلام رفعه الله إليه منها، ومحمد ﷺ أُسري به إليها، وأمَّ الأنبياء في المسجد الأقصى، وعُرِجَ به إلى السماء منها.

ويروي الحافظ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية[١] أن صلاح الدين الأيوبي زار قبر شعيب عليه السلام عند قرية «حِطّين» بعد انتصاره العظيم في هذه المعركة. و«حطين» قرب مدينة طبرية في فلسطين.

والنبي صالح عليه السلام بعثه الله إلى ثمود وكانت مساكنهم «بالحجر» في المكان المعروف «بمدائن صالح» بين الحجاز والشام في

---

(١) البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير. منشورات مكتبة المعارف في بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، جـ١٢، ص ٣٢٠، ص ٣٢٢.

الجنوب الشرقي من أرض مدين، وهي مصاقبة لخليج العقبة. وفي بعض الروايات قيل إن صالحاً عليه السلام والذين نجوا معه ذهبوا إلى «الرملة» أو غيرها من أرض فلسطين[1]. وقيل إنهم ذهبوا إلى حضرموت، وقيل إلى مكة المكرمة.

وعند البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «**أُرسِل ملك الموت إلى موسى عليهما السلام، فلما جاءه صكّهُ فرجع إلى ربِّه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. قال ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطّتْ يده بكل شعرة سنة. قال: أي ربِّ ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن. قال: فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر. قال أبو هريرة رضي الله عنه: فقال رسول الله ﷺ: لو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر**»[2].

وعند مسلم: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**أتيت (أو مررت في رواية أخرى) على موسى ليلة أُسرِيَ بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره**»[3].

---

(١) احسن القصص لعلي فكري. دار إحياء الكتب العربية، طبعة ١٣٥٢/١٩٣٣، جـ١، ص ٣٧ - ٤٢.

(٢) صحيح البخاري. كتاب الأنبياء (٦٠). باب (٣٠).

(٣) صحيح مسلم. كتاب الفضائل (٤٣)، باب (٤٢). حديث رقم (٢٣٧٥/١٦٤).

لقد جاء إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين مسلماً ودخلها مع لوط عليه السلام مهاجرين بدينهما من العراق إلى أرض فلسطين، فأقام في مدينة الخليل، وأقام لوط في جنوبي البحر الميت في مدينة «سدوم». وامتدت بهما الدعوة الإسلامية، فما كان إبراهيم، ولا كان لوطٌ، يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

[آل عمران: ٦٧، ٦٨]

ومضى هذا الأمر مع بنيه، وصيّة يوصيهم بها، ونبوة يكرمهم الله بها، وديناً يلتزمون به ويدعون له، إنه الإسلام، وإنهم مسلمون:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]

فما دخل إبراهيم فلسطين إلا مسلماً، وما كانت دعوته إلا الإسلام، وقد تبرّأ من الشرك كله. وكذلك كان يعقوب عليه السلام،

وكذلك كان بنوه:

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾. [البقرة: ١٣٥، ١٣٦]

وامتدت رسالة الإسلام في ذرية إبراهيم عليه السلام، رسالة ربانية بريئة من الشرك، طاهرة من عصبية العرق والجنس، قائمة على التوحيد، لا تمتدُّ إلى الظالمين ولا المفسدين ولا المعتدين:

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾.

[البقرة: ١٢٤]

ولوط عليه السلام كان مسلماً حنيفاً لله وما كان من المشركين:

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾. [الذاريات: ٣٥، ٣٦]

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾. [الصافات: ١٣٣]

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾. [العنكبوت: ٢٦]

وقد كان نوح عليه السلام قبلهما من المسلمين. فقد خاطب نوح قومه بكلمة الإسلام وعهد الإسلام، الذي امتدّ إلى جميع الرسل والأنبياء بعده:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. [يونس: ٧٢]

وهكذا امتدَّتْ رسالة الإسلام في فلسطين، بريئة من عرق، طاهرة من شرك.

ويوسف عليه السلام وهو في مصر، وقد جاءه أبوه وإخوته، يبيّن رسالته ودينه، وعقيدته وإيمانه: إنّه الإسلام:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. [يوسف: ١٠١]

لقد تطهر يوسف عليه السلام من الشرك، ومن عصبية الجاهلية ولوثة العرق وأعلن إيمانه وإسلامه نقياً صافياً طاهراً: «... **توفني مسلماً** ...». هي القضية التي كان يحرص عليها، يعيش لها ويموت عليها. إنها قضية الإسلام. إنها في دين يوسف عليه السلام أعلى من كل ملك، وأعظم من كل علم وفوق كل أُمنية، وفوق كلِّ عصبيّة.

وموسى عليه السلام لم يكن إلاَّ مسلماً، والذين آمنوا معه لم يكونوا إلاَّ مسلمين:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾. [يونس: ٨٤]

وامتدَّت الدعوة الإسلامية في أرض فلسطين، وارتبطت الدعوة الإسلامية بالأمة المسلمة، وارتبطت الأمة المسلمة مع إبراهيم عليه السلام بدعوة التوحيد ودين الإسلام. ارتبطت مع إبراهيم عليه السلام وهو يحمل الدعوة الإسلامية في فلسطين، لتظل دعوة ممتدة في الحياة، وفي الأرض كلها بعد ذلك:

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾. [الحج: ٧٨]

٣ ـ اليهود يتحركون إلى فلسطين:

وقام موسى عليه السلام يدعو للإسلام في مصر أولاً. ولما اشتدّ أذى فرعون أمر قومه بالتحرك إلى الأرض المقدسة، إلى أرض

الإسلام، لينجوا من فرعون وقومه وأذاهم. أمرهم بالتحرُّك إلى فلسطين، إلى أرض الإسلام، أرض الدعوة الإسلامية، ليجدوا هناك النجاة من فرعون، وليحملوا معهم دعوة الله، دعوة التوحيد، لا تحمل معها عِرقاً ولا جنساً، ولا تحمل معها عصبية جاهلية، وليقاتلوا في سبيل الله:

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. [المائدة: ٢١ - ٢٣]

(يا قوم...!) يخاطب موسى بها قومه المسلمين، قومه الذين دعاهم إلى الإسلام فأعلنوا استجابتهم لهذا الدين، حتى أصبح هذا الدين هو الرابطة التي تربطهم فيما بينهم وتربطهم بموسى. وعلى أساس هذه الرابطة يناديهم موسى عليه السلام ويخاطبهم. فما كان لموسى أن يخاطب قومه بعصبية عرق أو روابط جنس وهو يبلّغهم رسالة الإسلام.

(... ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم...)! إنها

الأرض المقدسة بأمر الله وبرسالة الإسلام. إنها مقدسة من قبل موسى عليه السلام، إنها أرض الإسلام كتبها الله للمسلمين. ومن هنا جاء التعبير الربّاني: « ... **التي كتب الله لكم...**»! أي لكم أيها القوم المسلمون، « ... **لكم** ...»! أي الأرض التي كتب الله أن تحملوا أنتم رسالة الإسلام إليها في تلك المرحلة من تاريخ الدعوة، نقية من الشرك، طاهرة من عصبيات العرق وعصبيات الجاهلية، لا تحمل معها شهوة الدنيا ولا مصالح العبيد، مفصولة عن قوى الشرّ والفساد في الأرض. إنها أمانة عظيمة لا تحملها إلا القلوب المؤمنة الصادقة. ولكن اليهود ضعفوا عن حمل الأمانة، وعجزوا عن النهوض إلى مسئولياتها، وجادلوا موسى عليه السلام في أمرٍ هو من عند الله، فعاقبهم الله بأن يتيهوا في الصحراء:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. [المائدة: ٢٥، ٢٦]

فعاقبهم الله بالضياع في تيه الصحراء حتى ذهب الجيل الضعيف المتخاذل، ودفع لهيب الصحراء جيلاً جديداً شديداً، يحمل الدعوة والأمانة حمل جدٍّ وعزيمة. فأذن الله لهم حينئذ بدخول فلسطين مسلمين يقاتلون في سبيل الله، دعاة إلى الله، فوهبهم الله النصر، وهبه

لعباده المسلمين، لا لعرق أو جنس.

ويؤكد لنا هذا المعنى ما جاء في الآيات من سورة المائدة عن الرجلين اللذين يخافان، اللذين يخافان الله، حين خاطبا قومهما الذين نكلوا عن الجهاد في سبيل الله، فضعفوا وجبنوا:

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. [المائدة: ٢٣]

فهي إذن رسالة التوحيد، وقضية الإيمان، ودين الإسلام، وجهاد في سبيل الله.

ولما قامت الفئة المؤمنة تصنعها رسالة التوحيد في لهيب الرمال وشدة الصحراء، قادها النبي يوشع بن نون عليه السلام في طريق الدعوة والجهاد وتحركوا إلى فلسطين:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: **«إن الشمس لم تُحبَسْ على بَشَرٍ إلا ليوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس».** (رواه أحمد)[١].

ومضت رسالة الإسلام إلى الأرض المقدسة وكتب الله النصر

---

(١) الفتح الرباني، ترتيب مسند الإمام احمد، جـ ٢٠، ص ١٠٤.

لعباده المؤمنين على الجبّارين الذين كانوا فيها .

٤ ـ امتداد الرسالة الإسلامية في فلسطين مع الزمن :

ولما دخل اليهود فلسطين باسم الإسلام يحملون الدعوة الإسلامية، منَّ الله عليهم بأن بعث فيهم أنبياء يدعون بدين الإسلام، وجعل فيهم ملوكاً يقيمون شرع الله، يقيمون دين الإسلام،فمنهم من آمن ومنهم من صدّ عنه :

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ﴾ . [النساء : ٥٥]

فكان من أنبيائهم وملوكهم داود عليه السلام أنعم الله عليه بالقوة، وشدَّ ملكه وآتاه الحكمة وفصل الخطاب :

﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ . [ص : ١٧ ـ ٢٠]

وكذلك :

﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن

سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

نعم إنه سبيل الله، ودين الله، إنه الإسلام.

وجاء بعد داود سليمان نبياً مسلماً:

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾. [النمل: ١٦]

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾. [النمل: ٣٠، ٣١]

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾. [النمل: ٤٢]

وعيسى عليه السلام جاء برسالة الإسلام إلى اليهود كذلك، بعد أن انحرفوا وتاهوا. وقام معه الحواريون يحملون الدعوة الإسلامية الممتدّة عبر التاريخ:

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

[آل عمران: ٥٢]

وكذلك:

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا

وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾. [المائدة: ١١١]

ومن هذا العرض نرى مسيرة النبوّة المسلمة في أرض فلسطين. ونرى أيضاً أن موسى عليه السلام والمؤمنين معه تحركوا إلى فلسطين، إلى الأرض المقدّسة، إلى الأرض التي جال فيها الإسلام طويلاً، ودعا في كل ناحية منها دعوة خالصة لله، فأمرهم نبيُّهم أن ينطلقوا باسم الإسلام، دين الله، لينجو من ظُلم فرعون، تنجيهم الدعوة التي يحملونها، لا تحمل معها جنساً ولا لوناً ولا طائفة، لا تحمل معها عصبية جاهلية، لا تحمل معها شهوات الدنيا ولا مصالح العبيد، مفصولة عن قوى الشرّ في الأرض، نقية من الشرك. ولكنّ اليهود ضعفوا عن حمل هذه الأمانة، وقعدوا عاجزين حتى عاقبهم الله بالضياع بالتيه في الصحراء.

ثم أذن الله أن تظهر الفئة المؤمنة المسلمة في لهيب الصحراء بعد أربعين سنة، لتحمل الدعوة والدين حمل جدٍّ وعزيمة، فأذن الله لهم حينئذ بدخول فلسطين.

وفي أرض فلسطين كانت العصبة المؤمنة المسلمة من اليهود تقاتل في سبيل الله، لا في سبيل أي شيء آخر:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ

عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. [البقرة: ٢٤٦]

ولما تحرك بهم طالوت كان التمحيص والابتلاء حتى تبرز العصبة المؤمنة المسلمة التي تقاتل في سبيل الله لا في سبيل أي شيء آخر. ودخلت العصبة المسلمة امتحاناً بعد امتحان حتى تخلص من كل خبث وضعف:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

[البقرة: ٢٤٩، ٢٥٠]

فلقد كان النهر اول تمحيص تُنقَّى فيه العصبة المؤمنة، حتى إذا جاوز طالوت النهر بقيت معه الفئة التي ثبتت ونجحت في الاختبار والتمحيص. ثم كان التمحيص الثاني حين قالوا لا طاقة لنا اليوم

بجالوت وجنوده. وهنا برز الإيمان الأقوى والأثبت في المجموعة التي تظن وتوقن أنها ستلاقي الله على إيمان وتوحيد بريء من العصبية الجاهلية ووثنية الجنس.

وبرزت كذلك هنا قواعد الإيمان في ميدان الجهاد، قواعد الصمود والمضي والجهاد، بعيدة عن الهوان والاستسلام، بعيدة عن فلسفات الهزيمة وأعذار الوهن، مشرقة بالصدق والوضوح والجلاء: «**... كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**».

ولا بد هنا من وقفة وتدبُّر. فإن هذه الآية الكريمة «**... كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله...**» هي آية غنيّة بالحق والصدق والوضوح، غنية بالدروس التي نحتاج إليها اليوم في واقعنا المعاصر حاجة ماسة، كما يحتاج إليها المؤمنون أبد الدهر.

فلقد أتت هذه القاعدة الإيمانية بعد شروط توافرت، هي أساس لسلامة ممارستها. وكان من أهمها: صفاء التوحيد وقوة الإيمان، وكذلك: الإعداد المادي: من طاقة بشرية مدربة، وسلاح وعدة، ونهج وخطة. وكل كلمة في الآية الكريمة من مطلعها توحي بالقوّة والإعداد والعزيمة «**فلّما فصل طالوت بالجنود...**»: إنهم جنود وقائد تحرّكوا لمعركة القتال. إنهم جنود تمّ تدريبهم وإعدادهم كما توحي ظلال كلمة «بالجنود». وكلمة فَصَل تحمل من الإيحاءات شيئاً

كثيراً. إنها تكاد تقول إنهم تركوا مكانهم وانفصلوا عنه بعد أن أخذوا كل حاجتهم للمعركة منه، فلا مجال للعودة للبحث عن سلاح أو نفر أو غذاء. فَصَلوا بعد أن استكملوا الإعداد والاستعداد في حدود واقعهم الذي كانوا يعملون فيه آنذاك، وفي حدود مسئوليتهم الشرعية، على أن يكون الاستعداد قد استكمل النواحي المادية والنواحي الإيمانية في بناء مرصوص. وكانت حكمة الله بعد ذلك أن هيأ أسباب التمحيص والابتلاء حتى يُنقَّى الصفُّ المؤمن من الخبث والوهن، فكان التمحيص الأول، ثم تلاه تمحيص آخر، حتى بقيت الفئة المؤمنة التي أسلمت لله ربِّ العالمين، الفئة التي تبرأت من العرق والجنس وسائر العصبيات الجاهلية. وجعلت قتالها جهاداً خالصاً صافياً صادقاً في سبيل الله، لا يلوِّثه شرك ولا هوى ولا انحراف، ولا تميل به فلسفة وسياسة وأعذار، وإنما يحكمه إسلام وإيمان وتوحيد. فهنا بعد استكمال هذا كله جاء السياق: «... **قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**».

ولعنا نستطيع أن نوجز الشروط الرئيسة التي يمكن أن نستخلصها من الآيات الكريمة في سورة البقرة، ومن آيات أخرى في سور أخرى بشروط أربعة رئيسة:

١ ـ الأمة المسلمة الواحدة في بنائها المرصوص.

٢ ـ ترابط الأمة جنوداً وقيادة على منهاج الله تدبراً وإيماناً وعلماً وممارسة.

٣ ـ إعداد وقوة: طاقة بشرية مدرّبة، وعدة، وسلاح.

٤ ـ نهج وخطة تضعها الطاقة البشرية على أساس من قاعدتين هما: منهاج الله والواقع الذي تعمل فيه الأمة.

وحين يتخلى اليهود عن الحقّ الذي بلَّغَهُمْ به أنبياء الله ورسله، حين يتخلون عن عهدهم مع الله، لا يعود لهم حق من حقوق النبوة والرسالة وقد تركوها وأداروا ظهورهم لها.

وحين يدَّعي اليهود أنهم «شعب الله المختار»[١] فإنه ادعاء يمثّل تحريف الرسالة السماوية. فلقد فضَّل الله اليهود في تلك المرحلة على غيرهم بأن حمّلهم رسالة الإسلام وبعث فيهم أنبياء وجعل فيهم ملوكاً، وذلك كله باسم الإسلام. فحين يتخلّون عن الإسلام فقد قطعوا السبيل إلى خير كانوا فيه، ويفقدون بذلك أيّ حقٍّ في فضل، ويسقطون في هوّة الضلال والشرك. ولو صدقوا الله، وصدقوا ما منّ به عليهم من دين وإسلام، لو فعلوا ذلك لاتبعوا محمّداً ﷺ ونصروه، فهذا كان عهد الله إليهم وعهد أنبيائهم إليهم. ولكنه عهد

---

(١) تراجع ملحمة الأقصى للمؤلف من أجل تفصيلات أوسع عن بطلان دعاوى اليهود كلها.

أخفوه مع ما أخفوا من حقائق الإسلام.

ولم يدخل اليهود فلسطين إلا باسم الإسلام، ولا بُعث عيسى عليه السلام إلاّ بالإسلام، وما كان لنبيّ من الأنبياء دين إلا الإسلام.

وكان الإسراء والمعراج. وكان الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، امتداداً لرسالة الإسلام، وتوثيقاً لعُرَا النبوة. فتمتدُّ الرسالة وتلتقي النبوّة كلها، نبوة الإسلام، يؤمُّهم محمد ﷺ في المسجد الأقصى إيذاناً بتسليم الأنبياء والمرسلين كلهم أمر الرسالة الإسلامية إليه، فهو خاتم الأنبياء وخاتم المرسلين. وهو ميثاق النبيين مع الله أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويشهدوا له بذلك:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾. [آل عمران: ١٨]

٥ ـ انحراف اليهود عن الإسلام وملحمة فلسطين:

ولقد ظل اليهود يحاربون دين الله ويحاربون أنبياءه ورسله فيكذبون فريقاً ويقتلون فريقاً:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾. [البقرة: ٨٧]

ومضى اليهود في حرب الإسلام والصد عن سبيل الله في جميع عصور التاريخ. وكانوا أكثر المشركين غدراً برسول الله، وأكثرهم نقضاً للعهد، وأوسعهم تآمراً.

وستظل الحرب ماضية، جولة بعد جولة، حتى ينتصر المسلمون فيها على اليهود نصراً من عند الله، يهبه الله للمؤمنين الصادقين، الذين تتوافر فيهم خصائص الإيمان، وصفات الصدق. ولقد أنبأنا رسول الله ﷺ عن هذه الجولة العظيمة من جولات الإيمان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود. فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر. فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد الله هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله. إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود». (رواه مسلم)[١].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن (٥٢)، باب (١٨)، حديث رقم ٨٢/٢٩٢٢.

من هذا التصور نستطيع أن نفهم التاريخ والأحداث، ومنه نستطيع أن نأخذ الدرس والعبرة، ومنه نستطيع أن نرسم النهج والسياسة ونحدد الموقف ونعطي الرأي.

ونرى في هذا الحديث الشريف دروساً وعبراً، وقواعد عقيدة وإيمان، ومعالم نهج وبيان. فالحديث ينصُّ: «... **حتى يقاتل المسلمون... فيقتلهم المسلمون... يا مسلم، يا عبد الله**»، فالحديث لم يقلْ يا فلسطيني، ولا يا سوري، ولا يامصري! بل قال: يا مسلم!.

فمحور الحديث إذن عن المسلمين، عن أُمّة الإسلام، عن الأُمة التي تنزل الميدان وقد أسلمت لله، وتبرأت من الشرك، وتركت العصبية الجاهلية كلها، إنها ليست فئة في عجاج التناحر، ولا قوماً في سواد التمزُّق، إنها أُمّة متراصة الصفوف حتى كأنهم صف واحد، وبنيان مرصوص.

ولا بد من أن نفهم الحديث على تناسقه وتكامله مع سائر الأحاديث ومع الآيات ومع منهاج الله. وتجلو لنا التعبيرات النبوية جمال الصورة وعظمة الإيمان، حين يأتي النصّ: «**يا مسلم، يا عبد الله...**». إنه عبد لله لا عبد للشيطان، ولا عبد للشهوات، ولا عبد لأصنام وأوثان وأهواء. ويجلو لنا التعبير النبوي صورة رائعة من الإيمان حين ينصُّ الحديث: «... **فيقول الحجر أو الشجر...**».

إنها مكرمة يكرم الله بها هذه الأمة في ميدان الملحمة حتى ينطق لها الحجر والشجر. ولا تأتي هذه التكرمة إلاَّ على مستوى من الإيمان عظيم، ودرجة من التوحيد عالية، وعزم من الثبات متين، وفي ملحمة يعمل فيها السلاح كل السلاح.

ويحدّد الحديث هنا مهمة الحجر والشجر، ومهمة المسلم. فالحجر يشير وينطق، ولكنه لا يكون السلاح الوحيد في معركة المؤمنين. فالقتال مهمة الإنسان المؤمن ومهمة سلاحه القاطع وزحفه المدوّي: «يا مسلم! يا عبد الله!... فتعال فاقتله...». إنها مهمة الإنسان المسلم والسلاح كل السلاح، إنها مهمة الأُمة المسلمة بعدَّتها وعديدها، بإيمانها وتوحيدها، ببنائها المرصوص. ولا تأتي هذه الملحمة فجأة بعد خمود وهمود، ولكنها ملحمة ممتدة في التاريخ على أرض فلسطين. يعرض لنا الحديث الشريف جولة عظيمة من جولاتها، ووثبة من وثباتها. ولقد رأينا في الصفحات السابقة مثلاً من جولات الإسلام في فلسطين، وسنرى في الصفحات المقبلة جولات أخرى، حتى ندرك من ذلك عظمة امتداد هذه الملحمة في التاريخ، امتداداً لا يتوقف أبداً. وإذا هانت طائفة وتخلت عن الساحة، فإن الله هو رب فلسطين ورب العالمين، يدفع إلى الميدان جنوداً من عنده أسلموا وآمنوا وأخلصوا دينهم لله بريئين من عصبية الجنس والعرق وغيرها من العصبيات الجاهلية، صادقين في إيمانهم وتوحيدهم:

﴿ ... وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾. [محمد: ٣٨]

فلا يحسبنَّ أحد أن على الناس أن يناموا ويركنوا إلى الظالمين، حتى تأتي هذه الجولة التي يعرضها الحديث الشريف. لا! فالملحمة ماضية لا تتوقف أبداً، والطائفة الظاهرة ماضية مع الدهر بأمر الله كذلك، والأمانة ممتدة في الحياة لا تنقطع، والمسئولية تقع على كل الأجيال والعصور، وكل جيل يحاسب عند الله على عمله ونفسه، ومن يتولَّ فإنما يتولى عن نفسه، والنصر من عند الله، قريب في كلِّ وقت للمؤمنين الصادقين. ولا يحسبَنَّ أحد أن قيام دولة لليهود يعني أنها باقية حتى تأتي هذه الجولة. فهذه مغالطة واسعة كبيرة. فالباطل يمكن هزيمته كل وقت بإذن الله، ولا يحلُّ الانتظار والاسترخاء والاستسلام، كما استسلم اليهود إلى أهوائهم حين دعاهم موسى عليه السلام إلى الجهاد في سبيل الله فضعفوا وهانوا. ملحمة فلسطين ماضية لا تتوقف، والجهاد في سبيل الله ماض لا يتوقف، والأمانة ماضية لا تتوقف، وكل جيل يحاسب عن نفسه وعمله، والنصر قريب بإذن الله.

إنها سنة الله في الحياة الدنيا، السنة التي يُجْري بها الله نصره على يد الطاقة البشرية، على يد الإنسان، الإنسان المؤمن خاصة، فهو القوّة الأساسية. ذلك لأنها هي القوة التي تحمل عظمة الإيمان وهي التي

تجمع بعد ذلك أسباب النصر وسائر القوى لتصوغها صياغة إيمانية، وتدفع مواكب الحق والخير والنور في الأرض:

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾. [التوبة: ١٤]

﴿ ...ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾.

[محمد: ٤]

وهذه الأمة المسلمة أُمّة ممتدة في التاريخ، ممتدة بجهادها، وإيمانها، وصبرها:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول، سمعت النبيّ ﷺ يقول:

«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. فينزل عيسى بن مريم عليه السلام فيقول أميرهم تعال صلّ لنا فيقول: لا! إنَّ بعضكم على بعض أمراء تكرمة لهذه الأمة». (رواه مسلم)(١)

فهذه الطائفة الظاهرة هي الطائفة الممتدة مع التاريخ، تظل ماضية

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (١)، باب (٧١)، حديث رقم ٢٤٧/١٥٦.

على الحق. فينزل عيسى بن مريم وهم ماضون في جهادهم. وعيسى ابن مريم ينزل في بلام الشام عند دمشق عند المنارة البيضاء، ثم يمضي إلى فلسطين حيث يدرك الدجّال عند «اللدّ» فيقتله.

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ذكر رسول الله ﷺ الدجّال ذات غداة فخفَّضَ فيه ورفع...» إلى أن يقول: «... فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق...» ثم يقول: «... فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ فيقتله».

(رواه مسلم والترمذي وأبو داود)[1].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ:

«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجّال». (رواه أحمد)[2]

وعن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول، جـ٥، ص٣٥٥/٣٥٦.

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، جـ٦، ص١٤٧، حديث رقم ٧١٧١/٢٩٩٧، محمد ناصر الدين الألباني.

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرُّهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». (رواه مسلم)[1]

عن جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة». (رواه مسلم)[2]

ويأتي هذا الحديث الشريف على روايات متعددة، يؤكد امتداد الجهاد في سبيل الله، وامتداد الأمة المسلمة، وامتداد النصر من عند الله.

فعيسى بن مريم ينزل في بلاد الشام ويدخل فلسطين، والطائفة الظاهرة يقاتل آخرهم الدجّال، والقتال يكون في فلسطين.

ففلسطين هي أرض الملاحم، ملاحم الإسلام، ملاحم الإيمان، تمضي بها الطائفة الظاهرة على الحق، ويقودهم في هذه أو تلك أئمة منهم وأنبياء في ملاحم ممتدة لا تتوقف.

٦ ـ فلسطين هي حق الإسلام وداره، وهي الأرض المباركة:

فلسطين هي الأرض المباركة التي بارك الله فيها وبارك حولها:

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة (٣٣)، باب (٥٢)، حديث رقم ١٩٢٠ / ١٧٠.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة (٣٣)، باب (٥٢)، حديث رقم ١٩٢٣ / ١٧٣.

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾. [الإسراء: ١]

ويعرض القرآن الكريم بركة هذه الأرض في سورة بعد سورة، وآية بعد آية:

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾.

[الأنبياء: ٧١]

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾. [سبأ: ١٨]

وهي بركة ماضية في التاريخ، ناشئة عن أنها أرض النبوّات، أرض محمد ﷺ، حيث أمَّ الأنبياء كلهم في المسجد الأقصى، ثمَّ عُرِج به إلى السماء، وقد تحدّث رسول الله ﷺ عن الخير والبركة في عدد من ديار المسلمين، ولكنه خصّ بلاد الشام (وهي ما يعرف اليوم بسوريا وفلسطين ولبنان والأردن) من ناحية، وخصَّ بيت المقدس من ناحية أخرى بأمور.

فعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:

«بينا أنا نائم إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي فظننت أنه مذهوب به، فأتبعته بصري فعمد به إلى الشام ألا وإن

الإيمان حيث تقع الفتن بالشام».

(أخرجه أحمد ورجاله رجال الصحيح)[1].

وعن يزيد بن أبي حبيب أن عبد الرحمن بن شماسة أخبره أن زيد بن ثابت قال:

«بينا نحن عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع إذ قال طوبى لأهل الشام، قيل ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه». (أخرجه أحمد)[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا مرتين. فقال رجل وفي مشرقنا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ من هناك يطلع قرن الشيطان».

(رواه أحمد)[3]

وبلاد الشام تعني فلسطين والأردن وسوريا ولبنان، فهذه كلها تسمى بلاد الشام.

---

(١) الفتح الرباني، جـ٢٣، ص٢٨٨، وقال: أورده الهيثمي في مجمع الزوائد. وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) الفتح الرباني، جـ٢٣، ص٢٨٩. حديث رقم ٦٥٠.

(٣) الفتح الرباني، جـ٢٣، ص٢٨٩، حديث رقم ٦٥٢.

وعن زياد بن أبي سودة عن أخيه أن ميمونة بنت سعد مولاة النبي ﷺ قالت: يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس، فقال:

«أرض المنشر والمحشر ائتوه فصلوا فيه، فإن صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه. قالت أرأيت من لم يطق أن يتحمّل إليه أو يأتيه، قال: فليهد إليه زيتاً يسرج فيه فإن من أهدى له كمن صلى فيه».

وفي حديث آخر: خمسمائة صلاة. (رواه أحمد)[1]

وعن معاوية بن قرّة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرّهم من خذلهم حتى تقوم الساعة».

(رواه الترمذي وأحمد)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«لا تُشَدُّ الرحالُ إلاَّ إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى». (رواه مسلم)[3].

---

(١) الفتح الرباني، جـ٢٣، ص٣٩٣، حديث رقم ٦٦٠.

(٢) الترمذي، كتاب الفتن (٣٤)، باب (٢٧)، حديث رقم ٢١٩٢. الفتح الرباني: جـ٢٣، ص٢٩٠، حديث رقم ٦٥٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الحج (١٥)، باب (٩٥)، حديث ٥١١/١٣٩٧.

وعن أبي أُمامة الباهليّ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك». قالوا يا رسول وأين هم؟ قال: «ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس». (أخرجه أحمد)[1].

إن هذا هو التصوّر الإيماني الذي نريد أن نحمله في قلوبنا، والذي نريد أن نعلنه للناس، والذي نريد أن نرسم منه النهج والموقف والسياسة.

إنه التصوّر الذي يدفع مواكب الإيمان إلى المسجد الأقصى، إلى الأرض المباركة، إلى الأرض المقدسة، ليشدّ المؤمن رحاله إلى هناك، ليعبد الله فيصلي، أو يجاهد فيقتل فيدفن فيها، لينال الأجر العظيم والثواب الكبير.

فالمسجد الأقصى هو أولى القبلتين، وأحد المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرحال، وهو في الأرض المباركة التي هي أمانة في عنق كل مسلم في الأرض، يحاسب يوم القيامة على ما فرّط في أمره.

---

(١) مسند الإمام أحمد، جـ٥، ص٢٦٩. فضائل القدس لابن الجوزي، ص٩٤. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل للقاضي مجير الدين الحنبلي، ص٢٢٨.

٧ ـ امتداد ملحمة فلسطين:

لقد دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ أمير المؤمنين يومئذ ـ مدينة القدس يوم الخميس ٢٠ ربيع الأول سنة ١٥ هـ، الموافق اليوم الثاني من شهر أيار (مايو) سنة ٦٣٦م. ثم دخلت الجيوش الإسلامية لتمدَّ مسيرة الدعوة الإسلامية في الأرض المقدسة التي جعلها الله للإسلام والمسلمين ما قاموا بحق الله فيهم، وبحق الأرض المقدسة المباركة عليهم. دخلوها نوراً وعدلاً ورحمة وسماحة ما عرفها تاريخ الإنسان إلاَّ في الإسلام.

وهكذا يظل الإسلام، ويظل المسلمون هم الذين يملكون حق فلسطين على صورة ثابتة مستمرة في تاريخ البشرّية منذ أقدم الأزمنة إلى يومنا هذا، ويملك المسلمون هذا الحق لا عن عصبية جاهلية، ولا عن فساد وعدوان في الأرض، ولكن عن دعوة ربّانيّة، ورسالة سماويّة، ومهمة خير وبركة في الأرض كلها. وما عرفت فلسطين في جميع عصورها عدلاً مشرقاً، وخيراً وسماحة، كما عرفته من الإسلام.

وعندما حرّك الطمع والحقد قلوب رؤساء الفساد في الأرض، حرّكوا عواطف الناس باسم الدين المسيحي، وهم في حقيقة أمرهم يحاربونه في بلادهم، وأثاروا أحقاداً زرعوها في نفوس شعوبهم، فكانت الحروب الصليبية. فاحتل الصليبيون بيت المقدس يوم الجمعة

في ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ هـ، الموافق ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٠٩٩م، وارتكب الصليبيون مذبحة هائلة في المدينة، وفي داخل المسجد الأقصى حيث قتل فيه وحده أكثر من سبعين ألف مسلم، جريمة مروّعة تهز ضمير البشريّة كلها إلى يوم القيامة، وتمد خط الفساد في الأرض ليتصل مع محاكم التفتيش وسائر مظاهر العدوان والظلم، وتهيب بأهل الحق أن ينهضوا لأماناتهم وعهدهم مع الله.

« ومحاكم التفتيش » التي نقصدها هنا، أو « ديوان التحقيق » كما تسميه بعض المراجع، هي تلك التي قامت في الأندلس لإبادة المسلمين واستئصال وجودهم في إسبانيا. وكانت هذه المحاكم تقوم بالاستقصاء والبحث عن مخالفي المذهب الكاثوليكي واتباع أشدّ الأساليب وحشية في التعذيب، والإجبار على التنصير، والسجن، وأحط وسائل التحقيق، وحرق المتهمين أحياء، واغتصاب البنات والزوجات. وكان يتم ذلك كله بأمر من البابا وتوجيهه. ولكن هذا الأُسلوب الوحشي كانت تتبعه الكنيسة الكاثوليكية منذ أوائل القرن الثالث عشر في التحقيق في أمر العقائد في الكنيسة الرومانية. وبدأت هذه المحاكم في مملكة أراجون سنة ١٢٤٢م. وصدر مرسوم بابوي لتطبيق ذلك في قشتالة سنة ١٤٧٨م. ثم أخذ يمتد إلى جميع أنحاء الأندلس، واشتدت الوحشية بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين سنة ٨٩٨ هـ (١٤٩٢م). وكان من أسوأ الأعمال التي قاموا بها كذلك ما قام به الكاردينال خمنيس وحاكم مدينة غرناطة بجمع ما

يستطيعون من الكتب العربية من أهالي غرناطة وأرباضها، ثمَّ نُظِّمتْ أكداساً هائلة في ميدان باب الرملة، أعظم ساحات المدينة، وفيها كثير من المصاحف البديعة الزخرف، وآلاف من كتاب الآداب والعلوم واضرمت النار فيها جميعاً. ويقدر «ي. دي روبلس» في كتابه عن خمنيس عدد الكتب بمليون وخمسة آلاف كتاب وآخرون يقدرونها بمائة وخمسة وعشرين ألفاً، وآخرون بثمانين ألفاً. ولعل ذلك كان بحدود سنة ٩٠٥ هـ (١٤٩٩م).

ولقد مرّت عمليّة إبادة المسلمين في إسبانيا في مراحل متعددة أهمُّها: التعذيب والقتل، التنصير، ثم الطرد النهائي الجماعي للمسلمين الذين تنصّروا والذين أصبحوا يعرفون باسم: «الموريسيكيين». وقد تمَّ هذا الطرد النهائي عام ١٦٠٩م[١].

وهذه الجرائم الوحشية تجدها ممتدّة مع حضارة الغرب منذ تلك العصور حتى يومنا هذا. ولم تستطع زخارف الحضارة الكاذبة ولا علومها ولا جامعاتها ولا منظمات حقوق الإنسان، ولا المؤسسات الدولية كلها، ولا النظام العالميّ الجديد الكاذب أن يمنع امتداد هذه الجرائم.

انظر جرائم الحروب الصليبية والمذابح التي أجروها في القدس

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس ـ محمد عبد الله عنان ـ ص: ٣١٦، (٣٠٩ – ٣٢٧)، (٣٢٨ – ٣٤٨)..

كلها، وفي حرم المسجد الأقصى خاصة. وانظر جرائمهم المروّعة في الهند، في كشمير، في الفلبين، في الجزائر وما فعلته فرنسا، في دول أفريقيا وهي تحت سلطة العدوان، في فلسطين، وأخيراً انظر مجازر البوسنة والهرسك وما يفعله الصرب الأرثوذكس والكروات الكاثوليك بالمسلمين، وما يصرح به ميتران، رئيس فرنسا، من عداء مكشوف وعدوان ظالم صريح.

لقد ظلت «محاكم التفتيش» تنفّذ جرائمها حتى يومنا هذا، والعالم يتطلّع والدماء تسيل، والأشلاء تتطاير، والحرائر تغتصب، ومع ذلك يظلون يتحدثون عن حقوق الإنسان، وَيَتَّهِمون الذين يدافعون عن ديارهم وأعراضهم بالإرهاب.

لن يحمل حقوق الإنسان ولن يحميها، ولن يتصدّى لجرائم هؤلاء الوحوش في الأرض إلا الإسلام. إنه حاجة الإنسان، حاجة الشعوب كلها، حاجة البشرية مدى الدهر.

وأعاد صلاح الدين الأيوبي عظمة الصورة الإيمانية من العدل والرحمة حين استردّ القدس يوم الجمعة في ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ، الموافق ٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٧م. وامتدت الدعوة الإسلامية في الأرض المباركة تستأنف مسيرتها.

ولكن أحقاد الشر الصليبي انضمَّتْ إليها أحقاد الصهيونية،

وظلت الأحقاد كلها تعمل في ظلام الليل، وفي عفن الزوايا والكواليس، حتى دخلت جيوش الحلفاء القدس في ٩ ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩١٧م، ليمتدَّ خط الإجرام والطمع والعدوان، فيزداد الشرّ نمواً وقوة، ويغرق المسلمون في وهن الدنيا، حتى يخرجوا من فلسطين أفواجاً سنة ١٩٤٨م، يتلمسون مع سائر المسلمين في الأرض دروبهم في ظلام حالك. ثم سقطت القدس في يد الصهيونية في ٧ حزيران (يونيه) ١٩٦٧م، في يوم أسود حالك، تنكشف فيه أحوال المسلمين في الأرض على ضعف وهوان وشتات، وينكشف تعاون الكافرين في الأرض على شر عظيم.

لم يقف أهل فلسطين موقف المتفرج من ذلك كله، ولا وقف المسلمون خارج فلسطين كذلك. فانطلق الجهاد وأقبل المؤمنون على بطاح فلسطين بالرغم من الشتات والتمزّق، والضعف والهوان، وبالرغم من الجيوش الأجنبية التي سبق أن قطَّعَتْ ديار المسلمين.

٨ ـ الانتفاضة:

وانطلقت في فلسطين في الآونة الأخيرة ثورة الحجارة، وتناولها الإعلام العالمي على نحو جديد يختلف عما تناول به أحداث المخيمات في لبنان قبل وقت ليس ببعيد. ونزل أهل فلسطين يصارعون في الشوارع وسلاحهم الحجر. فمن دفعهم إلى هذا الانفجار الذي بدا مفاجئاً، من فجَّر الصمت العميق؟

نرجو من الله أن يكون هذا نفحة من نفحات الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيين والبعث والحساب. إنه الإيمان برسالة محمد ﷺ ديناً للإنسان، دينا يفجّر طاقات الخير، وطاقات الحق والصدق. وليتنافس الناس بعد ذلك في تفسير هذا وذاك. نقول هذا إذا لم يسقط الحجر في هوة المساومات وهوان الطلب ورخيص الأهواء.

وندعو الله أن يكون من حمل الحجر قد عرف ما يريد، ورسم خطته، وحدد هدفه، خطة إيمان وهدف إسلام ودين، ليقول للدنيا كلها إن فلسطين هي أرض الإسلام، لا تُمزّق ولا تجزّأ ولا تُقَطّع. ليست القضية هنا هل تقف هذه الانتفاضة أم لا تقف، ولكن القضية الهامة ماذا بعد ذلك؟ فهذا هو الذي يحمي الخُطة ويشقُّ الدرب ويرسم القرار.

إن القضية هي قضية فلسطين كلها جزءاً من دار الإسلام، مرتبطة بدار الإسلام لا تنفصل عنها. إنها قضية فلسطين المسلمة، فلسطين الملحمة في التاريخ كله، فلسطين التي تنادي أمة الإسلام كلها، لا تخاطب شعباً دون شعب. إنها قضية الإسلام والمسلمين.

فمن واجب المسلمين في الأرض كلها أن يتحملوا مسئوليتهم في هذه الملحمة الممتدة في التاريخ، والمسلمون على مدى التاريخ محاسبون عن أنفسهم وأعمالهم في قضاياهم، وفي قضية فلسطين

خاصة. فمن مسئوليتهم أن يمدُّوا خطَّ الملحمة في التاريخ، جولة إثر جولة، لا أن ينتظروا جولة حدَّثنا عنها رسول الله ﷺ في حديثه الشريف الذي مرّ معنا قبل قليل. فالحديث الشريف يحدثنا عن جولة صادقة ستقع، دون أن يعني أنها هي الجولة الوحيدة الصادقة على أرض فلسطين. فجهاد المسلمين ماضٍ إلى يوم القيامة لا يتوقف أبداً، وجولات النصر ممتدة بإذن الله، صادقة ما صدق المؤمنون، والنّصر من عند الله. فمن واجبنا اليوم أن ندرك أبعاد المسئولية الإيمانية، المسئولية التي تقع على كاهل الأمة المسلمة كلها، على أساس من خُطة إيمانية واعية تستوعب طاقات الأمة كلها:

فَانْهَضْ إذا أَوْفَيْتَ خُطَّةَ مُؤْمِنٍ
وصَدَقْتَ نَهْجَ الفَارِسِ المَتوسِّمِ
وَتَحفَّزَتْ كُلُّ الربَى ! يا حُسْنَهَا !
والغارُ فَوقَ جَبِينِهَا والمِعْصَمِ
وازّيَّنَتْ بالزَّاحِفِين كَأنَّهم
فَلَقُ الصَّبَاحِ جَلاَ عَبِيرَ العَنْدَمِ
كُلُّ المَيادِينِ الّتي هَيَّجْتَها
هَبَّاتُ خَطّارٍ وَلَهْفَةُ مُعْلَمِ

نعم! كلُّ الرُّبى. . .! الأمة المسلمة صفاً واحداً وبنياناً مرصوصاً، يعي المسئولية التي سيحاسب عليها يوم القيامة! نعم! كُلُّ الرُّبى. . .! من أمة الإسلام في جولة تستوعب طاقاتها كلها. «كُلُّ الميادين التي هيّجْتَها».

ويجب أن يظلّ المؤمن الصادق يحاسب نفسه، ويدرس خطوته، ويسأل:

إلى أين أسير؟ أين الهدف الإيماني؟ وأين الدرب الموصل إليه؟ حتى إذا اطمأنت نفسه وثب وأقبل على الله في جهاد أمين واعٍ.

وتظهر عظمة الإيمان وتنكشف أماراته في ميدان الممارسة والجهاد. وإنك لتعرف ذلك في الكلمة الصادقة الأمينة، الكلمة التقية الواعية، حين تخرج في عبقها الفواح، فيعرفها القاصي والداني، وفي الخطوة الجريئة والمراحل الذكية حين يراها الناس في الدّم المتدفق في سبيل الله، وفي الأهداف المتناسقة المترابطة حين تطلع في يقين وجلاء. إن عظمة الإيمان لا تختلط مع هوان من يحاول أن يكسب دنيا أو من تجرفه الوحول.

٩ ـ مع جولات الجهاد:

ومنذ سنة ١٩٢٠م عرفت فلسطين جهادها الأول ضد الإنكليز واليهود معا. ومضى الجهاد بعد ذلك يتفجر في أرض فلسطين: ١٩٢١م، ١٩٢٩م، ١٩٣٥م، ١٩٣٦م، ١٩٣٧م، ١٩٤٨م،

وامتدّ حتى يومنا هذا، وما كانت تمثل الجولة الأخيرة التي انتفضت بحدود ١٥ ربيع الأول سنة ١٤٠٨ هـ، ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٧م، إلا امتداداً لهذا التاريخ الطويل.

ولم تكن جولة ١٩٢٠م هي أول صدام مع اليهود في فلسطين. فلقد كان أذاهم معروفاً قبل قرن من الزمان تقريباً، حين اصطدم أهل مدينة صفد مع اليهود بحدود سنة ١٨٣٢م، أثناء غزو إبراهيم باشا لفلسطين. ومنذ ذلك التاريخ انكشف تدخل قناصل الدول الأجنبية لصالح اليهود بشكل جلّي.

ومنذ تلك السنة كنت تجد أهل الجهاد هم رجال الإسلام وهم العلماء وهم الذين ينزلون الميدان. وفي كل وثبة كنت تجد مشاعلها جنود الإسلام، وتجد وقودها هم جنود الإسلام.

ففي فلسطين قاد العمل علماؤها منذ بدايته: الحاج محمد أمين الحسيني وإخوانه ورفاقه في الجهاد. ومن العالم العربي تدفق جنود الإسلام يقاتلون في سبيل الله، ويضربون أروع الأمثلة في الجهاد والاستشهاد. ومن العالم الإسلامي تحرك جنود الإسلام كذلك يحنّون إلى فلسطين حنيناً شديداً، وكان المؤمنون صفاً واحداً.

ربما يحاول بعضهم الإساءة إلى هذا الصف المؤمن بإثارة عصبيات جاهلية مؤذية، وإشاعة روح من فتنة. فيثيرون في حمّى العاطفة شقاقاً يدعونه بين مؤمن ومؤمن، ومجاهد ومجاهد، بعد أن

قضى هؤلاء المؤمنون، ومضى جهادهم، وأصبح أمرهم بين يدي الله العزيز الغفّار. فتثور حماسة هذا لهذا، وذاك لذاك، في فتنة لا تفيد جولة ولا تُغذِّي إيماناً. مَضى المجاهدون الأعلام وما اختلفوا، واختلف عليهم القاعدون اليوم.

لقد مضى الشيخ عز الدين القسام رحمه الله وهو مجاهد مع هذا الصف المؤمن الواحد، صفّ لم تطرقه فتنة، ولم يُفرِّقْهُ شقاق ولا خلاف. وما كان لهم أن يقعوا في ذلك، فإيمانهم وعلمهم يعصمهم من ذلك كله. وعسى أن يتعلم الناس دروساً من صدق النية وسلامة القصد في ميادين الجهاد خاصة من أولئك الرجال الأعلام.

وإذا عرفتْ ساحة العمل خلافاً، فما عرفته في هذا الصف المؤمن، فربما حدث خارجه بعض ذلك.

ولم يكن دور الإسلام في ميدان القتال فحسب، وإن كان هذا من أعظم ميادين الجهاد، ولكنه كان كذلك في ميدان الفكر والكلمة والأدب والشعر.

وسيمضي الجهاد في فلسطين جهاد المؤمنين، جهاد الأمة المسلمة، مهما ظهرت فينا بوادر ضعف وهوان. فما زال في الأُمّة جذوة الخير، وعصارة الإيمان، ونواة البركة، ومازال فيها الصادقون، وسيمضي الصادقون يطرقون أبواب الجنّة في فلسطين، وفي

أفغانستان، وفي سائر ديار المسلمين. وسينتصر المؤمنون، وسينتصر الإسلام، وستعود فلسطين، إن شاء الله.

ولكنها دروس يتعلّم منها المؤمنون، فلو عدنا إلى سنة ١٩٤٧م، عندما أُعلن التقسيم، هبَّ أهل فلسطين، وأعلن الإنكليز إلغاء الانتداب. في ذلك الوقت كان أهل فلسطين يستطيعون مجابهة الأحداث، ومتابعة الجهاد في أرضهم وديارهم وهم فيها، لو مُدُّوا بالسلاح والمال والتدريب، ولو حوربت الوسائل العلنية والخفية للتهجير والترحيل في هذه المرحلة أصرّت معظم الدول العربية على أن تتولى هي قضية فلسطين. وكان اليهود آنذاك أضعف بكثير مما أصبحوا عليه بعد سنين. ولما اشتدت قوة اليهود، ونمت دولتهم سنة بعد سنة، أصبحت مجابهتهم تحتاج إلى ميدان أوسع، وتلاحم أقوى، وخطة أوعى. وأصبح خطر اليهود أكثر وضوحاً، وأكثر اتساعاً، مما يستدعي قيام أُمة تبني قوتها وعدتها وخطتها لتفلح في مجابهة الموقف. ولكن الدول العربية جعلت القضية في هذه المرحلة الجديدة بأيدي فئة محددة من الشعب الفلسطيني الممزّق.

وقد ضرب عدد غير قليل من رجال فلسطين المؤمنين، من رجال الجهاد العاملين، من المؤمنين الذين انطلقوا في ميادين السياسة والقتال والفكر، نماذج غنية في الوفاء والتجرد، والزهد في تنافس الدنيا. ومنهم من دخل الميدان غنياً بالمال والإيمان، وغادر الدنيا وقد زاد إيمانه

وجفّ ماله، وقضوا دون أن ينالوا زهوة الإعلام أو بحبوحة العيش، ولم يبحثوا عن غنيمة دنيا ولا زخرف حياة.

دروس من الإيمان رسمها الإسلام على أرض فلسطين، لتظلّ عبرة تتعلم منها الأجيال.

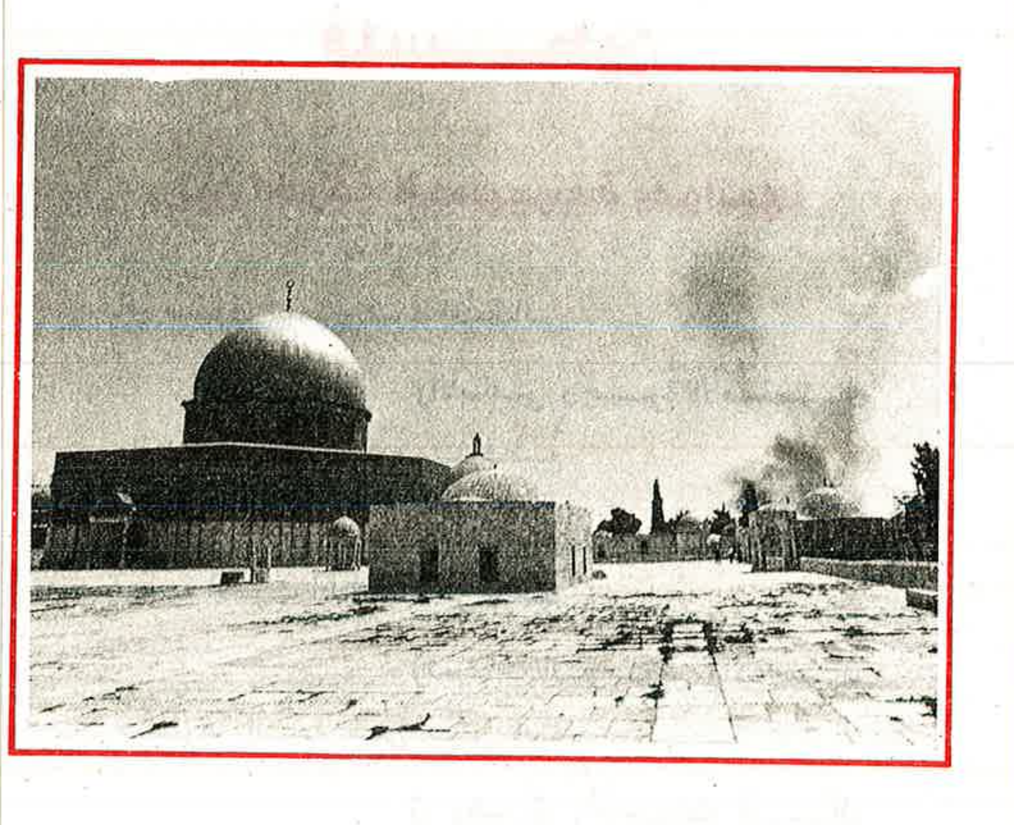
* * *

الفصل الثاني

فلسطين

بين الحركة الصهيونية ومواليها

أيُّ سُوقٍ تَموجُ فيهِ الثَّكالَى
والأيَامى وحيرَةُ الأطْفالِ
والضَّحايا من الشُّعوب قَطيعٌ
يتلوَّى في زَحْمةٍ مِن ثَعالي
نهمَةُ الموتِ أطْلَقَتْ مِنْ يَدَيْها
وَثَباتِ الوحُوشِ والأدغالِ
حَمَلُوها إلَيْهِ مِنْ بَيْنِ آمَا
لٍ وَشَوْقٍ وأُمْنِياتٍ غَوَالِ
نَزَعُوا كُلَّ حلْيَةٍ مِنْ يَدَيْهَا
مِنْ جَبِينٍ مُرَصَّعٍ بالَّلآلي



في القدس : التوتر هو «الامر اليومي»

فلسطين

بين الحركة الصهيونية ومواليها

* جرت العادة لدى كثير من الكتّاب والسياسيين أن يعتبروا مؤتمر بال سنة ١٨٩٧م هو نقطة البداية للعمل الصهيوني. ولكن الحقيقة هي أن الحركة الصهيونية والنشاط اليهودي يعود إلى تاريخ قبل ذلك بسنين طويلة. وقد لا نعرف النقطة الحقيقية لولادة هذا النشاط في القرون الأخيرة، ولكننا نؤكد أنه بدأ في وقت مبكر.

والصورة العادلة التي يجب أن نحملها هي الصورة القرآنية لليهود، الصورة التي يعرضها كتاب الله لليهود وهم يسيرون في خط طويل في التاريخ البشري يفسدون في الأرض، في صورة سرّية أو صورة علنية. لقد حاربوا رسول الله ﷺ سراً وعلانية في المدينة المنورة، ثمَّ امتدت حربهم مع التاريخ في حركات باطنية، أو حركات إلحادية، أو حركات عدوانية، تمتدّ وكانّها تكاد لا تقف. **فالحركة الصهيونيّة تمّثل التطور الواسع لهذا النشاط اليهودي التاريخي،**

تجمع فيه خبرة قرون طويلة في الإفساد والإجرام على مستوى عالمي.

وبسبب نشاطهم المفسد هذا لقوا في كل بلد أقاموا فيه كراهية ونفوراً. فاضطروا إلى أن يعتزلوا المجتمعات، وأن يتسللوا إلى جميع مراكز النشاط في هذه الدولة أو تلك، وأن يتآمروا على من عاهدوه ويخونوا من والوه. منذ أقدم العصور واليهود يتحالفون مع هذه الدولة أو تلك ثم يغدرون بها.

وقد نكثوا العهد مع موسى عليه السلام، وقتلوا بعض أنبيائهم وتآمروا على عيسى عليه السلام.

وما كانت ضربة «نبوخذ نَصَّر» لهم سنة ٥٨٧ ق.م. إلا صدى خيانتهم له، ونكثهم العهد واليمين الذي أعطوه له، فكان من أثر ذلك السبي البابلي. وللأسباب ذاتها انتقم «طيطس» الروماني منهم سنة ٧٠م، وكذلك فعل «هادريان» سنة ٧٣م. وكيف ننسى خيانتهم لرسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب، وتآمرهم المستمر في المدينة، وقطعهم العهود وحبك المؤامرات في حالك الليل. حتى أنزل الله بهم عقوبته في غزوة بني قريظة، وأنزلها في بني النضير وفي سائر قبائل يهود.

ولم يخرج تاريخ اليهود في العالم عن هذه الصورة المفزعة من

الخيانة والغدر، فقد طُرِدَ اليهود من إسبانيا سنة ١٩٤٣م نتيجة لخياناتهم، وتآمرهم. واشتركوا في محاولة اغتيال قيصر روسيا الكسندر الثالث سنة ١٨٨١م، وأعمل الشعب الروسي فيهم المذابح سنة ١٩٠٢م. وعمل اليهود في ألمانيا ضد مصلحة ألمانيا أثناء صراعها مع فرنسا حول الألزاس واللورين وطعنوا الجيش الألماني من الخلف، ولما اشتدت خيانة اليهود في ألمانيا وتوالت أفرغ الشعب الألماني حقده وانتقامه منهم أثناء الحكم النازي. كما أعلن رئيس جمهورية أمريكا «بنجامين فرانكلين» خطر اليهود المقبل على أمريكا كما هو مبين في الوثيقة في أول الكتاب، ولكن صوته غاب في هدير الزحف الصهيوني.

ويصف القرآن الكريم هذا الطبع اليهودي أدق وصف، ويفصّل فيه تفصيلاً واسعاً ليكون زاد البشرية كلّها لتدفع خطر هذا الأخطبوط الممتد في الأرض والممتد في التاريخ. ولن تجد زاداً ولا سلاحاً مثل هذا الزاد والسلاح. ونأخذ قبسات من ذلك:

﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. [البقرة: ١٠٠]

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ

شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. [المائدة: ٦٠ – ٦٢]

أما أحلام العودة إلى فلسطين فهي لعبة قديمة لم تبتدئ في مؤتمر بال. إنها لحن يحرّك به أصحاب المصالح والشهوات منهم عواطف الناس حين يصبغون هذه الدعوى الباطلة بطلاء من الدين. وظل اليهود على مرِّ السنين يعيدون هذه النجوى كلما اقتضت مصالح الإفساد والإجرام ذلك. ولا أدلّ على ذلك من أنّ أهل هذه الدعوى لا يحسبون للدين حساباً في مناهج حياتهم، ولا يظهر الدين إلاّ في مثل هذه المناسبات من المصالح والتجارة.

ولعلنا نجد رائحة هذه الدعوة الباطلة في الكتاب الذي يضعه الكاتب الفرنسي «بونسون» عن تاريخ العالم، يجعل فيه «يهودا» مركز العالم ومحور الأحداث، «بإرادة الرب الوفيّ لأبناء يعقوب الذين يقع عليهم عبء قيادة البشرية»، وذلك في القرن السابع عشر.

ووعد نابليون بونابرت اليهود في آسيا وأفريقيا بإعادتهم إلى القدس وإعادة بناء هيكلهم إذا هم ساعدوه على غزو فلسطين. وقد

وجّه نداءه ذلك أثناء حملته على مصر سنة ١٧٩٨م.

وازدادت هذه الدعوى قوة مع الأيام حين نظم اليهود علاقاتهم مع كثير من الدول، ووزعوا أنفسهم هنا وهناك، في سبيل تسهيل مهمة عودتهم إلى فلسطين. وأصبح عدد من دول العالم تهتّم بمصالح اليهود بعد أن أخذت المصالح الإجرامية تتلاقى.

فبريطانيا هي من أقدم الدول التي أبدت اهتماماً واضحاً في هذا الاتجاه في العصر الحديث. فنجد «بالمرستون» يبذل مساعيه لدى السلطان العثماني في أعقاب الانسحاب المصري من بلاد الشام سنة ١٨٤٠م لإعادة اليهود إلى فلسطين. ولما فشل «بالمرستون» في ذلك أصدر تعليماته الصريحة لقناصل إنكلترا في الدولة العثمانية بمنح الحماية البريطانية لليهود الأجانب الذين يرفض قناصل دولهم الاعتراف بهم. ثم بدأت الدول المختلفة ترفع قيودها التي كانت تفرضها على اليهود دفعاً لخياناتهم وتآمرهم. فبسمارك رفع كافّة القيود عنهم سنة ١٨٧١م، وأمريكا رفعت القيود سنة ١٧٨٧م، وفرنسا سنة ١٧٩٠م، وإيطاليا سنة ١٨٧٠م، وبريطانيا سنة ١٨٩٠م.

من خلال هذا النجاح أخذت الحركة الصهيونية تحرز نجاحاً بعد آخر، وتنمو في وسائلها وامتدادها وأطماعها وإصرارها على عودة اليهود إلى فلسطين. فاليهودي «موسى منتفيورى» يعرض على

« محمد علي باشا » وولده « إبراهيم باشا » سنة ١٨٣٧م فكرة توطين اليهود في فلسطين. ولكن محمد علي يرفض ذلك ويطوي المشروع. ثم يحاول منتفيوري عرض مشروعه على السلطات العثمانية ولكنه يفشل كذلك. ولكن اليهود لم ييأسوا، فيعرض « لورنس أوليفانت » سنة ١٨٧٩م على الباب العالي في الآستانة مشروعاً لإسكان اليهود في جوار القدس بحجة إعمار البلاد وخدمة الدولة.

لقد كان اليهود يتحركون في العالم على ثلاثة محاور رسمتها لهم خبرتهم الطويلة مع شعوب العالم، ورسمتها لهم الحركة الصهيونية الآخذة في النمو والتطور. هذه المحاور الثلاثة هي : المسألة اليهودية، حنين العودة إلى فلسطين، قيادة البشرية.

أما المسألة اليهودية: فهي صورة بشعة لقلب الحقائق. فلم يكن هناك ظلم على اليهود بقدر ما كان هناك غدر وخيانة وتآمر من اليهود كما عرضنا. فأثار اليهود الدنيا بإعلامهم ودعايتهم حول ما يزعمون من اضطهاد ينالهم في هذه البلاد أو تلك. ويستغلون هذا الادعاء المقلوب لجمع المال، واستدرار العطف، وإثارة الرأي العام.

وأما حنين العودة: فلم يكن أكثر من ادعاء اهتدى إليه أرباب المصالح منهم، فأدخلوه في فكرهم وأدبهم تجارة رابحة ومساومة ناجحة.

وأما قيادة البشرية: فهو وهم اقنعوا أنفسهم به، ليجدوا المبرر الدائم لعدوانهم وخيانتهم وتآمرهم.

وأسرع اليهود إلى بناء مؤسساتهم الاقتصادية والسياسية والفكرية هنا وهناك.

فقام الاتحاد الإسرائيلي العالمي في باريس سنة ١٨٦٠م، والاتحاد اليهودي الإنكليزي في لندن سنة ١٨٧١م، وجمعية محبّي صهيون التي قررت استيطان فلسطين وإحياء اللغة العبرية سنة ١٨٩٠م، وجمعية الاستعمار اليهودي في لندن سنة ١٩٠٠م. ونشأت النوادي والجمعيات اليهودية تحت أسماء مختلفة كالماسونية والروتاري وغير ذلك.

وبعد مؤتمر بال نشط العمل الصهيوني، فنشأت الوكالة اليهودية سنة ١٨٩٧م لتشرف على حركة الاستيطان في فلسطين، والصندوق القومي اليهودي (كارن كايمت) الذي سجل في لندن سنة ١٩٠٤م، والصندوق التأسيسي اليهودي (الكارن هايسود)، والمصرف اليهودي للمستعمرات، والشركة الإنكليزية الفلسطينية.

وبرز مع المؤسسات والشركات أفراد أغنياء وضعوا أموالهم في خدمة الحركة الصهيونية. وكان من أبرزهم «إدموند روتشيلد» اليهودي الفرنسي الذي أسس على نفقته سبع مستعمرات لليهود في

فلسطين، وتخلى عن إدارتها إلى جمعية الاستعمار اليهودي في لندن. وكذلك «موسى مونتفيوري» الذي سبق ذكره.

ولعلّ من بواكير هجرة اليهود إلى فلسطين ما حدث عندما طردتهم إسبانيا فآوى العالم الإسلامي عدداً منهم ورعتهم الدولة رعاية إحسان. فكان جزاء ذلك الإحسان غدراً وخيانة وتآمراً.

ومن أقدم المستعمرات التي أُنشئت في فلسطين: مستعمرة «بتاح تكفا» سنة ١٨٧٨م، ومستعمرة «مكفا إسرائيل» سنة ١٨٧٠م، ومستعمرة «ريشون لزيون» سنة ١٨٨٢م، مستعمرة «زكرون يعقوب»، مستعمرة «روشبينا» من يهود رومانيا، ومستعمرة «رحبوت» سنة ١٨٩٠م، وامتدت المستعمرات تنشأ وتقوم في فلسطين، وتنمو وتقوى، حتى أصبحت قلاعاً وحصوناً.

من هذا العرض تبرز لنا حقائق جلية هامة:

أولاً: إن الحركة الصهيونية أبعد في التاريخ مما يبدو لنا ظاهر الأمر. وهي تسمية لعمل مستمر ماض في التاريخ، على أساس من الغدر والخيانة والتآمر، وعلى أساس من مصالح عدوانية ظالمة تتلاقى في الأرض.

ثانياً: إن ادعاءات الحركة الصهيونية ادعاءات صنعتها للاستفادة منها في إثارة عواطف اليهود والسُّذّج من الناس في الأرض،

واستغلال الظروف السياسية، والارتباط مع غيرها في ميدان الفساد والإجرام.

ثالثاً: إن لقاءهم مع دول الشرق والغرب يمثل لقاء مصالح في استغلال ثروات، واستعباد شعوب، وتحقيق أطماع وشهوات. وهي مصالح أساسية بالنسبة لهذا الطرف أو ذاك. وهي مصالح ممتدة مع التاريخ منذ أقدم الأزمنة. فأهل الشرّ في الأرض يلتقون ويختلفون، ويتعاونون ويتنازعون. تجمعهم المصالح والتقاؤها، وتفرّقهم المصالح وتضاربها. لا تحكمهم قيم ولا مثل ولا مبادئ، بعضهم أولياء بعض.

ويوضح لنا القرآن الكريم هذه الحقائق توضيحاً ربّانياً عظيماً، نأخذ منه قبسات هنا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

[المائدة: ٥١، ٥٢]

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي

الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾. [الأنفال: ٧٣]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. [المائدة: ٥٧]

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

[المائدة: ٨٢، ٨٣]

ولا بدَّ من وقفة مع الآيات الكريمة من سورة المائدة (٥١، ٥٧)، (٨٢، ٨٣). فربما ظنَّ بعضهم أن بين المجموعتين من الآيات تعارضاً في المعنى، والحقيقة ليست كذلك. فالآية الأولى (٥١) تنهى عن موالاة اليهود والنصاري، فبعضهم أولياء بعض، خاصة إذا تشابكت مصالحهم أو دارت الحرب بينهم وبين المؤمنين. والنهي حقٌّ من عند الله، نهيٌ ماضٍ إلى يوم القيامة. ونهيٌ آخر ثابت في كتاب الله هو النهي عن موالاة الكافرين والمشركين. وآيات كثيرة في كتاب الله تؤكد هذا النهي وحسبك الآية (٧٣) من سورة الأنفال التي

عرضناها أعلاه.

فالآيتان: (٥١، ٥٢) تتحدثان عن موضوع هام وخطير وهو موضوع «الولاء». والولاء فصّل فيه القرآن تفصيلاً واسعاً حتى لا يبقى لمؤمن عذر أبداً. فالولاء أولاً لله سبحانه وتعالى، ومن هذا الولاء ينشأ الولاء بين المؤمنين. ويرتبط هذا الولاء بعهد ثابت أخذه الله من المؤمنين، عهد ماضٍ إلى يوم القيامة، لا مجال للتفلُّت منه أبداً في حياة المؤمن. فلا مجال إذن لأن يقوم ولاء بين المؤمنين والكافرين، ولا بين المؤمنين وأهل الكتاب، سواء في ذلك اليهود والنصارى. ولا يتضح موضوع الولاء وصدقه في موقف كما يتضح في حالة الحرب والقتال، والصراع الدائر. في هذا الموقف يكون الولاء أمراً ضرورياً حاسماً، ويكون هو العامل المؤثر في هذا الموقف أو ذاك، وتكشف الحرب خبيئة النفوس، وحقيقة الولاء، حيث يتعذّر إخفاء ذلك والموت متربّص والخطر محدق. وتكشف لنا الآية (٥٢) أجواء الصراع وحمّى القتال: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ فجميع الألفاظ الواردة مثل: يسارعون فيهم، تصيبنا دائرة، الفتح، وغيرها. تنشر ظلال المعركة والقتال، وأجواء الحرب والصراع. في هذا الجو تتحدث الآية عن الولاء وتحسم الأمر حسماً، فلا تدع فرصة لولاء بين

مؤمن ويهودي أو مؤمن ونصراني، ولا بين مؤمن وكافر.

هذه قضية إذن تُعْرَضُ في أكثر الأجواء مناسبة له، وأكثرها كشفاً لخصائصها. أما الآية (٨٢) فإنها تتحدث عن قضية أخرى خلاف قضية الولاء. إنها تتحدث عن قضية المودة والعداء، وتُعرَضُ القضية في أكثر الأجواء أيضاً مناسبة لها. إنها تعرض قضية المودة والعداء في أجواء الدعوة والبلاغ. حيث لا تكون قضية الولاء بعدُ عاملة أو ظاهرة في الميدان. وفي أجواء الدعوة تتحرك مودة أو يثور عداء. وقد بينَّ الله سبحانه وتعالى لنا أن اليهود والمشركين هم أشدُّ النَّاس عداوة للّذين آمنوا، يبينّ لنا حقيقة ربّانية ماضية مع الزمن، حتى تجد أن عدد اليهود الذين آمنوا عدد قليل لا يكاد يؤثر في حقيقة الكراهية الثابتة والعداء الملازم لطبعهم المريض. وقد فرّقت الآية الكريمة بين اليهود والنصارى هنا، في ميدان الدعوة والبلاغ، في قضية الودّ والعداء، ولكنها لم تقرر أن ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾ هم أهل ود، ولكنها قررت أنهم أقرب مودة. فقد تجد بين النصارى قلوباً أسرع استجابة للإيمان إذا دُعيَتْ، ذلك بأن منهم قوماً انقطعوا للعبادة وإن لم يكونوا على هدى، فهي حالة قلوب أكثر خشية وأرق عاطفة، وأسرع استجابة للحق، فقد تلين مع الدعوة، وقد تخشع وتنيب. وتكشف لنا هذا الجو من الدعوة والبلاغ الآية (٨٣): ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ

الْحَق... ﴾. فهذا جو دعوة وبلاغ وليس جو حرب وصراع.

وفي تفسير ابن عطية: قال القاضي أبو محمد رحمه الله في تفسير الآيتين (٨٢، ٨٣): «وهذا خبر منسحب على الزمن كله، وهكذا هو الأمر حتى الآن، وذلك أن اليهود مَرَنوا على تكذيب الأنبياء وقتلهم... فهم أشدُّ الناس عداوة للمؤمنين، وكذلك المشركون...». ثم يتحدث عن النصارى فيقول: : «والنصارى أهل الكتاب يقضي لهم شرعنا بأن أول أمرهم صحيح لولا أنهم ضلوا، فهم يعتقدون أنهم لم يضلوا، وأن هذه الملة «الإسلام» لم تنسخ شرعهم، ويُعظمون من أهل الإسلام من استشعروا منهم صحة دين...، ويعين على هذا أنهم... ولهم الخلال الأربع التي ذكر عمرو بن العاص في صحيح مسلم». ثم يتحدث القاضي أبو محمد عن قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ يقول: «ذلك بأن منهم أهل خشية وانقطاع إلى الله وعبادة وإن لم يكونوا على هُدى فهم يميلون إلى أهل العبادة والخشية، وليس عند اليهود ولا كان قط أهل ديارات وصوامع وانقطاع عن الدنيا... فلذلك لا يُرى فيهم زاهد».

وفي كتب التفسير أقوال أخرى حول هاتين الآيتين الكريمتين.

ولكننا نحب أن نبرز هنا الفرق الأساسي الذي نراه بين المجموعتين من الآيات، مما قد لا يتطرق له آخرون. ذلك أن

للمجموعة الأولى موضوعاً محدَّداً وجوّاً يناسب ذلك الموضوع. أولاهما: موضوع الولاء وأجواء الصراع. وأما **المجموعة الثانية فموضوعها مختلف وأجواؤها مختلفة. ذلك أنها تدور حول الود** والعداء في أجواء الدعوة والبلاغ. ويهمنا هذا التصوّر لأنه يساعدنا في ممارسة الآيات الكريمة ومعرفة حدود العلاقات بيننا وبين الشعوب الأخرى من النصارى واليهود في واقعنا المعاصر. ولندرك أيضاً أن الدعوة والبلاغ واجب المسلمين الأول في الأرض، ويظل ولاء المؤمنين لله رب العالمين ولاءً ماضياً في الحرب والسلم، والدعوة والبلاغ، والمودة والعداء. ولنعلم أيضاً أن الدعوة قد تتطلّب شيئاً من الودّ مما لا يتطلبه الصراع، ولكن هذا الود لا يغيّر شيئاً من الولاء الصادق الراسخ لله رب العالمين، ولاءً يربط المؤمنين أمةً واحدة من دون الناس، ولاءً ينظم العلاقات ويحدد المواقف ويرسم الاتجاه، ولاءً يدفع الطاقات المؤمنة إلى الدعوة والبلاغ في المودة أو العداء، في السلم أو الحرب. إن الولاء محور الإيمان وقاعدة عظيمة من قواعده. ففي الحرب يكون النصارى أولياء لليهود، وأما في الدعوة فقد تجد بينهم من يستجيب للحق، ويلين قلبه له، فيخشع وينيب.

ولا يغيب عن بالنا أبداً أن هذا الوصف القرآني ماضٍ ما دامت شروطه قائمة. فإذا تخلّى النصارى عن موادعتهم، وتخلّوا عن إيمانهم إلى جبهة الإلحاد وصفٌ الكافرين، فإن هذا الوصف لا ينطبق عليهم.

ويصبح شأنهم في ذلك شأن الجهة التي يُوالُونها.

وإذا كان اليهود قد استغلوا العاطفة الدينية لإثارة الناس وجمعهم حول مصالح الطبقة المتنفِّذة فيهم، فإن العالم الغربي لم يكن أقل استغلالاً منهم للدين. فبالرغم من أن معظم دول العالم الغربي تعتبر نفسها دولاً علمانيّة، فصلت الدين عن الدولة في بلادها، فقد مضت تستغل الدين خارج بلادها في حركات تنصيرية تساند العمل العدواني والاحتلال العسكري في بلاد الإسلام خاصة. لقد كانت أطماع هذه الدول في خيرات العالم الإسلامي محركاً قوياً وموجِّهاً أساسياً لحركات التنصير. فمنذ زمن قديم والعالم الغربي قد تخلّى حقيقة عن الفكر الديني في بلاده، فلا هم بالنصارى الذين وصفهم القرآن، ولا هم بالذين لا يستكبرون، ولكن قسيسيهم ورهبانهم أصبحوا طاقة التنصير وقوة الفتنة في الأرض، وما عاد منهم من إذا سمع ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع، إلا القليل القليل. وظل أصحاب المصالح والشهوات هم أهل السلطة وأرباب الحكم يدفعون أطماعهم مغلفة بالدين كلما استدعى الأمر ذلك. وانطلقت جيوشهم في أفريقيا وآسيا، وفي البر والبحر والجو، لتحمل العدوان والظلم والفساد في الأرض، ولتجرّ معها جيوش الرهبان يحمون بهم ظلمهم ويزيفون بواسطتهم دعواهم. ولا ننسى تصريح «جلادستون» في مجلس العموم البريطاني: «إننا لا نستطيع أن

نحكم الشرق ما دام القرآن يحكمه». ولا ننسى تصاريح «لويد جورج» البريطاني، و«بومبيدو» الفرنسي، ولا تصاريح «أيوجين روستو» الأمريكي، وقبل ذلك «غورو» الفرنسي و«أللنبي» الإنجليزي، تصاريح كلها تكشف بصورة جلية طمعاً شرساً في بلاد الإسلام، وحقداً عميقاً لهذا الدين الذي يقف أمام هذه الأطماع، وذاك الفساد والعدوان. ولقد كشفت الحروب الصليبية هذه الحقيقة كشفاً كبيراً، فالتقت على ذلك مطامع هذه الدول وأحلام اليهود، والتقت الصهيونية والدول الغربية على مصالح تَثْبُتُ وتتغير بعد ذلك.

كيف ينطبق ما ورد في الآيتين الكريمتين (٨٢، ٨٣) من سورة المائدة على من أحلّ الزنا واللواط والخمر، وجعل من الظلم قانوناً ومن العدوان منهاجاً. كيف ينطبق هذا الوصف على من أصبح عندهم الرهبان والقسيسون أهل كبر واستكبار وأهل تنصير وإفساد، وقوة دعم لكل عدوان وظلم، وأهل حروب ظالمة في أرجاء الأرض: في أفريقيا وآسيا وسائر بقاع الأرض، يرتكبون أبشع ما عرف الإنسان من جرائم، يسحقون الإنسان، ويتقاسمون مع ملة الكفر شعوب الأرض وخيراتها بين أشلاء تتطاير، وجماجم تتراكم، ودماء تتفجر!.

أما العالم الشرقي، فقد كان هنالك خط عام ثابت في السياسة

الروسية، منذ أيام روسيا القيصرية، وهو محاولة الخروج من حدودها إلي المياه والبحار وإلى منافذ الأسواق الدولية، وكذلك إلى ثروات العالم الإسلامي. ولم تستطع الفلسفة المادية الجدّليَّة ولا المادية التاريخية أن تغيّر نظرة روسيا هذه إلى البحار والمنافذ والثروات. أمام هذه المصالح الحيوية تُسْحق البروليتاريا، وتموت المبادئ، وتنتحر الشعارات.

ولقد اصطلح العالم في مرحلة من مراحل التاريخ على تمثيل هذه الأطماع بأسماء يضعها من عند نفسه. فحيناً ظهرت التسمية: «**المسألة الشرقية**» لتخفي الحقيقة التي يريدونها ألا وهي العالم الإسلامي. وظهرت في أيامنا هذه تسمية جديدة وهي: «**قضية الشرق الأوسط**». ولن تُعجزهم التعابير الشيطانية. ولا تجد أدل على أطماع روسيا من الهجوم الساحق الصاعق على تشيكوسلوفاكيا، ومن التدخل السافر في قضايا الشعوب المختلفة في أفريقيا وأوروبا وآسيا، ومن الهجوم الواسع على أفغانستان. وتحرّكت الأحزاب الشيوعية العربية صدىً وبوقاً لهذه المصالح، ولكن الحزب الشيوعي اليهودي يظل في الدرجة الأولى يهوديًّا يحمي دولة اليهود وأطماع اليهود، قبل أن يكون شيوعياً.

فوجد الاتحاد السوفيتي في الحركة الصهيونية ميداناً رحباً للتعاون

على نفس الأسس التي قام عليها تعاون الغرب.

وهكذا التقت مصالح قوى ثلاث في الأرض: اليهود وتمثلهم الحركة الصهيونية، والنصارى العلمانيون وتمثّلهم دول الغرب، والكفر الصريح ويمثّله الاتحاد السوفيتي، التقت المصالح كلها على ديار المسلمين وثروات المسلمين ودين المسلمين. ولا يمنع هذا اللقاء الواضح المكشوف أن يقع خلاف في لحظة من اللحظات لا يعطل مسيرة الخطة العامة. فقد تسحب روسيا سفيرها، وقد تختلف روسيا وأمريكا، فتدور المساومات، وتدور المفاوضات وتبرز المعاهدات مثل سايكس بيكو، ووعد بلفور، ومعاهدة لوزان، وغيرها من أنماط المساومات التي وزْعت الغنائم وقسّمت العالم الإسلامي. وقد تدخل قوى وتنسحب قوى، وقد تترك قطعة وتبقى قطعة إلى حين.

والقرن التاسع عشر، وربما قبله كذلك، كان يمثل مرحلة الاستيطان غير المنظم في فلسطين، ومرحلة تنظيم العلاقات اليهودية وتوزيع القوى، ومرحلة التسلل الخفيّ إلى مراكز القوى في مختلف أنحاء العالم. أما القرن العشرون فإنه يشهد مرحلة التنفيذ الخطير، والعمل المكشوف المنظم، والاستيطان المدعوم بالقوى الدولية، وثبات العلاقات الصهيونية ونموها. ومثَّل هذا التطور الحقيقي مؤتمر بال في سويسرا سنة ١٨٩٧م.

مع هذا التلاقي الصريح لمصالح العدوان والظلم في الأرض بين

هذه القوى الثلاث، تصبح تصريحات وزراء الخارجية في العالم الشرقّي والغربي واضحة الدلالة: «إن إسرائيل وجدت لتبقى». وهذا يعني أن دولة اليهود قامت بتخطيط وتنسيق.

إن طرح فكرة استيطان اليهود في غير فلسطين مثل «العريش» و«صحراء سيناء» و«أوغندا» لم يكن أكثر من وهم ومرونة في التحرك، أو رأي يدفعه من لم يكن يدرك بَعْدُ عمق التصميم اليهودي والتصميم لدى عدد من الدول الغربية. لقد كانت فلسطين هي نفسها الهدف الذي التقت عليها المصالح. ولم يكن هذا التصميم عبثاً، ولا كان ثمرة عاطفة دينية باطلة فحسب، إلا لدى الجماهير اليهودية التي تدفعها القوى المتحكمة على مدار التاريخ، كما كانت تدفع الجماهير المسيحية في حركات التنصير. وكان محور التلاقي بين هذه القوى الثلاث، ومصدر تصميمها على فلسطين هو حقدها الكبير على الإسلام، وعملها الدائم على تمزيق العالم الإسلامي. وإذا كان مؤتمر بال نقطة تحول بالنسبة لليهود ومرحلة انتقال، فإن مؤتمر المستشرقين الذي دعا إليه وايزمن وعقد في جنيف سنة ١٩٠٢م وحضره أكثر من ثلاثة آلاف مستشرق، كشف عن حقيقة المؤامرة الدولية على المسلمين بالقرارات التي اتخذها، والتي كان من أهمها: فصل الطاقة العربية عن الطاقة الإسلامية، فصل الدين عن الدولة،

العمل على تشويه الإسلام. ووزّعت القرارات على نطاق واسع في المعاهد والجامعات بصورة تكشف سهولة تحرّك الصهيونية في العالم الغربي، وقوة التعاون القائم.

إن فلسطين هي مفتاح العالم الإسلامي، هي مفتاح بلاد الشام، إنها بوابة الشرق عبر التاريخ البشري. لذلك التقت عليها المصالح لتمتد وتنتشر.

وقَفْتِ على رُبُوع الشرق بابا
يَصُدُّ عن الرُّبُوع المعتدينا
حِمىً للحقِّ والإيمان تَبْني
بذْلك دُونه حِصْناً حَصِينا
تَظَلُّ يَدُ الشُعوب تَدُقُّ فيه
لِتَفْتَحَ دُونَه فَتْقاً مُهِينا
وتَخْرقَ مِنْ سِيَاجِ الحقّ خَرْقاً
يُمَزِّقُ شَمْلَها مِزَقاً وَهُونا

وهنا نحتاج إلى وقفة أمينة صادقة مع أنفسنا. ما بالنا نحصر اللوم في ما يصيبنا في عدونا، وكأننا نتوقع منه قيماً وعدالة ورحمة،

ونطلب منه أكثر مما نطلب من أنفسنا؟! ما بالنا نستخذي في وهن واستسلام ونتبري لصبّ اللوم على العدو ونبرّئ أنفسنا أونسوّغ هوانَنا في شعارات عاطفية تخدّر الرؤوس والنفوس:

مَا لي أَلُوم عَدوِّي كُلَّمَا نَزَلَتْ
بيَ المصائب أو أرْميه بالتُّهَمِ
وَأدَّعي أبَداً أنّي البَريءُ وما
حَمَلتُ في النفس إلاّ سَقْطَةَ اللمَمِ
أنا المَلُومُ! فعَهْدُ الله أحْمِلُهُ
وَلَيْسَ يَحمِلُهُ غَيْرِي مِنَ الأُمَمِ[1]

لذلك وجبت الوقفة الصادقة حتى نرى دورنا فيما حل بنا، والتقصير الذي وقعنا فيه والإثم الذي نحمله.

وبالرغم مما أصاب العالم الإسلامي من نكبات مروّعة على مدى واسع من التاريخ، فقد يسرّ الله دائماً من يحمل الدعوة الإسلامية في الأرض، إلى مختلف الشعوب. وقد مضى الإسلام ينتشر في بلاد آسيا وأفريقيا، وعلى قلة في أوروبا مع زحف الجيوش العثمانية.

---

(١) من ملحمة الغرباء للمؤلف.

ولقد تمزّق العالم الإسلامي أكثر من مرّة، ولكن كان يظلّ في نفوس الناس خليفة يلتفُّون حوله مهما ضعف مركزه. ولم يكتف العدو بما بلغ من تمزيق للعالم الإسلامي، ولكنه كما يبدو كان مصرّاً على تقطيع كل آصرة، وإحياء الأوثان الجاهلية. ولقد بلغت الأعداء في تخطيطها مبلغاً كبيراً في إضعاف العالم الإسلامي عسكرياً، واقتصادياً، وأخطر من ذلك كله، إيمانياً. وهنا تقع مسئوليتنا. لقد كان القرن التاسع عشر يتجه بالمسلمين إلى الجهل الكبير والضعف، حتى سميت الدولة العثمانية بالرجل المريض، وبدأت تظهر مع القرن العشرين شعارات يحملها نفر من أبناء المسلمين، شعارات بعيدة عن الإسلام يصفّق لها الناس المسلمون، وينظمونها أناشيد وأغاني. ولا نستطيع أن نعدد هنا جميع مظاهر الجهل والمرض في حياة المسلمين، ولكننا نريد أن نبرز أمرين خطيرين في تقديرنا:

الأول: جهل واسع بين المسلمين بمنهاج الله قرآناً وسنّة، وجهل بأنه منهاج ينظم حياة الفرد والجماعة والأمة والإنسانية كلها، وجهل بأن منهاج الله هو الذي يحدّد العلاقات بين المؤمنين وشعوب الأرض، وينظمها في السلم والحرب. وكان هذا الجهل ممتداً متفشياً في جميع المستويات، لا يلغيه وجود أفراد قلائل، أو حركات جزئية.

الثاني: جهل واسع بين المسلمين على مختلف المستويات بالواقع الذي يعيشون فيه، والمؤامرات التي تدور، والواقع الدوليّ الذي يرسم

الخطة ويتحفَّزُ للوثوب.

وإذا كانت بعض العبادات تُؤدَّى، فإنها كانت تُؤدَّى على صورة عفوية لا تبني فرداً ولا أمة بعد أن فقدت زاد العلم الذي يغذيها. وربما كانت تقوم الاحتفالات بالأعياد والمواسم لتكشف الجهل الذي نعنيه، والخرافات التي تنتشر، والبدع التي تسود، في جو مزدحم بالعاطفة الهائجة، العاطفة المفرغة من العلم والنهج والبصيرة. وكان من أهم نتائج هذا الجهل هو وهن الدعوة الإسلامية في الأرض، وفقدان القدرة على النهج والتخطيط لأمة تحمل رسالة في الأرض، وفقدان الميزان القسط لإقامة الموازنة العادلة الأمينة. ولقد كان الضعف عامّاً ممتداً في العالم الإسلامي.

فبدأ الانحلال الخلقي يمتدّ، وأخذت الدعوة إلى الله ورسوله تنحسر وتتوقف، وأخذت الشعارات الجاهلية تثور وتنتشر. ومن خلال هذا الجهل وهذه الشعارات أخذت الأمة تنحر نفسها، وتصبُّ الخدر في عروقها، لتغيب في نشوة استقبال الجيوش البريطانية سنة ١٩١٧م، وصوت «اللنبي» يدوِّي: «الآن انتهت الحروب الصليبية». فيصحو من يصحو، ويهوي من يهوي.

وفي مفاوضات لوزان اشترطت بريطانيا على تركيا أنها لن تَنْسَحِب من أراضيها إلا إذا التزمت تركيا بالنقاط التالية: إلغاء الخلافة، وطرد الخليفة ومصادرة أمواله، إخماد كل حركة يقوم بها

أنصار الخليفة، قطع صلتها بالإسلام واختيار دستور مدني بدلاً من دستور تكون مواده من الإسلام.

لا ننكر أنه من خلال هذا الليل الحالك، كان هنالك قلوب واعية، وشهداء دافعوا عن دينهم، ورجال قاموا لله.

لقد مهدنا بأنفسنا الطريق لأعدائنا، وسقطنا نحن بأنفسنا في الشَّرَك الذي نصبوه، وغرزنا الخنجر نحن بأنفسنا في جسم الأمة، فنحن الملومون.

دَار الخِلافَةِ والمكائِدُ حَولَها
قِطَعٌ تَحُوكُ مِنَ الظَّلامِ حِبالاَ
تَلْتَفُّ حَولَ ضُلُوعِهَا فَتشُدُّها
وَتُمَزِّقُ الأعْضَاءَ والأوْصَالاَ
وإذا شِعَارُ الجَاهِلِيَّةِ رايَة
خَفَقَتْ لِتَحْشُدَ فِتْنَةً وَضَلالاَ
وإذا بِطَائِفَةٍ تشدُّ على المُدَى
طَعْناً يُدَمّي الكَفَّ والأنْصَالا

نَظَرتْ علـى الظّلْماء تَحْسَب أنَّـها
هَاجَـتْ على نَحْرِ العُداةِ قِتـالاَ
فإذَا النِّصَالُ جميعُـها بِنُحُورِهَـا
بقُلُوبِهَا! وَدَمٌ هُنَالكَ سَـالاَ
أبَـتَاهُ! مَا زِلْنا عَلى طَعَنَاتِهِم
نـدْمَى.! ويَنْزِفُ جُرحُنا الأهْوَالا[1]

نخرج من هذا الإيجاز السريع بعوامل خمسة رئيسة فتحت فلسطين إلى اليهود، وفتحت العالم الإسلامي لغزوات عنيفة وعدوان ظالم، مازال يمتد حتى يومنا هذا، مع اختلاف الوسيلة والأُسلوب:

أولاً: الحركة اليهودية الممتدة في التاريخ، والتي نمت وتطورت في القرون الأخيرة على شكل الحركة الصهيونية.

ثانياً: الأطماع والأحقاد الغربية التي تغلّف نفسها بالدين وشعاراته، أو تنزع عن نفسها القناع أحياناً، وفي كلِّ حال تمضي في حركات التنصير لتحقق أطماع العدوان.

ثالثاً: أطماع روسيا وأحقادها سواء في العهد القيصري

---

(١) من قصيدة: «أبتاه أين الفجر كم راقبته»، ديوان موكب النور، للمؤلف.

والشيوعي، تغلف نفسها بما يهيئه الواقع من زخرف. وكذلك بعد انهيار الاتحاد السوڤياتي.

رابعاً: تلاقي المصالح والأطماع والأحقاد لقاءً اشتدت عُراه في القرون الأخيرة بين اليهودية والعالم الغربي والاتحاد السوفيتي، ويقوى أو يضعف على ضوء قوة تلاقي المصالح وتبدلها. وكذلك مع روسيا بعد انهيار الاتحاد السوڤياتي.

خامساً: وضع العالم الإسلامي من ضعف وتخلف وجهل في مرحلة حاسمة من مراحل التاريخ البشري.

* * *

الفصل الثالث

دروس وعـــبـــــر

سنين طويلة ونحن نتحدث عن قضية فلسطين، وجهود كثيرة بُذِلَتْ، وضحايا كثيرة سقطتْ، ولكن قضية فلسطين ظلت تنتقل من مرحلة إلى مرحلة في مُسَلسل التنازلات، حتى أَتت المرحلة الحالية لتكشف عن مرحلة مذهلة من التنازلات، وبصورة سريعة! أين ذهبت الجهود؟! أين ضاعت الشعارات؟! كيف ضاعت فلسطين؟ كيف وصلنا إلى مرحلة اتفاق «غزة ـ أريحا»؟!

النداءُ المجروح غاب مع الأفْـق   وغـابـتْ مزاعـِمٌ ووعــودُ
والشعاراتُ كلها سقطت في الأ   رض، غـابتْ حَنَاجِرٌ ورُعودُ

أسئلة كثيرة تلحُّ على قلب الرجل المسلم اليوم وهو يحاسب نفسه ويتأمل في واقعه. ولعلّ من بين الأَسئلة التي يجب أن تدور ما يمكن أن نعرضه فيما يلي:

لماذا يبدأ التساؤلَ الآن ولم يتبيّن أو يسأل أوّل الطريق؟!

هل كان حقّاً يعرف الطريق الذي يسير عليه، داعياً له، أم أنّ دويّ الشعارات وحمّى العاطفة دفعه على غير وعي منه؟!

هل كان حقّاً يسير على نهج واضح محدد، ويسعى إلى أهداف واضحة محدّدة، مرحلية وثابتة؟!

هل كانت الطريقُ الذي يسير عليه يقود حقّاً إلى الشعارات المعلنة، أم أن الطريق يمضي في اتجاه، والشعارات (والأهداف إن وجدت) تمضي في اتجاه آخر؟!

هل الذين رفعوا الشعارات كانوا حقّاً قادرين على تحقيقها، وهل أدّى المسلم واجبه من التبيّن والتحقُّق كما يأمر الله قبل أن يتبع؟!

تاريخنا الإسلامي مليء بالعبر والعظات والدروس، فهل نحن المسلمين استفدنا من هذه العبر والعظات والدروس؟!

إن الملاحظة السريعة تكشف لنا أمراً في غاية الأهمية ونحن ندرس الصراع الطويل والعدوان الممتدّ من الأعداء. ذلك أن الأعداء استفادوا من هذا الصراع الطويل، فطوّروا أساليب كيدهم ووسائل مكرهم ومناهج عدوانهم. وانتقلوا من مرحلة إلى مرحلة عن دراسة ووعي وجمع لتجاربهم وتنسيق لها، حتى جابهونا أخيراً بتخطيط مدروس واسع الإجرام. أما نحن فمواقفنا ونشاطنا يكشف أننا لم نستفد من الماضي أبداً، ولم تتقدّم مناهجنا، بل لم يكن لدينا مناهج، وأَقبلنا على الميدان بصورة ارتجالية نخضع لردود الفعل الآنيّة، ونشغل أنفسنا بسفساف الأُمور لا بمعاليها.

ويبدو أنه من السنن الماضية في الحياة الدنيا أنه إذا التقى فريقان، فريقٌ له نهجه وخُطَّته وأهدافه، وفريق ليس له خُطة ولا نهج، فإن الفريق صاحب النهج والخُطَّة أقدر على تحويل جهود الفريق الآخر لصالحه، ولاستدراجه لمواقع الهزيمة والخسران.

فهل دخلنا ميادينا عن خُطَّة ووعي؟! ولقد أكدنا هذه القاعدة الهامة في أكثر من كتاب من كتب الدعوة، وفي هذه الملحمة بالذات أيضاً. فانظر في «الوقفة الرابعة» في الفصل الثالث، وكذلك في قصيدة فلق الصباح:

فانْهض إذا أوفيتَ خُطّة مؤمنٍ ونهجْت نهجَ الفارس المتوسِّم

لقد غلبَتْ حُمّى المزايدات كلَّ محاولة للنّصح، وغطّى ضجيج الشعارات كلَّ محاولة للتوعية، وسُدّت الآذان عن كلمة الخير، وأُغلقت القلوبُ عن نداء الإصلاح. ففي ذروة استعلاء اليهود واستكبارهم في فلسطين لم يلتق المسلمون في داخل فلسطين أو خارجها في جبهة إيمان واحدة، بل تمزَّقوا أحزاباً وفرقاً يحارب بعضُها بعضاً. وفي الوقت نفسه أخذ بعضهم يصافي بعض أعداء الله، ويتخذ بعضُ المسلمين من هؤلاء الأعداء من يصبح أقرب المقرّبين إليهم، فيشدون على أيديهم في موالاة ظاهرة ومخفيّة.

تقف الصهيونية كلها في العالم صفّا واحداً مهما اختلفت

وجهات نظر أحزابها. ويظل خلافهم يصبُّ في مصلحة الصهيونيّة، يتنافسون على خدمتها والولاء لها. وتقف دول العالم الصليبيّ والمشركون معهم، يسندونهم في كل وسائل الإسناد والعون، حتى بدا جميعهم صفّاً واحداً يقف أمامنا بكل عدده وعُدَده وعداوته.

أما نحن فقد وقفنا أمامهم شيعاً وأحزاباً، يصارع بعضنا بعضاً، في تنافس على عرض زائل من الدنيا، وفي مزايدات كل فريق يريد أن يثبت من خلالها أنه هو وحده فارس الساحة.

فكيف ينتصر صفٌّ ممزّق واه على صفّ متراص يملك أكبر ترسانة أسلحة، وهو يصنع سلاحه ونحن نستجديها، هم يتنافسون على خدمة باطلهم، ونحن نتنافس الدنيا وزخارفها وغرورها في مزايدات نترك بها حقّنا الصريح الأكيد؟!

عندما نُلقي نظرة عاجلة على تاريخنا في الأندلس تبرز لنا أسباب رئيسة كانت وراء خروجنا من الأندلس، نوجزها بما يلي:

١ ـ توقف النشاط من أجل تبليغ رسالة الله، والدعوة إلى الإيمان والتوحيد وتثبيته في قلوب الناس، وعدم وضع النهج والخُطة والمناهج اللازمة لتحقيق هذا الهدف الثابت المستمر في الدعوة الإسلامية.

٢ ـ توقف التربية والبناء، والإعداد والتدريب، لبناء الجيل المؤمن في عمل ماضٍ لا يتوقّف أبداً، ليظل هذا العمل مرافقاً لنشاط الدعوة

والبلاغ للإيمان والتوحيد، وليظلَّ كذلك الهدف الثابت الثاني في الدعوة الإسلامية.

٣ ـ لذلك أصبح القتال الذي كان يقوم به المسلمون في مرحلة من مراحل وجودهم في الأندلس، قتالاً هو أقرب للدفاع عن ملك عضوض، أو للغزو، دون أن يكون صورة من صور الدعوة إلى الله ورسوله، إلى الإيمان والتوحيد، الدعوة التي يحملها الجيل المؤمن في أهداف ثابتة مترابطة تعمل كلها معاً في آن واحد: الدعوة والبلاغ والبيان، التربية والبناء والإعداد، الجهاد في سبيل الله مستوفياً الشروط التي جاءت في منهاج الله.

٤ ـ الإقبال على الدنيا ومباهجها وزخرفها وغرورها إقبالاً واسعاً، والإغراق في ذلك حتى أصبح عطاء المسلمين يتميّز بهذه الزخارف في بعض نواحيه كالأدب، والغناء، والموسيقى، وأصبح هذا كله يفتك في داخل المسلمين فتكاً ذريعاً يمتدّ مع السنين والقرون.

٥ ـ كان من نتيجة الأسباب الأربعة السابقة أن برزت العصبيات الجاهلية تحت شعار الإسلام، وأخذ كل فريق يحارب الفريق الآخر، وتوجهت أسلحة المسلمين إلى صُدور المسلمين، وأخذت تظهر التحالفات بين المسلمين والنصارى ضد المسلمين. ظهرت العصبيات الجاهليّة بأقبح صورها وأعمقها ظلماً وتهديماً.

وفي الوقت نفسه كان النصارى يجمعون صفوفهم، وتتعاون أوروبا كلها لإخراج المسلمين من إسبانيا، ويقود هذه الحملات الإجرامية البابا نفسه من روما. ولم يشفع للمسلمين ما قدموا من علوم وآداب، وقيم إنسانية تحتاجها البشرية كلها، ولكنها كانت تطوى في غياب الدعوة المنهجية، وفي خدر اللهو وزخارف الدنيا، وفي لهيب الفتن التي لم تهدأ مدة حكم المسلمين فيها.

إذا رجعنا لواقعنا اليوم نجد المأساة نفسها تتكرر في خسارة الهند، وضياع فلسطين، والخطر الداهم على البوسنة والهرسك، وقبل ذلك في سقوط الخلافة الإسلامية. وكأننا لم نستفد نحن اليوم من عبر الماضي لنحمي حقّاً ونصون حمىً ونطيع الله في ذلك كله، كما استفاد الأعداء لتغذية عدوانهم وإجرامهم، وحماية باطلهم، والصدّ عن سبيل الله. الأَسباب ذاتها التي أضاعت الأَندلس هي التي أَضاعت فلسطين، وكذلك غيرها.

لقد رفعنا شعار «فلسطين مسلمة». ولكن لم توضع الخطة التي تحقّق هذا الشعار، ولا صُبّت الجهود والعزائم لنقله إلى واقع الأُمة كلها. وأكثر من ذلك ظل الجهد قومياً أو على الأَصح إقليمياً تحت شعار إسلاميّ. وقبلنا الصورة الإقليمية والأَحلاف الإقليمية والوطنية، واعتدناها حتى ألفناها، وحتى حلّت مكان الروابط الإيمانية. ثمّ

أَصبحت النصوص والشعارات تؤكدها وتدعو لها. وزادت الفرقة بين المسلمين، وغلبت العصبيات الجاهلية.

لقد أَصبحت تحكمنا العادات والأَعراف، والأَهواء والشهوات، والمصالح والرغبات، واتخذ كثير من الناس منهاج الله وراءهم ظهرياً. ومع هذا كله ما زلنا نرفع شعارات الإسلام، حتى اختلط الأَمر على الناس. بين شعار يُرفع وواقع يُمارس.

إنَّ هذه الهجمة الشرسة المجنونة على العالم الإسلامي كله تدور اليوم من خلال كيد ماكر وحبائل ممدودة وشَرَكٍ منصوب، ومن خلال الوهن الذي حلَّ بنا.

إنّ ما أصابنا من مآسٍ ونكبات هو بقضاء الله وقدره. وقضاء الله وقدره حقٌّ عادل لا يظلم. فقد حرّم الله الظلم على نفسه وحرّمه على عباده وأَمرهم أَن لا يتظالموا.

إذن ما أصابنا هو بما كسبت أَيدينا، بعد أَن عفا الله عن كثير من ذنوبنا وآثامنا ومعاصينا برحمته وعفوه.

إذن فلننظر في أَنفسنا قبل فوات الفرصة، وقبل حلول الأَجل. إنه واجب كل مسلم، وكل جماعة أَن تقف وقفة إيمان فتحاسب نفسها قبل أَن تحاسب، وتراجع مسيرتها لتعرف أخطاءها دون أَن يصدّها عن ذلك كبر أو غرور. إن الساعة حق لا ريب فيها، والحساب حق لا

ريب فيه، والجنة حق والنار حق. و«**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله**»[1].

إنه الواجب الذي لا غناء عنه أن نحاسب أنفسنا، ونعرف أخطاءنا ونتوب إلى الله. فإن الله خاطب عباده المؤمنين ليتوبوا إليه توبة نصوحاً:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُم...**﴾. [التحريم: ٨]

فهل نحن فاعلون ذلك؟!

وإنَّ من أهم نتائج التوبة النصوح أن يلتقي المؤمنون الصادقون، ويتركوا الفتن ويغلقوا أبوابها، حتى تبنى القاعدة المتينة من الصدق والعلم والخبرة لقيام لقاء المؤمنين صفّاً كالبنيان المرصوص كما أمر الله.

وإن المؤمنين الصادقين، إن الجيل المؤمن الصادق الواعي، هم الذين يتابعون مسيرة الدعوة دون فتنٍ وشقاق، ويحققون أهدافها هدفاً هدفاً، حتى تقوم الأُمة المسلمة الواحدة كما أمر الله: أُمة واحدة، تعبد ربّاً واحداً هو الله الذي لا إله إلا هو، وتتبع ديناً واحداً لا يقبل الله سواه هو الإسلام.

---

(١) الترمذي: كتاب (٣٨)، باب (٢٦)، حديث (٢٤٦١). عن شداد بن أوس عن النبيّ ﷺ. ومعنى دان نفسه: أي حاسبها. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

إن هذا فرض فرضه الله على المؤمنين أن يكونوا أُمة واحدة من دون الناس. وهذا أول شرط لا بد من توافره حتى ينزل النصر من عند الله، وما النْصرُ إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم.

فهل سينهض المؤمنون الصادقون إلى ذلك، أم سيظلون شيعاً وأحزاباً يهلك بعضهم بعضاً فيحلّ عليهم عذاب من الله؟!

إنه الكبر والغرور اللذان يجعلان هذا أو ذاك، هذه الفئة أو تلك، تحسب أنها قادرة وحدها على مجابهة هذه النكبات والمآسي. إنها بهذا التصور المريض تفقد طاقة الملايين، وتعطل جهد الملايين، وتشل حركة الملايين، وأهم من ذلك توجب غضب الله لا رضاءه، وتُسهم في تمزيق صفوف المؤمنين. إنه الكبر والغرور اللذان ينصبان للناس أوثاناً يعبدونها من دون الله:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ...﴾. [يوسف: ٤٠]

سألت أحد العاملين ذات يوم: «هل تسيرون على منهج محدّد يقود إلى الهدف الذي تعلنونه؟! فأجاب: أتريد الصدق والحق؟! قلت: نعم! قال: نسير هكذا على البركة، متوكلين على الله! فقلت له: وهل هذا هو حقّ التوكل على الله؟! ثمّ ناقشت معه أهمية التخطيط لبلوغ الهدف، وضربت أمثلة من السيرة، ومن واقع الحياة.

ثم ضربتُ مثلاً عملياً له فقلت: الجميع يرفع شعار تحرير فلسطين إما من الشمال إلى الجنوب أو من الشرق إلى الغرب على اختلاف المذاهب. ولكن الدرب الذي ساروا عليه قاد إلى المفاوضات والمساومات والتنازل، والاعتراف الصريح بإسرائيل أو الاعتراف الضمنيّ. الهدف في الشرق والمسيرة إلى الغرب». فمعنى التخطيط إذن أن نطمئن ضمن حدود طاقتنا البشرية إلى أن الدرب يؤدي إلى الهدف. ثمّ نمضي ونتوكل على الله حقّ التوكل وقد بذلنا جهدنا الصادق وحددنا هدفنا ورسمنا الدرب إلى الهدف.

والذي يؤسف له أن المعارضة تكون أحياناً من باب المزايدات لا تحمل الجد الذي يلزمها. وتنكشف هذه المزايدات في المعارضة عندما تطلق شعارات لا تختلف عما أطلقه غيرها سابقاً، وقد تمُرّ في الدرب نفسه الذي مرّ به غيرها. وتنكشف كذلك حين تنزل الميدان لا تملك القدرة على تحقيق الشعار، وربما تملك أقل مما ملك غيرها سابقاً، حتى تبدو الميادين كأنها مسارح تدور عليه مسرحيات متتالية، ويظلّ الناس يصفّقون:

مسارحَ الشرق...! كم أخرجْتِ دامية
من المآسي وكم موّهـْتِ من خَبـَرِ[1]

---

(١) ديوان «موكب النُّور»، للمؤلف ـ قصيدة جولة في تلّ الزعتر. ص: ٢٣.

تحرَّكَتْ خلفك الأشباح صامتةً

وأنطقتْ ببغاوات من البشرِ

وحرَّكَتْ من دمىً لانتْ على يدها

ودونها الشعب في تيه وفي خدرِ

مصفّقاً لبطولاتٍ مزيّفةٍ

بكل لونٍ من الألوان مُبْتكرِ

مالي ألوم عدوّي كلّما نزلت

بيَ المصائب أو أرميه بالتّهَمِ

* * *

ولقد اعتدنا في واقعنا المعاصر أن نخفي عيوبنا وأخطاءَنا، ونضع اللوم على عدونا، كأنّنا كُنّا نتوقع منه أن ينصرنا، وأن يحلَّ مشكلاتنا، وأن يحنو علينا، وأن يسمح لنا أن نغطَّ في نومنا، لنهتف ولتبحَّ حناجرنا بآمالنا وأحلامنا:

وأدّعي أبداً أنّي البريء وما

حَمَلتُ في النفس إلا سقطة اللمم

أنـا الـمـلـوم..! فـعـهـد الله أحـمـلـه

ولـيـس يـحـمـلـه غـيـري مـن الأُمَمِ[1]

ولا يعني هذا أنّ العدوّ المجرم الظالم بريء. إن حسابه عند الله شديد في الآخرة، وقد يناله العذاب في الدنيا أيضاً، على حكمة لله غالبة وقدر ماضٍ. إننا نضع اللوم على أنفسنا لا تبرئةً للمجرمين المعتدين، ولكن لنعرف نحن مسئولياتنا من ناحية، ولأنه لا يُعقَل أن نطلب الحق والإنصاف من عدوّنا ونحن غافلون، وأعداؤنا وحوش، ذئاب وثعالب وأفاع.

* * *

(١) ملحمة الغرباء، للمؤلف.

الفصل الرابع

إلى فلسطين

أمَلٌ عَلى أجْفَاننا وكُبُودِنا
وعَلى مُحَيَّانا وفوقَ المبْسِمِ
أمَلٌ كَأنَّ الفَجْرَ في بَسَماته
ورفيفُه بين الطيوفِ الحُوَّمِ
وَنَضُمٌّ في أحْنائِنا شَرَفَ الهَوى
والشَّوْقُ بَيْنَ مُجَنّحٍ ومُكتَّم
يا خُطة الإِيمان إنَّ جَلاءَها
بَيْنَ النِّزَال وبَيْنَ رأيٍ مُحْكَم
شرَفُ الفِعَالِ يُصَانُ بَيْنَ أسِنَّةٍ
تَجْلُو علَى المَيْدانِ نَهْجَ المسْلِمِ
يا أُمَّة الإِسْلامِ دربُكِ مُقْفِرٌ
ما بَيْنَ أوهَامٍ تَدُورُ ومَزْعَم

إلى فلسطين

١ ـ لمحة وكلمة:

نعم! إلى فلسطين، إلى المسجد الأقصى، إلى الأرض المباركة، إلى أرض الإسلام!

ولا بدّ من أن نعود سريعاً إلى ملامح من قضية فلسطين التي أخذت شكلها الجديد مع الانتداب البريطاني حين بدأ الصراع ينمو في أرض فلسطين مع الإنكليز واليهود في وقت واحد.

لقد كان موقف الإنكليز مفاجئاً لعدد غير قليل من المسلمين وهم في غفوة عميقة. وما كان موقف الإنكليز مفاجئاً أبداً ولكنه موقف يمثل الامتداد التاريخي للعدوان والظلم في الأرض.

﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾. [هود: ١١٣]

فالذنب ذنب المسلمين وحساب الظالمين عند الله، ولكن ظلم الظالمين لا يسوّغ غفوة أصحاب الحق، وخدر المرتبطين بعهد ورسالة مع الله.

ومضى الجهاد في فلسطين ممتداً حتى يومنا هذا منذ سنة ١٩٢٠م. وفي كل سنة وثبة، أو في كل بضع سنوات. ولكن المصيبة كانت تتسع والنكبة تمتد حتى كانت فاجعة النزوح سنة ١٩٤٨م، وتلتها فواجع لـمّا تنته بعد.

٢ ـ ولا بد من وقفات مع ذلك التاريخ:

فالوقفة الأولى: هي أنه طُرح عدد غير قليل من الحلول في التاريخ، وما زالت تطرح الحلول حتى يومنا هذا. ولا بدّ من وقفة مع هذه الحلول التاريخية، وقفة تدبُّرٍ نوجز فيها الرأي والنظرة. فجميع الحلول التي طرحت لتسوية القضية من الكتاب الأبيض إلى التقسيم، إلى غير ذلك من الحلول، لم يكن أصحابها جادين في تنفيذها، وما كانوا يريدون لها البروز إلى حيز الواقع. كانت حلولاً يطرحها الإنكليز أو قوة من القوى الدولية، حتى يدور حولها الصراع والنقاش والجدال، ثم يطوى الحلّ تحت ألف عذر ولألف سبب، بعد أن يكون قد شغل الناس واستنفذ الطاقات. وكان عدد غير قليل من شعب فلسطين ومن العالم العربي يعي هذه الحقيقة، ويعلن الرفض الصامد حتى انتشرت نظرية «اللاءات» تنويهاً بتلك المواقف. وقد عمد بعضهم إلى مواقف اللين بحجة تفويت الفرصة على اليهود، ولكن هذه المساومات كلها لم تجْدِ فتيلاً. وأخذت دولة اليهود تتسع، وأحلامهم تتحقق، من خلال مناقشات وحلول وآراء.

ولم يكن هذا الأمر غيباً من الغيوب لا نستطيع كشفه، ولكنه كان ظاهرة واضحة، يكاد يخفيها شدة الوهم والأماني والأحلام، في أُمة غلبها الضعف والوهن، فتمنّت على الله الأماني.

لقد كان لدى الأعداء أهداف واضحة ونيّة مبيّتة، كشف التاريخ أكثر من مرّة عن قوة تصميمهم عليها، وجدهم من أجلها، واستباحتهم الغدر والخيانة والكذب، وامتداد جرائمهم في الأرض، على صورة واضحة جليّة، فلم تكن الحلول التي طرحوها إذن هي الحلول التي يريدون تنفيذها، ولكن الحلول التي يريدون تنفيذها هي الخطة المطويَّة، والهدف المخفي، والشرُّ المغطّى. لقد كانت مسئوليتنا أن نصحو على ذلك، وأن نعرف ذلك، وأن نحذر الغدر والخيانة والكذب.

﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾. [هود: ١١٣]

«وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا...» حقيقة ثابتة وقاعدة أساسية في النهج الإيماني، النهج الرباني. فنهج الإيمان حق ونور وعدل، فكيف يلين للظلم أو يستكين؟! بل كيف يركن له؟! والركون للظلم وللذين ظلموا يحمل في أبسط درجاته الاطمئنان والرضا، وقد يحمل بعد ذلك الخنوع والذل والاستسلام. فلا عجب أن كانت نتيجة ذلك ناراً تمس من يركن وترميه في جحيمها، ولا عجب أن لا

يجد من يركن للظالمين ولياً من دون الله، ولا عجب إذا سُدّتْ أمامه أبواب النصر، وأُغلقت منافذ الفرج، وضاقت به الدروب وخنقته المسالك.

ربما يزين الشيطان لبعض الناس ما يحسبونه مهارة ودهاءً أو يزين لهم فساد الوسيلة حتى يركنوا للظالمين، أو يزين لهم بعض أبواب المكر والخداع مما يَخْرُج بصاحبه عن جادة الإيمان ووضاءة الحق، فيهبط بسلوكه إلى درك منحط، ويهوي إلى واد مظلم، فتنقطع عنه أسباب القوة، وتنفصل عنه عزائم النصر، فإذا هو مخذول مهزوم حين كان يظن بنفسه الوعي والنباهة.

إن أول أسباب النصر هو الإيمان الذي يقطع حبال الظلم، ويصل حبال الحق والاطمئنان إلى نصر الله، مهما طالت الدروب واشتد البلاء، ويثبت المضي على كلمة الحق ودعوى الحق. إن أول أسباب النصر هو الاستمساك بالعروة الوثقى على وضوح وجلاء، حتى يعرف الناس درب الحق ومنهج الإيمان، وحتى يميزوا بين أساليب الحق وأساليب الباطل. فَيُعْرَف بذلك الحق وأهله حتى يهيىء الله لهم برحمته وفضله نصره العظيم.

إن الركون إلى الذين ظلموا صورة من صور الولاء لهم. والولاء لهم يقطع الولاء لله سبحانه وتعالى: ﴿ ..**وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاء**..﴾، وإذا انقطع الولاء لله سبحانه وتعالى فإننا نفقد مصدر

القوّة وأساس الإعداد وأسباب النصر كله ﴿ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾.

والوقفة الثانية: هي التي نحتاجها حتى نوحّد نظرتنا إلى هذه القضية من حيث الجذور والأسس، ومن حيث الواقع والمسار، ومن حيث النية والهدف. فلقد ظن عدد غير قليل من الناس أن القضية هي قضية فلسطين فحسب، وأنها مسئولية أهلها، وأن دور الناس عون ومساعدة. ولكن الأيام اخذت تكشف أن القضية أوسع من ذلك، وأن الخطر اشد. وقد تأخذ القضية شكلاً آخر هنا أو هناك، وقد يبرز الخطر في ثوب جديد وأُسلوب جديد. ولكن القضية واحدة والخطر واحد. والتاريخ يثبت هذه الحقيقة كل يوم، والأحداث تظل تقرع وتنبّه وتوقظ. إن القضية هي قضية الإسلام، وإن المسئولية هي مسئولية المسلمين، وإن الخطر يهدد ديار المسلمين.

إن الأمر أبعد من عون وأخطر من ظن. إن القضية قضية عقيدة وإيمان، ودين وإسلام، ووجود وذات، لأُمة كاملة.

والوقفة الثالثة: هي أن القضية ليست قضية رجل فذٍّ واحد، ولا قضية عبقرية ننتظرها في أرائك اللهو حتى يطلع علينا صلاح الدين أو عمر أو خالد. إن القضية قضية أمة كاملة، قضية كل فرد فيها. قضية أمة متماسكة واحدة. يتحمّل كل فرد فيها مسئوليته.

الوقفة الرابعة: هي غياب النهج المدروس والخطة الواعية والميزان

الأمين، في أُمة يجب أن تكون أُمة واحدة تعبد رباً واحداً. لقد كان للشر والفساد والعدوان خطته المحكمة المفصلة، ونهجه المعدّ المدروس، وميزانه الواضح في الباطل. وحملنا نحن عاطفة هائجة مائجة في تاريخ طويل أكثر مما حملنا نهجاً ووعياً وخطة وميزاناً. ولذلك اختلطت الشعارات على الساحة كأنها شعارات موسمية.

واختلطت شعارات الإيمان والعقيدة وشعارات الأرض والطين، في أجواء من التناقض والإبهام حتى ضاعت الحدود واختلطت المفاهيم، واضطربت الحقوق والواجبات، والأمانة والمسئوليات، وطغت عصبيات الأرض على حدود الإيمان في أجواء من العاطفة محمومة، وأصبحت الأرحام أقوى من العقيدة وأقرب من الدين في واقع وممارسة.

والوقفة الخامسة: هي أننا خاطبنا العالم بأكثر من لغة، ونادينا بأكثر من لهجة، خطاباً تحمله العاطفة، ولهجة تُثيرها الأماني والأحلام، بين تناقض واضح وصراع وشقاق. أما عدوُّنا فمع خلافات فيه فقد تحدَّث بكلمة واحدة وأهداف محددة، أعلنها ورصّع بها أجياله وأبنيته وميادينه. ولقد وقفنا سنين طويلة في منابر العالم، وأُعْطِينا الفرصة الكاملة لنهزَّها ونهزَّ العالم كلَّه بكلمة الحق ودعوة الإسلام ونداء الإيمان، فشغلنا عن ذلك. ووقف على هذه المنابر رجال الكفر والإلحاد من الاتحاد السوفيتي يعلنون مبادئهم وأفكارهم،

ووقفت كل عصبة شرٌّ تدعو لشرِّها. وضِعْنا نحن بين دعاوى وشعارات، ولعلنا صفقنا لها كلها. لم يحرص أحد على شعورنا فنادوا بشرِّهم بأوقح وأقسى أُسلوب. وقد يستحي بعضنا من أن يُعْلن عن ديننا وعقيدتنا من منابر الأرض، حتى لا يُثير غضب الآخرين، كما يزعم بعض العاجزين، وقد ينهض لذلك قادرون.

والوقفة السادسة: هي أن القضية تطورت بالرغم من كل الجهود التي بذلت، والدماء التي سفكت، والحناجر التي بحّت، إلى مراحل فيها من الضمور ما يستحق الوقوف عنده. فحتى سنة ١٩٤٨م كانت القضية قضية وطن وأُمة ودين، قضية تطلب الأرض كلها، والوطن كله. ثم أخذت بعد ذلك تتحول إلى قضية لاجئين، وتبهت قليلاً مطالب الوطن والأرض، ثم أخذت الأرض نفسها تضمر وتضيق. ومن ناحية أُخرى كان صوت الإسلام يظهر قوياً بين حين وآخر، ثم ضَعُف في مرحلة وكادت العلمانية تصبح هي الشعار، ثم غلبت شعارات متعددة..! إن هذه المراحل، وهذا التطور يحتاج إلى وقفة وتدبُّر، لأنها مراحل لا تتفق مع حقيقة أُمة تؤمن بحقها، وتؤمن برسالتها في الحياة.

إن الحلول الوسط لا تدخل حقوق الإيمان، فحقوق الإيمان أساسية حاسمة جلية، لا تنازل فيها ولا مساومة عليها. وقد يحسب بعضهم أن التنازلات المرحلية خطوة في طريق كسب كامل الحقوق.

وهذا تناقض واضح، فلا لقاء بين كسب الحقوق والتنازل عن الحقوق. والكسب المرحلي هو الخطوة في طريق نيل الحقوق كلها، ولكن الكسب المرحلي يخرج من ميادين النصر المؤزر لا ميادين الهزيمة، ومن جولات العزّة لا من جولات الاستجداء. وربما تمثل التنازلات المرحلية خطوة في طريق خسارة أكبر، أو تكون مرحلة للعدو، لا لنا، حين يكون العدو أحكمَ خُطة، وأقوى عدة، وأكثر نفيراً، وأبلغ نصراً. فهو يحوِّل الخطوة المرحلية لصالحه.

ويرغب بعض الناس أن يشبه بعض مواقفنا اليوم ببعض ما فعل الرسول ﷺ، وأنّى لهذا التشبيه أن يصح أو يصدق. فمواقف الرسول ﷺ كانت منطلقة من نصر وعزة، ومن صفٍّ مؤمن متراص، ومن وحي يتنزل من السماء. ولو نظرنا إلى صلح الحديبية مثلاً فقد كان الرسول ﷺ والمؤمنون هم الأعلى والأقوى. وكان الرسول ﷺ مثلاً يفاوض قريشاً وهي تشعر بمرارة الهزيمة، وقسوة الحال عليها، وتبدل الأيام. لقد كانت قريش تمثل الجانب الأضعف الذي بدأ يظهر ضعفه وانهياره. لم تكن قريش تظن أن الحال سيتبدل حتى يأتي محمد ﷺ يحاول دخول مكة بعد أن خرج منها مهاجراً. وكان الوحي كذلك يتنزل على محمد ﷺ فيهدي قلبه إلى الحق. وأنّى لنا هذا كله، ونحن اليوم نجترُّ مرارة ونغصُّ بمرارة، ونحن تحيط بنا شياطين الأرض يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا.

كانت قريش في واقع الأمر هي صاحبة أرض مكة، ولم يكن الرسول ﷺ يفاوض قريشاً لينال جزءاً من مكة، أو لينال بعض الحقوق المدنية، ولكنه كان يفاوض عن دين وعقيدة، ليجعل من تلك المفاوضة وذلك الصلح فتحاً مبيناً بإذن الله، وليجعل مكة كلها، لا جزءاً منها، أرضاً خالصة للإيمان، داراً خالصة للإسلام، ليس للكفر ولا للشرك فيها نصيب.

وفاوض رسول الله ﷺ قريشاً وقد ظهر أمره، وعرفت العرب كلها أن محمداً ﷺ عبد الله ورسوله المصطفى، فما كان الرسول ﷺ بحاجة إلى اعتراف قريش به، ولا سأله ولا طلبه. وكأنه ﷺ وهو يقبل في صلح الحديبية ألا تُكْتَب كلمة رسول الله مع اسمه الكريم في ورقة الصلح، كأنه يقول لقريش إن اعترافكم أو إنكاركم لم يعد بذي بال ولم يعد له شأن، فاكتبوا ما شئتم، فما تكتبونه لن يغير الواقع الذي أصبح يُقرُّ بأمر النبوّة والرسالة. شتَّان بين حال وحال. عظم الفرق واتسع البون حتى لا يصحّ تشبيه.

وليس هذا التشبيه وحده لا يصح، فإن التشبيه بصلح صلاح الدين الأيوبي مع الفرنجة في فتح القدس لا يصح أيضاً. فقد جاء صلاح الدين من نصر عظيم مؤزر، وعزة ظاهرة متمكنة، وكان عدوه هو الذي يستجدي الصلح استجداء! فاستجاب صلاح الدين في قصة الصلح المعروفة رحمة بالأرواح وحماية لقبّة الصخرة والمسجد

الأقصى، ودخل القدس في نصر عسكري عظيم.

أولى بنا اليوم أن ننهض إلى الجد بدلاً من أن نبرر هواننا وضعفنا، وأولى بنا أن نعرف حقّنا ونعرف واجبنا؛ والقضية تمر من مرحلة إلى مرحلة في تراجع واضح. وأصبحت كلمة «الأراضي المحتلة» تعني قسماً من أرض فلسطين. وكأن القسم الآخر ليس محتلاً كذلك، ودرج ذلك على ألسنة الناس قرابة ربع قرن حتى ألفته الألسنة والنفوس. وحتى دفع بعض النفوس في مجراه وصاغها على هواه.

عندما قامت لليهود دولة سنة ١٩٤٨م، ظلّت الألسنة تقول: «دولة إسرائيل المزعومة». وكانت القضية المطروحة يومئذ أن يعترف العرب والمسلمون بهم. ومع سياسة المراحل وجدنا أنفسنا بعد أربعين سنة نستجدي اليهود والعالم ليعترف بنا، ليهبنا حق تقرير المصير. وغاب عن بالنا أن من يريد أن يقرر مصيره يعمل ويجاهد ولا يسأل. فقد يسأل الإنسان مالاً أو طعاماً أو كساء، أما أن يستجدي حق تقرير المصير فذلك أمر عجيب!.

والوقفة السابعة: مع أنفسنا، مع ديننا، ومع فهمنا لهذا الدين العظيم الذي ننتسب إليه.

فالإسلام ليس دين أحلام وأمانٍ، ولكنه دين جدٍّ وعزيمة.

والأماني شهوة من تراخى عن عزائم الإيمان وجدّ الرسالة، كما كان حال اليهود حين وصفهم القرآن الكريم:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ ﴾. [البقرة: ٧٨]

والإسلام ليس دين راية وشعار فحسب، يغيب عند الممارسة في واقع الحياة، وعند التطبيق:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾. [الصف: ٢، ٣]

والإسلام ليس دين طائفة أو جنس أو جماعة فحسب، إنه دين أُمة الإيمان، ورسالة الإنسان:

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾.

[المؤمنون: ٥٢]

والإسلام ليس دين التراخي والتفلّت من المسئولية. إنه دين المسئولية والحساب في الدنيا والآخرة:

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

والإسلام ليس دين ميدان واحد. إنه دين جميع الميادين، إنه دين الحياة كلها بامتدادها، ودين الإنسانية كلها بعصورها وأجناسها:

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⦗٦⦘ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ⦗٧⦘ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.

[الانفطار: ٦ – ٨]

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾. [الأعراف: ١٥٨]

﴿..الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا..﴾. [المائدة: ٣]

الوقفة الثامنة: مع أُسلوب اليهود عبر التاريخ وهم يفاوضون ويساومون. فمن شأنهم أن يتركوا جزءاً أو قضية أو قطعة لتظلّ موضع المساومة، وورقة التجارة، ومحور الآمال، ويعينهم في ذلك أنصارهم من أهل الشر والفساد في الأرض، حتى إذا واتت اللحظة المناسبة لهم ابتلعوا الجزء أو القطعة، وطووا الأمر أو القضية، وانتقلوا إلى قطعة جديدة ينتظرون موعد ابتلاعها في اللحظة المناسبة التي يتوقعونها، من خلال قيل وقال، ومساومات..!

الوقفة التاسعة: إن شعار «السلام» المرفوع لا يريده أصحابه الذين طرحوه أولاً. وإن شعار «السلام العادل» لا معنى له بعد أن ضاعت أُسس العدل واضطرب الميزان وسحقت القيم بين الأشلاء والجماجم والدماء. إن خطتهم الثابتة المعلنة، ومبادئهم المدونة،

تتعارض كلية مع دعوى السلام، وإن السياسة المطبقة في الواقع بعيدة عن السلام.

قامت دولة لليهود بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة: رقم (١٨١ - ٢) في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٤٧م. ومع أن القرار من جذوره باطل، بعيد عن العدل، بعيد عن السلام، مع هذا كله فقد حدّد القرار حدود دولتهم وشروط قيامها. ولكن اليهود لم يلتزموا بالحدود التي رسمها القرار ولا بسائر شروطه، وأداروا ظهورهم له، ومضوا يحتلون منذ ذلك الوقت أرضاً بعد أرض، يتحدَّون كل قرارات هيئة الأُمم المتحدة ومجالسها. فاحتلوا سنة ١٩٤٨ أراضي جديدة، ثم سنة ١٩٤٩، ثم سنة ١٩٥٦، ثم سنة ١٩٦٧، ثم سنة ١٩٧٣م، وامتدوا في عدوانهم إلى البلاد العربية المجاورة فاحتلوا الجولان وسيطروا على بعض الأراضي في جنوب لبنان، ومضت «دول السلام»، «الدول الكبرى والصغرى» تعلن حمايتها لهم ولدولتهم ولأمنهم.

وصدر قرار هيئة الأُمم المتحدة رقم (١٩٤ - ٣) في ١١ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٤٨م بضرورة إعادة اللاجئين إلى ديارهم وردِّ ممتلكاتهم وتعويضهم وهم في ديارهم عما أصاب ممتلكاتهم من أضرار، ومضى اليهود في تحدّيهم ولم ينفّذوا القرار، وامتدت حياة اللجوء والتشرد.

وصدر قرار مجلس الأمن (٢٤٢) في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٦٧م يؤكد ضرورة جلاء اليهود وقواتهم المسلحة عن الأراضي التي احتلوها، وظلّ القرار وثيقة تجد الدفء في ملفات هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، ولا رصيد له في الواقع.

إن إصرار اليهود على هذا العدوان والتحدي، وإصرار الدول على حمايتهم وإعلانهم ذلك بكل وضوح، يؤكد لنا أن حلول قضايانا يجب أن تخرج من أنفسنا، من ذاتنا، من جُهدنا وجهادنا، وسعينا وعَزْمِنا، ليكون ذلك إيمان كل فرد في العالم الإسلامي، إيماناً تبنيه في النفوس بيوتنا ومعاهدنا وإعلامنا. فلا حلول تقدَّم على أطباق الذّهب والفضة للنائمين والغافلين والحالمين، ولا يوجد في السياسة الدولية محسنون يتصدَّقون على الضعفاء والأيتام والمساكين. إن كل مؤمن هو على عهد ثابت مع الله، فلينهض المؤمنون إلى عهدهم على ولاء صادق لله، وعلى علم أمين بمنهاج الله، وعلى بذل ووفاء.

الوقفة العاشرة: إن اليهود ظلّوا يرددون شعار «الحدود الآمنة»، ويطالبون بالحدود الآمنة، وكأننا لا نعي ما يهدف إليه اليهود من هذا الشعار. وهذا النداء المدوّي، النداء المستمر، فإنَّ من أبسط دلالاته أنه يتعارض مع شعار «السلام»!. فالحدود الآمنة لا يمكن أن تكون بالأسلاك الشائكة، ولكن يمكن الاستعانة بها، والحدود الآمنة لا ترعاها جنود ينتظمون صفوفاً مرصوصة على طول الحدود، ولكن

يمكن الاستعانة بالجنود. فلا بُدَّ إذن من أن تنشأ الحدود الآمنة من ظروف عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية لتوفر حدوداً تتسع مع الأيام والسنين، لا بدّ من أن يقود من يدعو للحدود الآمنة حرباً لا هوادة فيها، حرباً يغلفها بشعار السلام!

وهذا الأُسلوب وهذه الشعارات تبدو واضحة عندما تصدر عن الذين يشعرون في قرارة نفوسهم أنهم ليسوا بأصحاب حق، وأنهم معتدون ظالمون مفسدون في الأرض. فيسألون الحماية والحدود الآمنة من قوى الشرّ كلها، ولا يسألون الله من ذلك شيئاً. من الشعور الدفين في أعماق النفوس، من الشعور الدفين الذي نما خلال آلاف السنين في تاريخ طويل من الظلم والعدوان والفساد في الأرض، من الشعور الذي غذاه عدوانهم المفجع على أرض فلسطين في تاريخهم الحديث، من هذا الشعور تنطلق هذه الشعارات مع غيرها وأمثالها. إن هذا الشعار نفسه هو إدانة واضحة لليهود، وسبب قوي ليوقظ الغافلين!.

الوقفة الحادية عشرة: هي القدوة العمليّة والنموذج التطبيقي في جلال الإيمان، وشمول الإسلام، وامتداد الجهاد، حتى تكون الممارسة الإيمانية في واقع الحياة تحمل نصيبها العادل من قواعد الإيمان كلها، فلا ندعو للإسلام ونحن نحمل عصبيّة جاهليّة، ولا نخاطب الناس بالإيمان ثم نظلم ونفتري ونكذب، ولا ندعو للجهاد وقلوبنا

معلقة في الدنيا، راغبة في زخرفها، نتنافس مباهجها في سمعة كاذبة ورياء واضح، ونفاق فاضح.

الوقفة الثانية عشرة: لقد بنى الإسلام أُمة عظيمة في التاريخ، أمةً وسطا، ربطت الأرض والزمان والأجيال، ومضت تجاهد في سبيل الله أُمة واحدة، كلما حاول الأعداء تمزيقها عادت هي وجمعت صفها وأرضها حتى يهبها الله النصر من عنده. ودفع محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين هذه الأُمة لتِحملَ رسالة الله إلى الناس أُمة واحدة كذلك، وانطلقت مواكب الإيمان شرقاً وشمالاً وغرباً وجنوباً، انطلقت في الأرض تحطّم الأوثان والأصنام، وتحطم كذلك الحواجز والحدود، تربط الأرض لتكون داراً واحدة هي دار الإسلام، ولتربط الأجيال كلها لتكون هي أُمة الإسلام، ولتصل الزمان ليكون هو امتداد دعوة الرحمن:

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾.

[المؤمنون: ٥٢]

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾.

[الأنبياء: ٩٢]

إن هذا البناء المرصوص الممتد ظلّ قائماً رغم كل العوادي، وامتد أربعة عشر قرناً يغالب عوامل التمزيق، حتى تمزّقت الأُمة أرضاً

وأجيالاً وأزمنة، وصار من هذه الأُمة من يرسّخ دعوى التمزيق، ويُعمل السكين والخنجر يقطع جسدها قطعة قطعة. لقد صار منا، نحن المسلمين، من يكرّس في دعواه عوامل التمزيق، ويعلن في مناهجه عناصر الإبادة وهو يدري أو لا يدري. ثمّ امتد الخطر حتى أصبحت الفُرْقة راية وشعاراً، ومطلباً وأملاً لدى بعض الناس وهم يدرون أو لا يدرون. في هذا الجو من الاضطراب أخذت قضية فلسطين حجمها الضيّق، ومساحتها المخنوقة. فلا عجب أن أصبح بعض المسلمين يرونها قضية قوم، ومصيبة أرض، تنعزل فيها مطلباً وأملاً، وتصوراً وفكراً. ثم أصبح الإعلان عن ذلك مألوفاً.

إن العجب الحقيقي هو كيف استطاع الأعداء أن يبلغوا منا، من ألسنتنا، من قلوبنا، من عقولنا، ما بلغوه، حتى أنطقوا بعضنا بما شاءوا، وجعلوا بعضنا يؤمن بما شاءوا، ودفعوا عقول بعضنا في منحاهم الذي يريدون، كيف استطاعوا أن يبلغوا ذلك في فترة وجيزة في ظاهرها، فيهدموا ما بنته آلاف السنين. إن هذا لهو العجب العُجاب. فلا شك أن المرض فينا قد استفحل حتى سهّل للأعداء هجومهم فبلغوا ما بلغوا!

والعَجَبُ العُجَاب أن تصبح مطالبنا وأمانينا وشعاراتنا مخنوقة في دربها الضيق على فرحة بلهاء، وضجة هوجاء! والعجب العُجَاب أن تكون مراحل المسلمين خطوات إلى الوراء، لا وثبات إلى الأمام!

والعجب العُجَاب أن نحاول أن نُزَخرفَ من كل ذلك نصراً، ومن مآسينا فرحة!

الوقفة الثالثة عشرة: لقد قُدِّمَ إلى الأُمة عاطفة وشعار أكثر مما قُدِّم من نهجٍ وخُطَّةِ عَمَلٍ تمتدُّ مع الزمن، وتنمو في مراحل عملية منهجية تعيها الأُمة، فتؤمن بها وتسعى لها. ولذلك سرعان ما كانت الشعارات تتبدّل، والأفكار تتغير، والأهداف تُلغَى، والمبادئ تغيب في حُمّى هائجة وعاطفة مائجة، لا تسمح بكلمة ولا تأذن برأي، فلا نصحو إلا بعد سنين على تلاوم وندم وخسران.

ولذلك كان من مظاهر حياتنا الصراع على أشخاص وليس التنافس على صدق نهج وعبقرية خطة. غاب النهج وغابت الخطة، وثار مكانهما أشكال متعددة من الأوثان. غاب النهج الذي يرسم الدرب في خطوات صادقة، وأهداف ثابتة تستقرُّ في حياة الأُمة، وأهداف مرحلية تنمو مع السعي والجهاد نموّ إيمان وبذل، لا تراجع معها ولا تيه ولا اضطراب، ولكن إقدام صادق إلى نصر صادق بإذن الله.

الوقفة الرابعة عشرة: غلب على بعض شعاراتنا محاولة مجاملة النصارى أو اليهود أو المشركين على حساب الدين وقواعده الثابتة. ولن نطرق أمثلة كثيرة، ولكننا نأخذ مثالاً واحداً فيه مزالق كثيرة، ومَهاوي خطيرة. ذلك هو إمكانية تعايش الديانات الثلاث، الإسلام

والمسيحية واليهودية، وربما أضاف بعضهم الاشتراكية، وجاءنا كذلك من أضاف الشيوعية، وربما قال قائل «إن اليهودية من تراثه»، ثم جعل له منها نصيباً! لقد امتدَّ هذا الشعار ومشتقَّاته إلى مساحة واسعة، فدخل ميادين المسلمين، وأفكار بعض الدُعاة، واختلطت الصور والمبادئ وعلاها سواد...!

حقائق الإسلام بيِّنة جليّة. فالإسلام هو الدين الوحيد الذي يرضى به الله ويأذن به، هو الدين الوحيد عند الله، ولذلك هو الدين الوحيد عند المسلمين:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامِ...﴾. [آل عمران: ١٩]

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. [آل عمران: ٨٥]

هكذا جاءت الآيات الكريمة حاسمة حازمة فاصلة، لا مجال فيها للتأويل أو الجدال. حقيقة ربّانية ثابتة تمثل جزءاً أساسياً من الإيمان والتوحيد.

أما الديانات الأُخرى كاليهودية والنصرانية، فيمكن لأصحابها أن يقيموا في أرض الإسلام أهل كتاب، وأهل ذمة، لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ما حدَّده الله ورسوله، وليس لبشر أن يُعدِّل في ذلك. وهذا الذي أمر الله به ورسوله هو أسمى درجات العدل والحق

والإحسان، فهو من عند الله، فكيف لا يكون كذلك؟! ولم تجدْ هذه الديانات في تاريخها عدالة ورحمة أعظم مما جعل الله لهم في حمى الإسلام. فمن حيث التاريخ والممارسة أيضاً كانت مصلحة هؤلاء أن يخضعوا للإسلام، حتى تكون كلمة الله هي العليا، وحتى يستطيعوا هم أن ينالوا هذه العدالة والرحمة حقّاً، كما حدّدها الله لا كما ترسمها أهواء البشر، وحتى يستطيع المسلمون أن يدفعوا شرَّهم لو دفعهم الشيطان إلى مكر وغدر، كما فعل بهم الشيطان، وكما فعلوا هم، في تاريخ طويل.

ومن الخطأ الكبير أن يحاول المسلمون تحوير شرع الله في أبواب من المجاملة والضعف والهوان. ففي هذا التحوير أخطار كثيرة: أهمها معصية الله وما يترتب على ذلك من خُسران وهوان. وكذلك، فإن اليهود والنصارى وغيرهم يعرفون حقائق الإسلام، وإن كانوا لا يؤمنون بها. إنهم يعرفونها، فإذا رأونا غيَّرنا وبدَّلنا، عرفوا أننا ضعفاء جُبَناء، أو ظنّوا أننا نحاول خداعهم والغدر بهم. وفي كلا الحالتين نكون نحن الخاسرين: فلا هم يُصدِّقوننا ولا هم يحترموننا. ولو أننا بَدَّلنا شيئاً في حقائق الدين، فإننا نكون بذلك حاولنا ما فعله أهل الكتاب من قبل، فنفقد عون الله ورحمته، ونفقد أسباب النصر بعد ذلك كلها.

فإذا ضعف المسلمون، فلا يجوز أن يكون هذا الضعف مسوّغاً

لتغيير أو تحوير. ولا بد من أن تظلّ كلمة المسلمين صادقة، ليراهم العالم صادقين، وليراهم الله صادقين سواء في القوة وفي الضعف. إن انتصار أعداء الله في جولة من جولات التاريخ لا تقف مسوِّغاً للاستسلام أو الإدبار، أو التراجع عن حقائق الإسلام! وفي مواقف كثيرة يكون الصمت أقرب للتقوى من فتنة كلمة أو موقف. والمعركة ماضية إلى يوم القيامة.

لا ننكر أن الهزائم المتتالية منذ سنة (١٩٤٨م) أوجدت نفسيّة تعاني من ضغط الهزيمة، وتعاني من الصدمة التي واجهتها من العالم الإسلامي، وتعاني من هول الكيد من الأعداء في مراحل تدريجية، نقلت الناس من اللاءات إلى المساومات، خطوة خطوة، خلال أربعين سنة. ولكن هذا كله لا يقف مسوِّغاً لاستسلام أو تراجع في حياة المؤمنين، ولا ينقذ من الحساب بين يدَي العزيز القهّار.

لقد ثار المسلمون على وعد «بلفور». واعتبروه خديعة وغدراً وظلماً. وفي الحقيقة كان وعد بلفور كذلك، وما زال، وسيظّل أبد الدهر أسوأ مثلٍ للغدر والظلم والعدوان، ووصمة عار في جبين كل من ساهم فيه وتآمر لإخراجه وتنفيذه. فهل يعقل بعد جهاد استمرّ أكثر من اثنين وسبعين عاماً متواصلة في البذل والرفض، أن نخطو في طريق هي أقرب إلى تسويغ وعد بلفور أو قبوله؟!

٣ ـ معالم الطريق إلى فلسطين:

من هذه الوقفات يجب أن نخرج بزاد حقيقي يساهم في رسم الخُطَّة والنهج، ووضع المعالم وفتح الدرب.

من هذه الوقفات نجد الدافع القوي الذي يشدنا إلى وقفات أخرى، وتدبر أوسع، وخشوع وإنابة بين يدي الله سبحانه وتعالى. فهو وحده يهب النصر لمن يشاء من عباده، والنصر كله من عنده، وما على الإنسان المؤمن إلاَّ أن يصدق الله: في إيمانه، في عمله، في بذله وسعيه، في نهجه وخطته. فإلى تلك المعالم على طريق مشرق بالنور:

أولاً: النية: إن النية هي معركتنا الأولى، وهي معركتنا الحاسمة، وهي معركتنا مع أنفسنا، ومنها تنفتح بإذن الله أبواب النصر، النصر الذي هو من عند الله وحده، يهبه لمن يشاء. إن النية هي معركتنا مع أنفسنا، فإذا انتصرنا فيها، فنكون قد حققنا الشرط الأساسي لنصر حقيقي. فلا بد من أن تكون النية صادقة خالصة لله سبحانه وتعالى، نقيّة من شوائب الدنيا، مرتبطة بالآخرة. لا بدّ من أن تكون النية الخالصة لله سبحانه وتعالى هي مصدر القوة الحقيقية، ومصدر الفرحة والبشرى، ومصدر العزة والاطمئنان. ولا يستقيم هذا الأمر إلا بإيمان يستوعب طاقة المسلم ووسعه، وعلم يستوعب طاقته ووسعه، وسعي يستوعب طاقته ووسعه، على بصيرة ونهج، حتى ينجو المؤمن فلا يقع في فتنة تضله، ولا يُستدرج إلى غفلة تهلكه، فيعرف حدوده،

ومنازله، وحدود الآخرين ومنازلهم.

ولقد كشفت الساحة في أكثر من موقع على تنافس واضح على الدنيا وزينتها، وعلى السمعة والرياء، وحب الزخرف حُبّاً يُضلّ ويفسد، حبّاً يفرّق ويمزّق، وإن من أسس الصدق مع الله ان نتوب ونؤوب، فندع الكبر والاستكبار، حتى نخشع لله صادقين نطرق أبواب الجنة بإيمان يجري في دمائنا، وعلم يملأ قلوبنا نوراً، وجهاداً يشق السبيل ويزيح الصخور.

ثانياً: العناية الكبيرة في بناء الإنسان المؤمن كما بنته مدرسة النبوّة، ودفع الأجيال المؤمنة كما دفعتها مدرسة النبوّة، يصوغها منهاج الله - قرآناً وسنّة - وتصهرها الخبرة والتجربة في ميدان الممارسة الإيمانية.

ثالثاً: العناية في بناء الأمة المسلمة التي تحنو على أبنائها، فترعاهم حق الرعاية، وتقدم لهم الغذاء النافع والماء الطاهر والهواء النقي، أُمة مسلمة واحدة تعبد ربّاً واحداً، وترتبط بروابطها الإيمانية، ووشائجها الربانيّة.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. [البقرة: ١٢٨]

رابعاً: أَن ينهض كلّ فرد في الأُمة، وأن تنهض الأمة كلها

لمسئولياتها الحقيقية في الحياة: العبادة التي خلقت لها، والأمانة التي حملتها، والخلافة التي أنيطت بها، في جهاد وابتلاء تمحّص فيه.

خامساً: أن يكون للأُمة شعار واحد هو شعار الإسلام، وواقع واحد هو واقع الإيمان، يبرز في صدق الممارسة التي يدفعها علم صادق بمنهاج الله ـ قرآناً وسنة ـ، ويجمعها مجرى واحد من النور والخير، تصب فيه الجهود كلها حتى لا تتبدد، والطاقات كلها حتى لا تتمزّق.

سادساً: أن تنطلق دعوة الله في الأرض من هذه الأُمة الوَاحدة، لتبلّغ رسالة الله، ولتفي بالعهد الذي أخذه الله عليهم.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾. [الأعرف: ١٧٢]

هذا العهد الذي أخذه الله من كل إنسان، ومن الشعوب والأُمم، ومن الأنبياء والرسل، هذا العهد يجب أن نُحيي قواعده الإيمانية، وأُسسه الربّانية في نفوس الأجيال وقلوبها.

سابعاً: عندئذ، وقد استكملت الأُمة بناءها، ووثّقت روابطها، وحددت شعاراتها، وعرفت عهدها مع الله، وأمانتها، وحق خلافتها، عندئذ، وقد صاغها منهاج الله ـ قرآناً وسنة ـ إيماناً وفكراً وعلماً

وتصوراً واحداً متناسقاً لا تضارب فيه، وفهماً واحداً، عندئذ تضع الأُمة نهجها المتكامل وخُطتها الأمينة، وتشق دربها:

أ ـ تحيي خصائص لقاء المؤمنين في واقع نامٍ مستمر ماضٍ إلى يوم القيامة.

ب ـ تفي بعهدها وإيمانها وفاء صدق وبذل وعطاء.

جـ ـ تعرف أهدافها الواضحة المحددة، الأهداف الثابتة والأهداف المرحلية، الأهداف المشرقة التي تؤمن بها، وتسعى إليها، إيماناً وعلماً وبذلاً وجهداً وجهاداً، وتشرق هذه الأهداف كلها من الهدف الأكبر والأسمى، الهدف الذي تطرق به أبواب الجنة:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

[الإسراء: ١٨ – ٢٠]

ثامناً: عندئذ تنطلق الأُمة المسلمة إلى أرض الإسراء، إلى الأرض المباركة، إلى فلسطين، تحمل معها دعوة الله ورسالة الإسلام، فتدخلها كما دخلها إبراهيم ولوط عليهما السلام، وكما دخلها سائر الأنبياء،

وكما دخلها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصلاح الدين الأيوبي، ليسمع العالم كله دعوة واحدة، وخفقاً واحداً، ولغة واحدة ولهجة واحدة، من أُمة واحدة تعبد ربّاً واحداً، صدقت مع ربها، فوهبها القوّة التي تجاهد بها حق الجهاد، فيهبها:

النصر

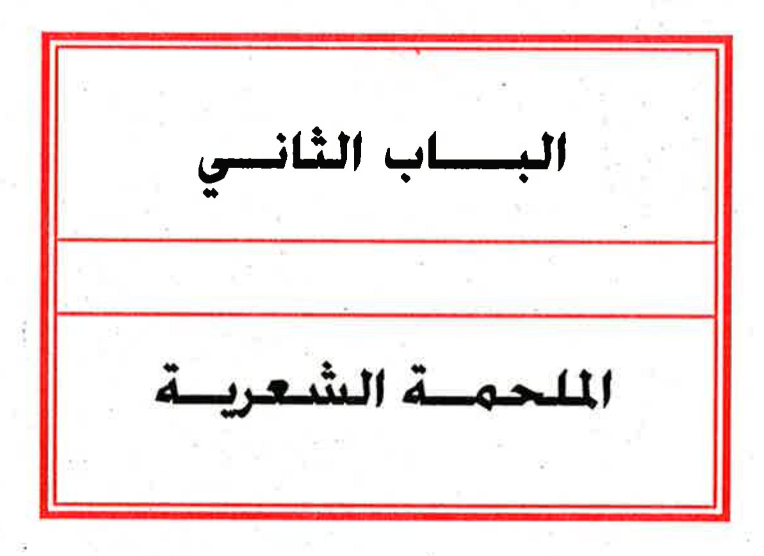
في

فلسطين

وفي سائر ديار المسلمين

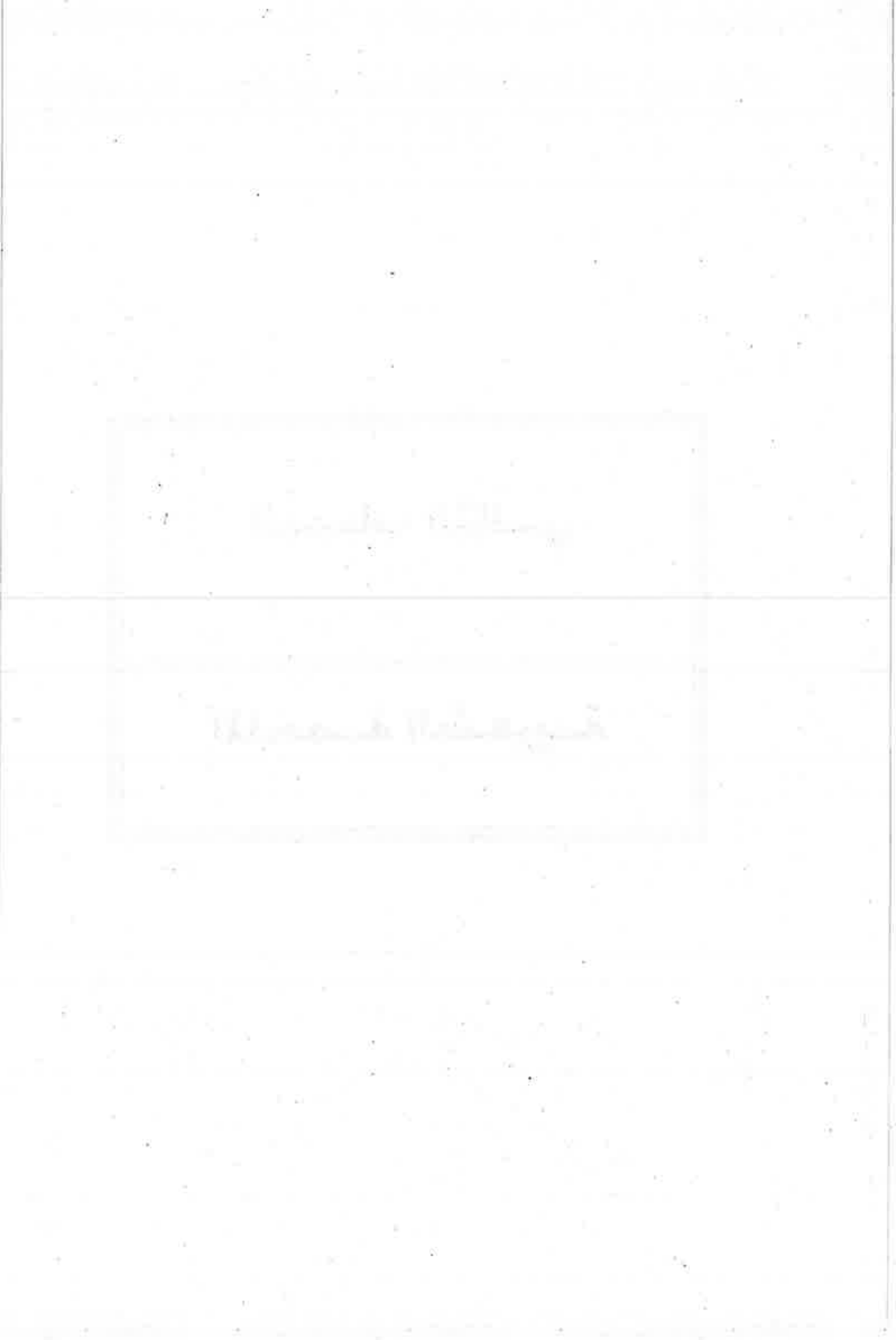
والحمد لله رب العالمين

* * *



الباب الثاني

الملحمة الشعرية





الافتتاح

المال والنّفر الممدود..! واعجباً

أين الملايين...؟ غابتْ عن نواظِرِه

هناك في الدرب! قطعاناً مشرَّدةً

يسوقُها الذلُّ في بلوى حفائرِه

تمدُّ أعناقَها حمقاء ثاغيةً

على شفار عدوٌّ أو خنَاجره

يُدْمي على رعشة الإذلالِ مُهْجَتَها

غصّتْ على العرض من أغلى حرائره

غَفوتِ يا أُمّتي ظلاً على سُررٍ

من ماجن اللهو أو من جهل سادره

تركتِ دارك أبواباً مُفتَّحةً

لكلِّ غازٍ على حُمّى جرائره

يجتثُّ من كلّ روضٍ طيبٍ غرسته

ويدفَع الدّم نهراً في مجازِرِه[١]

---

(١) أبيات من قصيدة عرائس وجواهر في لكهنو ـ ديوان جراح على الدرب للمؤلف.

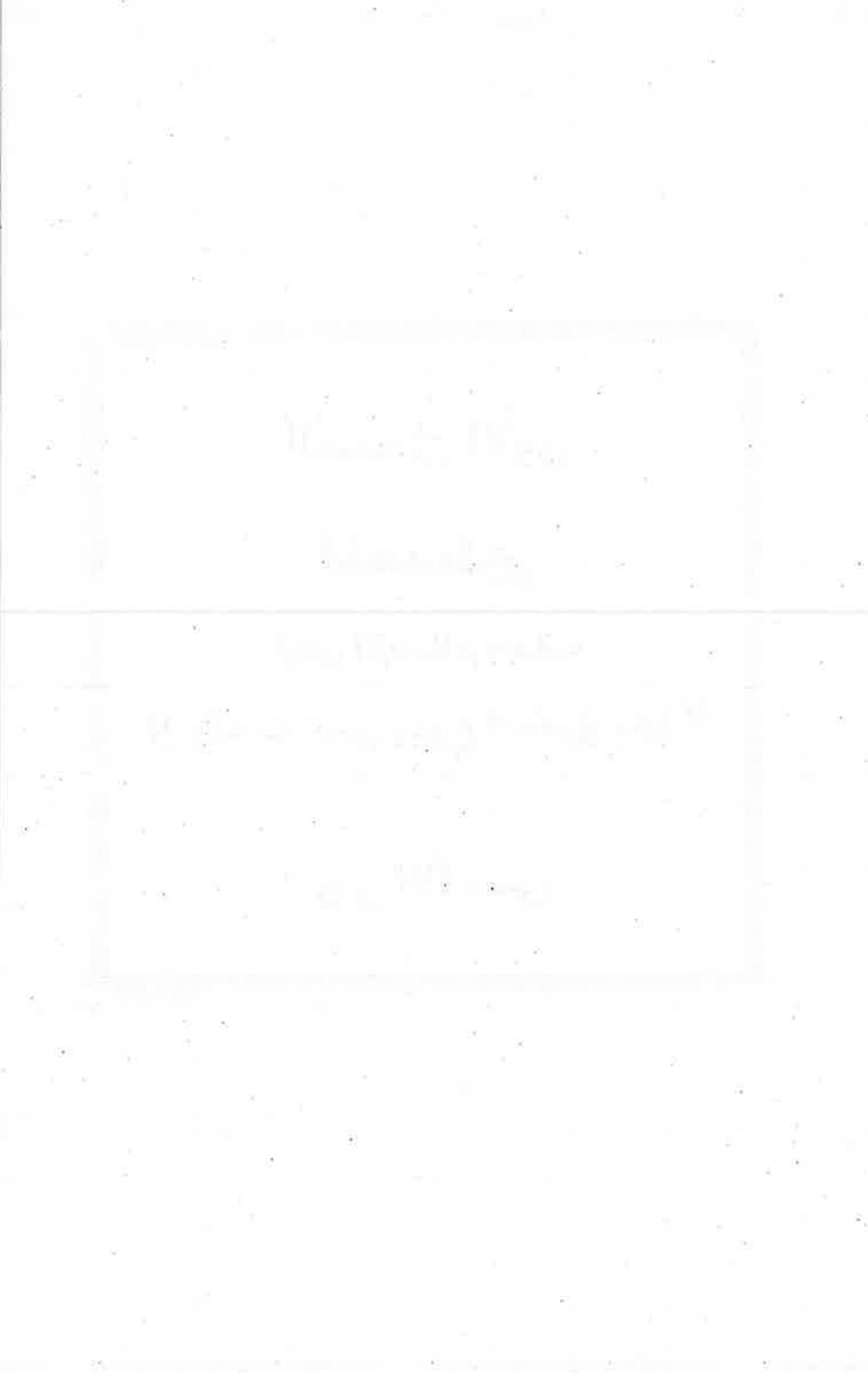
الفصل الأول

فلسطين

أرض الإسلام وحقه

((وقفت على ربوع الشرق بابا))

ربى الأقصى



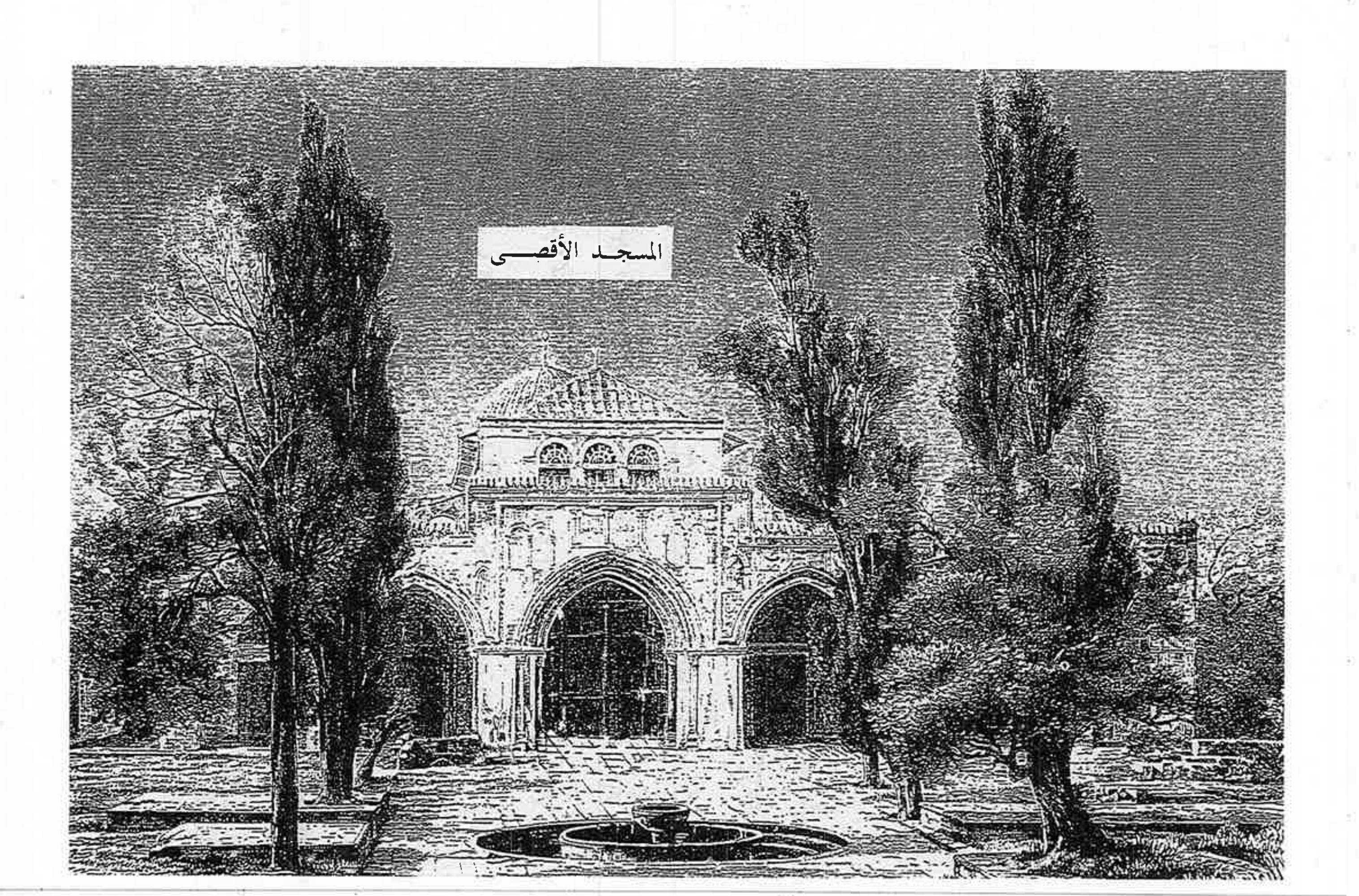


ربى الأقصى[1]

كنت قلت المقاطع الأولى بحدود عام ١٩٤٧م، حين غادر أحد زملائنا الكلية العربيّة بالقدس إلى بيروت. وفي عام ١٩٧٨م أي بعد قرابة واحد وثلاثين عاماً، عدتُ إليها من خلال الأحداث المتجددة آنذاك، فخرجت هذه الأبيات تصف الحالة التي كنا فيها، والأمل الذي نرجوه، ولنحلل قضية فلسطين بتاريخها وأحداثها على أسس الإيمان والتوحيد، ولنرسم نهجاً يثب إليه المؤمنون يطرقون أبواب الجنّة، يصدقون الله نيّة وإيماناً وعلماً وعملاً، ويهجرون زخرفاً زائلاً وتنافساً رخيصاً.

---

(١) ديوان موكب النور، للمؤلف: (ص٣٩).



المسجد الأقصى



ربى الأقصى

رُوَيْدَكَ...! قُم وقَاسِمْنَا الأَنِينا
هَلُمَّ وَدَعْ جَهَالَةَ جَاهِلينَا

وَدَعْ عَنْكَ الغِوَايَةَ واطَّرِحْهَا
وَدَعْ فِتَناً أَثَرْنَ بِكَ الفُتُونَا

فَمَا خَبَرُ الكَوَاعِبِ والغَوَاني
إذا مِلْنَ الشِّمالَ أَوِ اليَمِينَا

تَقُولُ لِعَاتِبٍ: مَهْلاً فَإنِّي
أُصَارِعُ تَارَةً وَأَلِينُ حِينَا

وَكَمْ مِنْ نَاهِدٍ حَوْلي تَرَاهَا
تَوَدُّ لَوِ اسْتَطاعَتْ أَنْ تُعِينَا

شِبَاكٌ ما لَهُنَّ يَدٌ عَلَيْهَا
سِهَامٌ لَمْ يَكُنَّ المُطْلَقِينَا



سَـرَحْـنَ مَعَ الـحَـيَاة شِـبَـاكَ صَيْدٍ
ومِـلْـنَ فَكُـنَّ سَـهْماً رِيْش فِـينـا
فَيَا بَيـرُوتُ... مَوْحَى الشِّعْرِ... غَنِّي
هَـوَاهُ وَلَـهْـوهُ نَـغَـمـاً حَـزِيـنـا
تَـرَكْـتِ لَهُ عِـنَـانَ اللَّهْـوِ رَخْـواً
يَتِيْـهُ عَلَـى عَواصِـفِهِ جُـنُـونَا
فَـتَطْـوِيِـه كَـمَا يَـطْـوِيْ خِـضَـمٌّ
ـ إِذَا اضـطـرَبَ العُبَابُ بِهِ ـ سَفِيْنَا
ظِـلاَلَ الأَرْزِ قُـصِّـي عَـنْ هَـوَاهُ
وَعَـنْ خَـبَرِ الغَـوَانِـي حَدِّثِيْـنَا
يَمِيـلُ عَـنِ الـدُّرُوسِ وَيَزْدَرِيـهـا
وَيَـرْغَـبُ جَاهِـداً أَنْ لاَ تَـكُـونَا
إِذَا ذَكَروا الكتابَ يَقُـولُ : «عَنِّي»
وَإِنْ ذَكَـرُوا الـمَـلاهِـيَ قَالَ : «جِينَا»

* * *



أَتَذْكُـرُ كَيْفَ كُنْتَ أَسِيرَ سِجْنٍ
يبعثـرُ رَبُّـهُ فِيْـهِ العُيُـونَا
كَسَـرْتَ قُيُودَهُمْ وعَبِثْتَ فِيْـهَا
وبِتْنَـا فِـي السُّـجُونِ مقَيدِّيْـنَا
نَـدُقُّ جِـدَارَهَـا دَقّاً عَلَيْـنَا
لِمُعْتَـرَكِ الشَّـبَابِ المُؤْمِنِيْـنَا
هُنَالِكَ أَحْكَمُـوا قَيْداً عَلَيْنَا
وَرَدُّوا حَـوْلَ صَـرْخَتِـنَا السُّجُونَا
مَعَاهِـدُ لَـمْ تَقُـمْ إِلاَّ لِتَبْنِـيْ
شَـبَابَ عَقِيْـدَةٍ مُتَوثِّبِيْـنَا
إِذَا مَـا الـدَّارُ مَزَّقَـهَا ذِئَابٌ
وأَضْحَـتْ نُهْـبَةً لِلنَّاهِبِيْـنَا
فَمَا تَغْفُـو عُيُـونٌ عَنْ حِمَاهَـا
وَلاَ تَرْضَـى عَلَى الهَيْجَـاءِ هُوْنَا
وَلَوْلاَ «الانْتِـدَابُ» جَثَـا عَلَيْـنَا
وَخُلْـفٌ مَزَّقَ المتَخَاصِمِيْـنَا



لَـمَا عَضَّــتْ قُيُودُهُـمُ عَلَيْنَا
وَلَا حَـوَتِ السُّـجُونُ بِهَا سَـجِينَا

رُوَيْـــــدَكَ... دَعْ هَوَى دَعْدٍ وَهِنْدٍ
وَهُــبَّ وَأَنْجِـدِ الطَّلَلَ الحَزِيْـــنَا

وَداراً بَارَكَ الرَّحْـــمَـــنُ فِيـــهَا
تَمُــدُّ بِفَيْضِ رَحْمَـتِهِ السِّـــنِيْنَـا

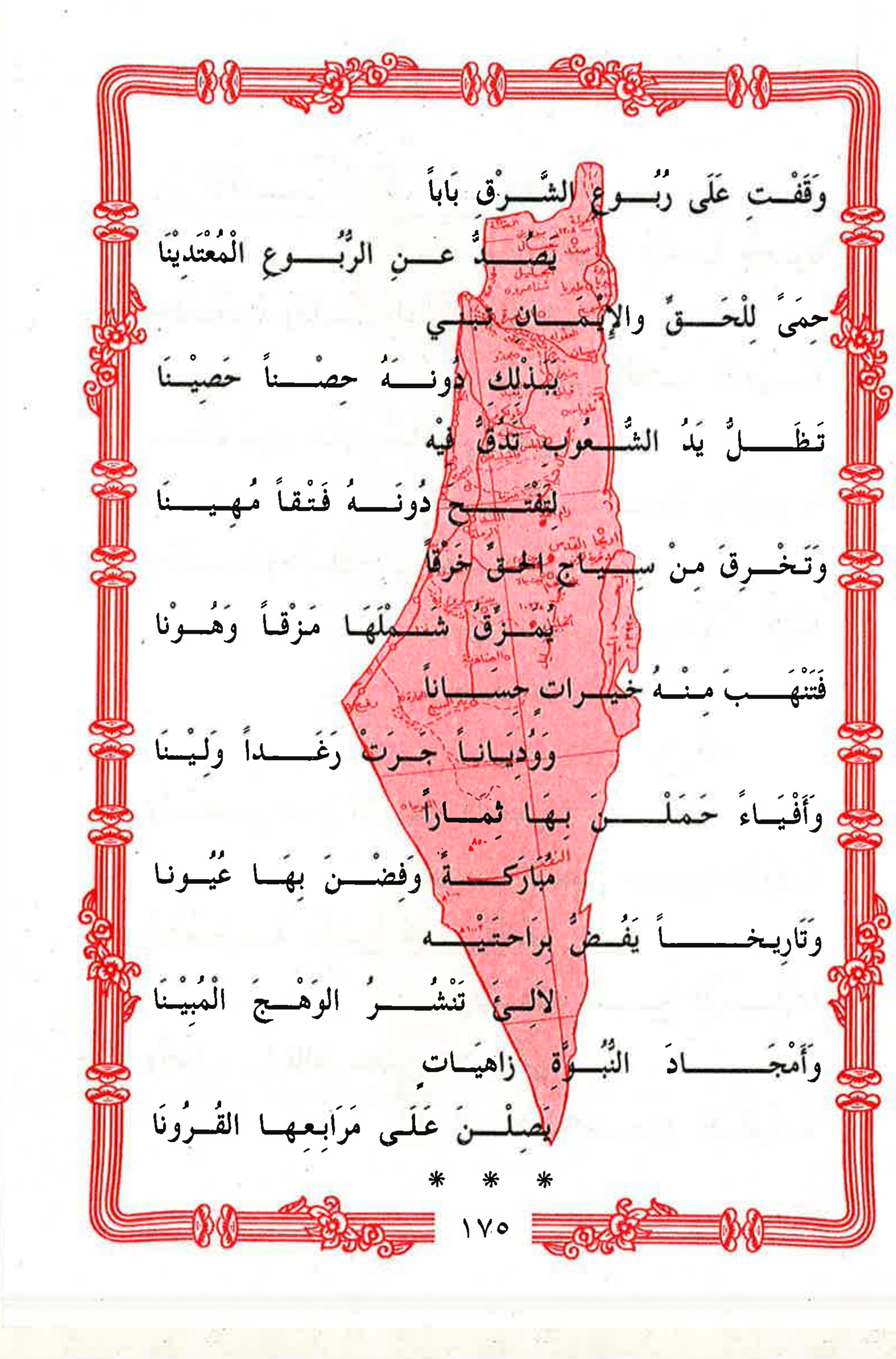
رُبَى الأَقْصَــــى فَدَيْتُكِ مِنْ جِراحٍ
حَمَلْــتِ عَلَى الزَّمَـانِ بِهَا الشُّجُونَا

مَرَابِــــــعُ كُلَّــمَا مَرَّتْ عَلَيْـها
عُـصُـورٌ طَـأْطَأَتْ وَحَـنَـتْ جَبِيْـنَا

وَأَلْقَـــتْ فـي رَوَابِـيْهَا غِـرَاسـاً
وَرَوَّتْ سَـــهْلَهَا وَسَـقَـتْ حُـزُونَا

فَتَحْمِـــلُ مِنْ دَمِ الشُّـهَدَاءِ مِسْكاً
وَتَنْشُــرُ مِنْ ظِـلالَ الـوَحْـي دِيْنَا

* * *



وَقَفْتِ عَلَى رُبُوعِ الشَّرْقِ باباً
يَصُدُّ عَنِ الرُّبُوعِ الْمُعْتَدِينَا

حِمىً لِلْحَقِّ والإِيمَانِ تَبْنِي
بِذَلْك دُونَهُ حِصْناً حَصِيْنَا

تَظَلُّ يَدُ الشُّعُوبِ تَدُقُّ فِيْه
لِتَفْتَحَ دُونَهُ فَتْقاً مُهِينَا

وَتَخْرِقَ مِنْ سِيَاجِ الحَقِّ خَرْقاً
يُمَزِّقُ شَمْلَهَا مَزْقاً وَهُونْا

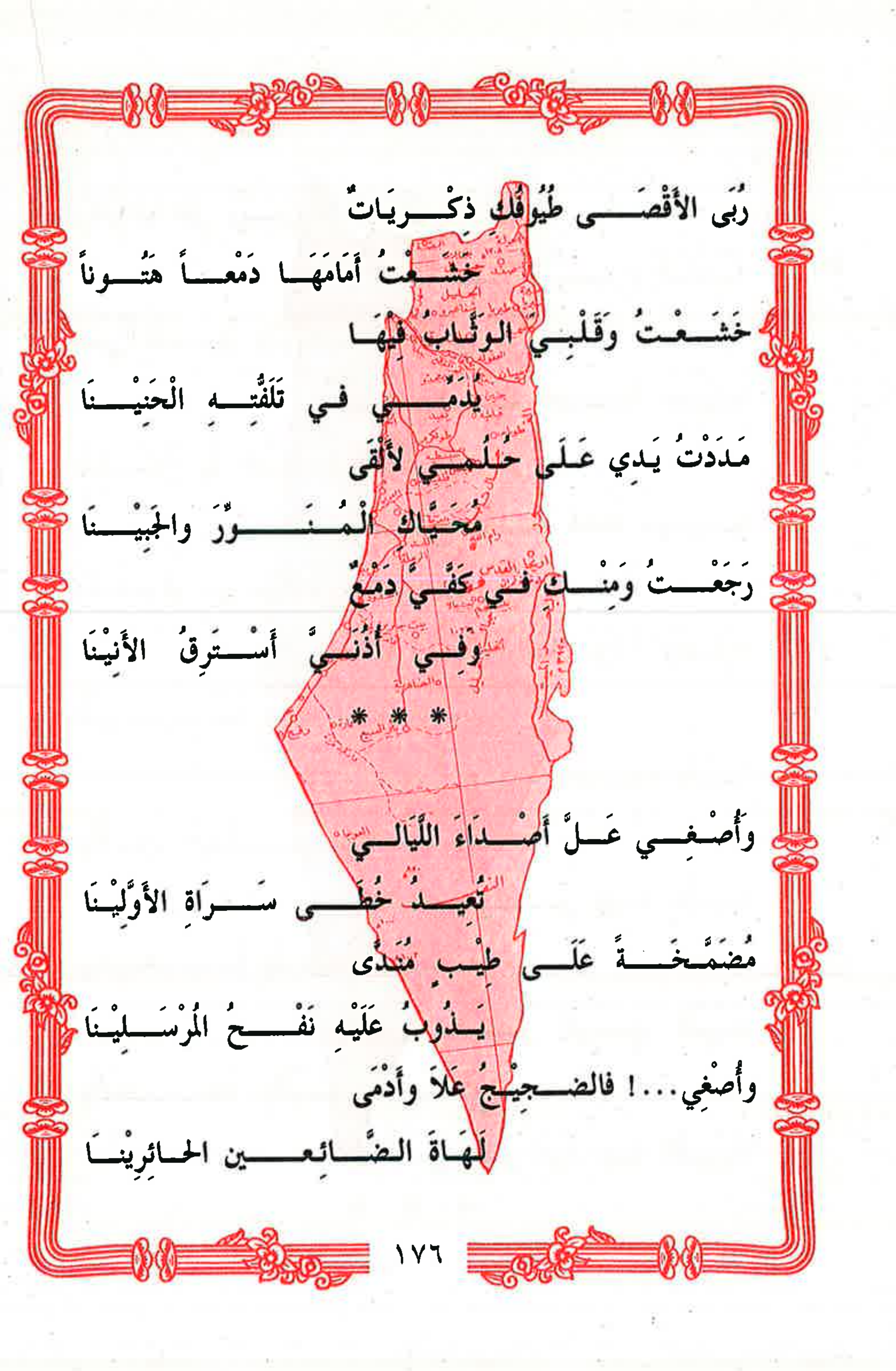
فَتَنْهَبَ مِنْهُ خيرات حِسَاناً
وَوُدْيَاناً جَرَتْ رَغَداً وَلِيْنَا

وَأَفْيَاءً حَمَلْنَ بِهَا ثِمَاراً
مُبَارَكَةً وَفِضْنَ بِهَا عُيُونا

وَتَارِيخاً يَفُضُّ بِراحَتَيْه
لآلِئَ تَنْشُرُ الوَهْجَ الْمُبِيْنَا

وَأَمْجَادَ النُّبُوَّةِ زاهياتٍ
يَصِلْنَ عَلَى مَرَابِعِهَا القُرُونَا

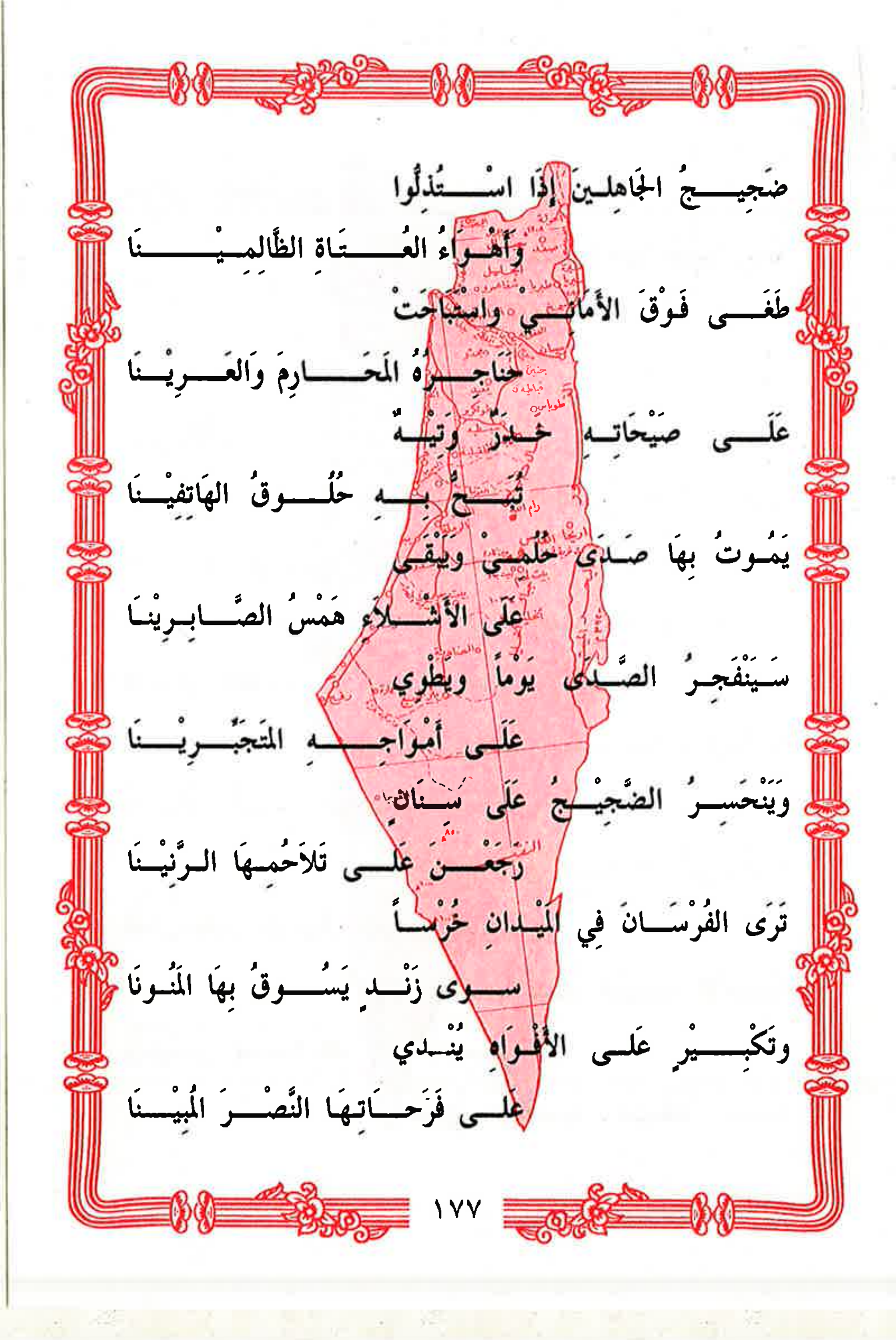
* * *



رُبَى الأَقْصَـــى طُيُوفُكِ ذِكْـــريَاتٌ
خَشَــعْتُ أَمَامَهَــا دَمْعــاً هَتُــوناً
خَشَــعْتُ وَقَلْبِـي الوَثَّابُ فِيهَـا
يُدَمِّـــي فـي تَلَفُّتِــهِ الْحَنِيْـــنَا
مَـدَدْتُ يَـدِي عَـلَى حُـلُمِــي لأَلْقَى
مُحَيَّاكِ الْمُــنَـــوَّرَ والجَبِيْـــنَا
رَجَعْــتُ وَمِنْـــكِ فــي كَفَّــيَّ دَمْعٌ
وَفِــي أُذُنَـــيَّ أَسْـــتَرِقُ الأَنِيْنَا

* * *

وَأُصْـغِـــي عَـــلَّ أَصْـــدَاءَ اللَّيَالـــي
تُعِيــدُ خُطَـــى سَـــرَاةِ الأَوَّلِيْـنَا
مُضَمَّـخَـــةً عَلَـــى طِيْـبٍ مُنَدًّى
يَــذُوبُ عَلَيْهِ نَفْـــحُ المُرْسَـــلِيْنَا
وأُصْغِي... ! فالضَــجِيْجُ عَلاَ وأَدْمَى
لَهَاةَ الضَّــائِعــــين الحـائِرِيْنَـا



ضَجِيــجُ الجَاهِلـينَ إِذَا اسْـــتُذِلُّوا
وَأَهْــوَاءُ العُـــتَاةِ الظَّالِمِــيْــــنَا

طَغَـــى فَوْقَ الأَمَانِـــي واسْتَبَاحَتْ
حَنَاجِـــرُهُ المَحَـــارِمَ وَالعَـــرِيْــنَا

عَلَـــى صَيْحَاتِــهِ خَــدَرٌ وَتِيــهٌ
تُبَــحُّ بِـــهِ حُلُـــوقُ الهَاتِفِيْـــنَا

يَمُـوتُ بِهَا صَـدَى حُلُمِـي وَيَبْقَى
عَلَى الأَشْـلاءِ هَمْسُ الصَّـابِرِيْنَا

سَـيَنْفَجِـرُ الصَّـدَى يَوْماً وَيطْوِي
عَلَـى أَمْوَاجِـــهِ المتَجَبِّــرِيْــنَا

وَيَنْحَسِـرُ الضَّجِيْــجُ عَلَى سَنَاهُ
رَجْعَـــنَ عَلَـــى تَلاَحُمِـهَا الرَّنِيْــنَا

تَرَى الفُرْسَـانَ فِي المَيْدَانِ خُرْسـاً
سِـــوَى زَنْــدٍ يَسُـــوقُ بِهَا المَنُونَا

وتَكْبِـــيْرٍ عَلـى الأَفْـوَاهِ يُنْــدِي
عَلَـــى فَرَحَـــاتِهَا النَّصْــرَ المُبِيْــنَا



هُنَـالِكَ تَخْشَـــعُ الدُّنْيَا وَتُصْغِـي
لآيَـــاتٍ بِسَـــاحَتِهَا تُلِيـــنَا

* * *

رُبَـى الأَقْصَـى، فَدَيْتُك، أيُّ طَيْفٍ
ألـــمَّ وَلَـمْ يَكُـنْ طَيْفاً حَنُونا
خُطَى مُوسَـى عَلى ثَبَجِ الصَّحَارَى
تَشُقُّ عن الرِّمَـالِ هَـوىً دَفِينـا
هَـوَىً تَتَفَتَّـحُ الأَكْمَـامُ مِنْـهُ
وَتَنْفَـحُ مِـنْ بَشَـائِرِهِ اليَـقِينَا
دُعَـــاءُ أَبِيْــهِ إِبْرَاهِيْـمَ بُشْرَى
يُرَجِّـــعُ مِـنْ صَـدَاهَا المُرْسَلُونَا
تَفُضُّ عَلـى شُـفُوفِ الغَيْـبِ مَسْرَى
لأَحْمَـدَ يَأْخُـذُ العَهْـدَ الأَمِيْـنَا
يَؤُمُّهُـمُ بِسَـاحِك ثُمَّ يَمْضِـي
يَشُـقُّ بُرَاقُـهُ سَـقْفاً مَتِيْـنَا



دَنَا شَوْقاً فماجَ مَطَافُ نُـورٍ
يَـرِقُّ بِـهِ خُـشُوعُ الخَـاشِـعِيْنَـا
وفُـتِّـحَـتِ الغُيُوبُ لِنَاظِـرِيْـهِ
وآيَـاتٌ جَـرَتْ دُنْـيَا ودِيْـنَـا
خُـطَى مُـوسَى عَلَى الصَّحْرَاءِ لَجَّتْ
وحَـرَّكَـتِ اللواعِـجَ والحَـنِـيْـنَـا

* * *

هَـوَى الإِسْـلَامَ للأَقْصَى نَـدِيّ
فَطِيبِي وَانْعَمِي صَحْرَاءَ سِيْـنَـا
فَـهَبَّ بِقَوْمِـهِ مُوْسَـى وَنَـادَى
فَـأَجْفَـلَ دُونَـهُ المتَـقَاعِـسُونَا
وَقَـالُوا إِنَّ جَـبَّارِيْـنَ فِـيْهَـا
وَإِنَّا حيْثُ تَـنْظُـرُ قَاعِدُونَـا
فأَنْتَ وَرَبُّـكَ الجَـبَّارُ قُـوْمَـا
إلـيهم واقْـحَـمَـا السَّاحَ الحَـصِـيْنَا



فَـإِمَّا يَـخْـرُجُـوْنَ عَـلَـى سَـــلامٍ
فَـنَـدْخُـلُ عِـنْـدَ ذَلِـكَ آمِـنِـيْـنَـــا

هُـنَـالِـكَ مُـزِّقُـوا مِزَقـاً وَتَـاهُـــوا
عَـلَـى عِصْيَـانِـهِـم ذُلاًّ مُـهِـيْـنَـــا

أَبَـتْ سَاحَاتُكَ الـجُـبَـنَـاءَ دَوْمَـــاً
وَتَـأْبَـى الـمُـجْـرِمِـيْنَ الظَّالِـمِـيْـنَـــا

سَـتَـلْـفُـظُـهُـمْ إِذَا فَـسَـقُـوْا وَهَـانُـوا
وَتَـطْـحَـنُـهُـمْ إِذَا كَـفَـرُوا طَـحِـيْـنَـــا

نِـدَاكَ يَـظَـلُّ لِلإِسْلامِ مَـغْـنَـــىً
وَعِـطْـرُكِ ظَـلَّ نَـفْـحَ الـمُـؤْمِـنِـيْـنَـا

* * *

أَلَسْـتِ عَـلَـى هُـدَى الإِسْـلامِ نَـايـاً
يُـرَجِّـعُ فِـيـكِ آيَـاتٍ وَدِيْـنَـــا

عَـلَـى مِـزْمَـارِ دَاوُدَ اللَّـيَـالِــــي
يَـمُـوجُ خُـشُـوعُـهَـا رَهَـبـاً وَلِـيْـنَـــا



وَتَجْرِي مِنْ «سُلَيْمَانَ» الغَوَالِي
بَيَانَ نُبُوَّةٍ قَطَعَ الظُّنُونَا

تَمُرُّ يَدُ «المسيحِ» عَلَى الرَّوَابي
لِتَمْسَحَ مِنْكِ جَرْحَكِ وَالجُفُونَا

جَمَعْتِ بِسَيِّدِ الرُّسُلِ الأَمَانِي
وَبِالقُرْآنِ ذِكْراً مُسْتَبِينَا

وَشَعَّتْ كُلُّ رَابِيَةٍ وَفَضَّتْ
عَلَى لأْلائِهَا الكَنْزَ الثَّمِينَا

أُولئِكَ لَيْسَ مِنْ نَسَبٍ إِلَيْهِمْ
وَلاَ رَحِمٍ يَشُدُّ المُدَّعِينَا

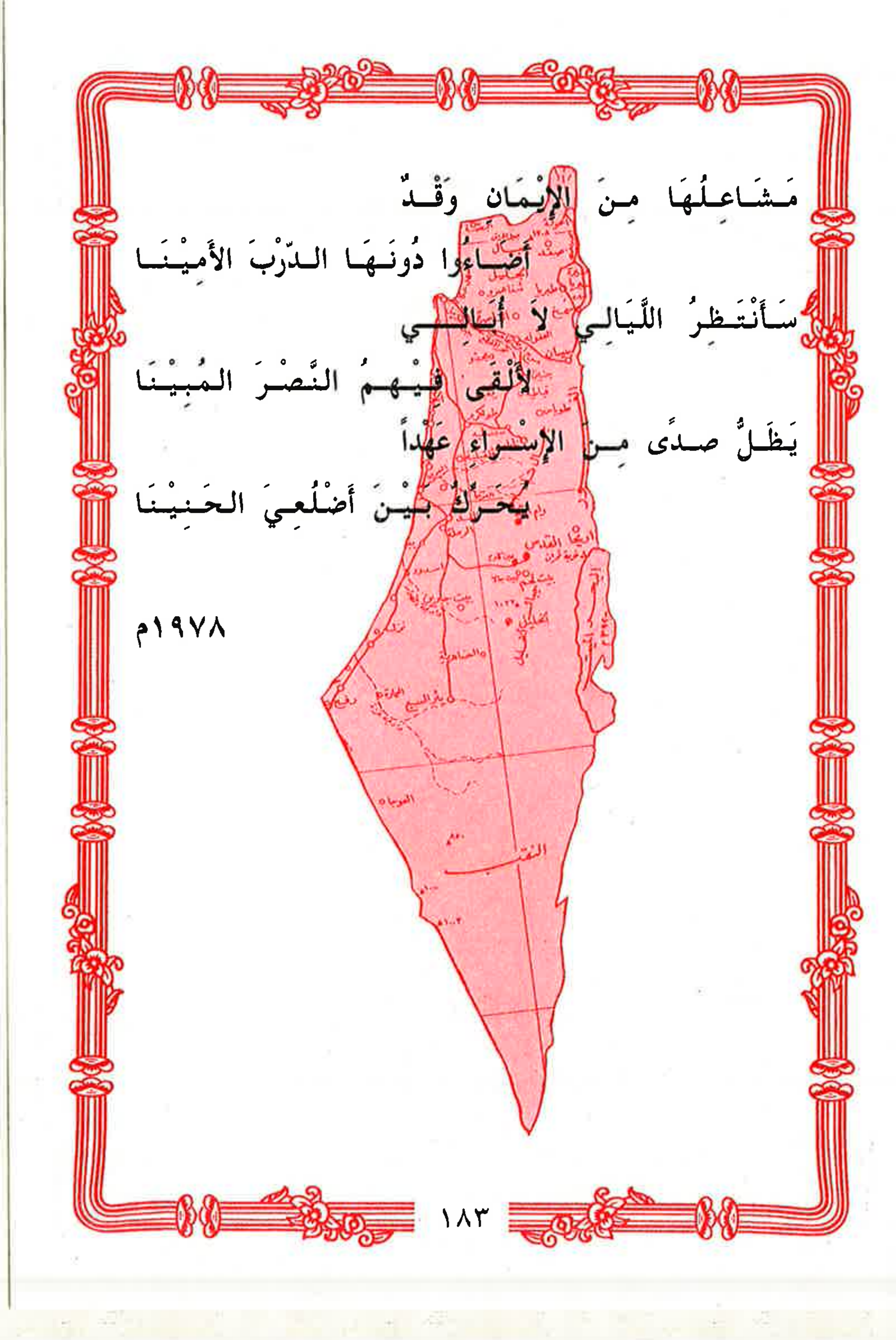
سِوَى الإِسْلاَمِ آصِرَةً وَقُرْبَى
يُوَثِّقُ مِنْ عُرَاهَا المُؤْمِنُونَا

فَوَا عَجَباً لِمَنْ مُسِخُوا قُرُوداً
جَزَاءَ الْكَافِرِينَ المُعْتَدِيْنَا

وَمَنْ عَبَدُوا عَلَى الأَهْوَاءِ عِجْلاً
عَلَى دَنَسِ الضَّلاَلَةِ مُبْلِسِيْنَا



فَثَمَّ عَمُوا وَصَمُّوا وَاسْتَحَلّوا
دِمَاءَ الأَنْبِيَاءِ المُقسطِيْنَا
وَمَا تَركُوا عَلَى الأَيَّام شَرًّا
وَمَا حَفِظُوا لِعَهْدِهِمُ يَمِينَا
أَيَزْعُمُ هَؤُلاءِ إِلَيْكَ قُرْبَى
رُبَى الأَقْصَى... ! بَرِئْتِ وَطِبْتِ دِيْنَا
وَطِبْتِ رُبَى وَسَاحَاتٍ وَدَاراً
وَأَنْسَاماً جَرَيْنَ هَوىً وَلِيْنَا
وَشُطْآناً نَثَرْنَ عَلَى يَدَيْهَا
لآلِئَهَا وَزَيَّنَّ الجَبِيْنَا
وَوُدْيَاناً جَمَعْنَ لَهَا عُقُوداً
وَفَتَّقْنَ الشَّذَا واليَاسَمِيْنَا
كَأَنَّ عَلَى مَبَاسِمِهَا دُعَاءً
وَتُغْضِي فِي تَبَتُّلِهَا الجُفُوْنَا
إِلَهِي... أَيْنَ أَبْنَائِي وَقَوْمِي
وَمَنْ رَفَعُوا عَلَى شَرَفٍ حُصُونَا



مَـشَـاعِـلُهَا مِـنَ الإِيْمَانِ وَقْـدٌ

أَضَـاءُوا دُونَـهَـا الـدَّرْبَ الأَمِـيْـنَـا

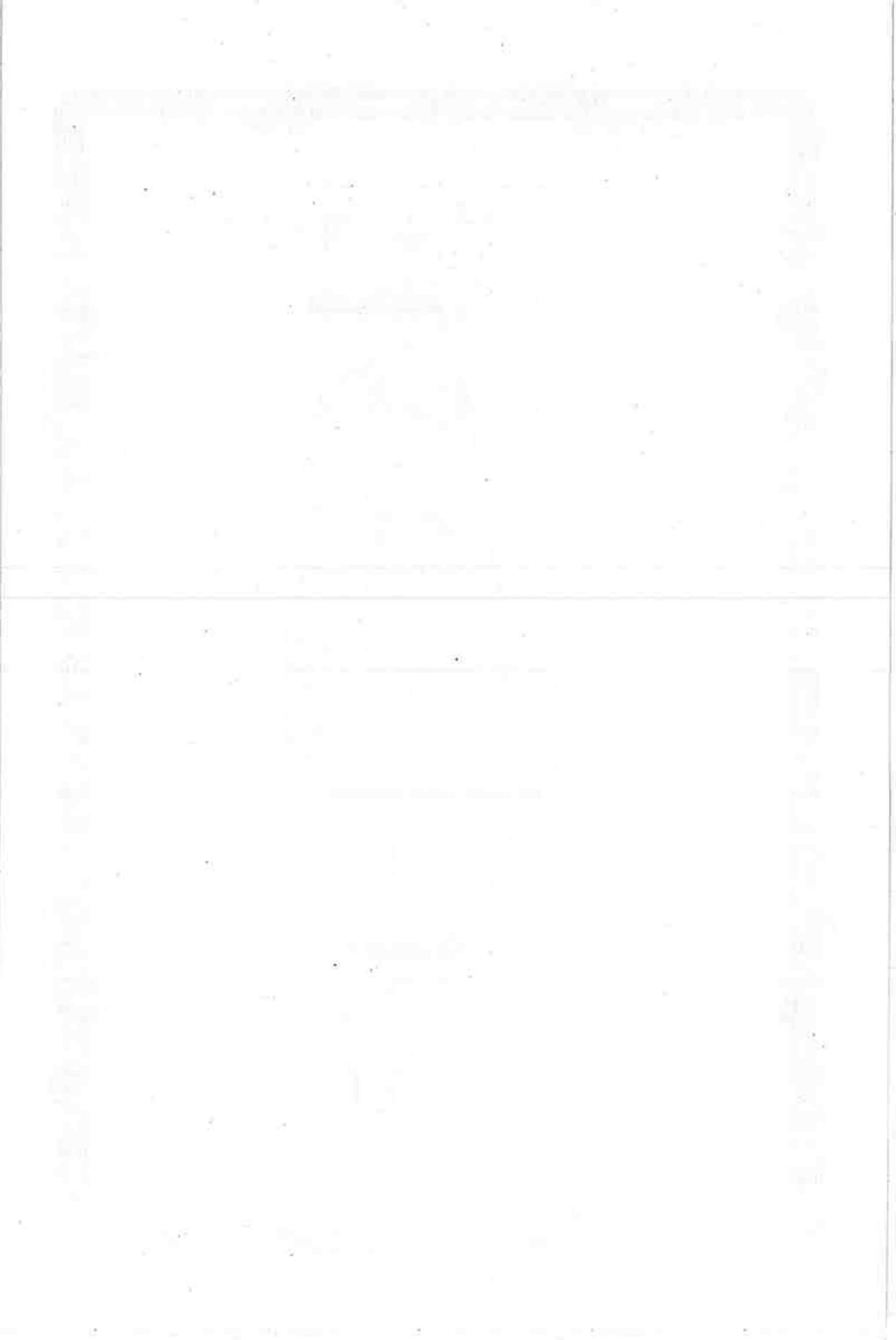
سَـأَنْتَـظِـرُ اللَّـيَالِـي لاَ أُبَـالِـي

لأَلْقَى فِـيْـهِـمُ النَّصْـرَ الـمُـبِـيْـنَا

يَظَـلُّ صَـدًى مِـنَ الإِسْـرَاءِ عَهْداً

يُحَـرِّكُ بَـيْـنَ أَضْلُعِـيَ الحَـنِـيْـنَا

١٩٧٨م



الفصل الثاني

صراع

في المخيمات في لبنان

١- جولة في تل الزعتر

٢- زغردة الخيام



جــولة

في تل الزعتر(1)

تل الزعتر من مخيمات الفلسطينيين في لبنان يقع في ضاحية شرق بيروت تتبع جبل لبنان. وشماله الدكوانة، وجنوبه الحازمية، وشرقه بيت مري وبرمانة، وغربه سنُّ الفيل. وكان من أوائل المخيْمات الفلسطينية التي تعرضت لهجوم بعد هجوم لسنين طويلة. وكلُّ هجوم كان يحطِّم معاني حضارة الإنسان وقيمه. وقد تعرض تلُّ الزعتر منذ العاشر من حزيران (يونيه) تقريبا سنة ١٩٧٦م، لأكثر من ثمانية وسبعين هجوماً، واستمر حصاره أكثر من خمسة وخمسين يوماً، يقود الحصار والهجوم حزب الأحرار الوطنيين الذي يرأسه كميل شمعون، ثم انضمّت إليهم الكتائب، وسائر التنظيمات المسيحية في لبنان مثل حُرَّاس الأرز والتنظيم، ثم ساندتهم قوى أخرى. وقد سقط التل بعد معارك دامية كشفت عن بطولات أذهلت العالم، وكشفت عن ثلاثة آلاف وخمسمائة قتيل من سكان تل الزعتر، كما أنّ عائلات كثيرة أُبيدت بكاملها. سقط تل الزعتر في ١٢ آب (أغسطس) ١٩٧٦م. فإلى ملحمة تلِّ الزعتر.

---

(١) ديوان موكب النور، للمؤلف: (ص١٣).



جــولة
في تل الزعتر

رُدَّ السُّيوفَ إِلَى الأَغْمَادِ وانْتَظِرِ
مَا يَنْقُلُ «التَّلُّ» مِنْ هَوْلٍ وَمِنْ خَبَرِ

هُنَاكَ... دُنْيَا الْمُرُوءَاتِ الَّتي انْتَفَضَتْ
عَلَيْكَ في وَثْبَةٍ وَهَّاجَةِ الظَّفَر

جَرَحْتَ أَطْرَافَ لِيْنٍ مِنْ إِبَاءَتِها
في لَمْحَةٍ مِنْ أَنَاةِ الصَّبْرِ والحَذَرِ

وَللإِبَاءَةِ لِيْنٌ وَهْيَ شَامِخَةٌ
عَلَى رَعَادِيدَ مَالُوا أَوْ عَلَى غُدُرٍ (١)

حَتَّى انْجَلَى صَبْرُهَا عَنْ وَمْضٍ مُحْرِقَةٍ
مِنَ الصَّوَاعِقِ أَوْ خَطْفٍ مِنَ الشَّرَرِ

وَعُدْتَ هَرْوَلَةً حَيْرَانَ مُنْكَمِشاً
تَلُوذُ في عَثَرَاتِ الذُّلِّ والصَّغَرِ

---

(١) جمع غدور وهو كثير الغدر.



يا «ابنَ الْكتَائِبِ»...! وَيْلٌ منْ مُجالَدةٍ

تَرُومُهـا! فانظُرِ الأَحْـداثَ واعْتَبِرِ

رُدَّ السُّيـوفَ عَـلى أثْلامِهَا طُوِيت

إنْ لَمْ يَعُدْ لِحَيَاءٍ فِيكَ مِـنْ أثَرِ

هِيَ الـمُرُوءَة! خَجلَى... كُلَّمَا نَظَرَتْ

إِلَيْكَ أغْضَتْ بِطَرْف عَنْكَ مُنْكَسِرِ

هِـيَ الرُّجولَةُ غَضبى...! كُلَّمَا التَفَتَتْ

إِلَـيكَ مالَتْ بِعَـيْن السُّخْطِ والكَدَرِ

فَـلاَ السُّيُوفُ الَّتـي جَرَّدْتَ مُنْجِيَةٌ

وَلاَ الـوُجُـوهُ الَّتي أَخْفَـيْتَ بالْعُـذْرِ

مَـضَـى بِأَقْنِعَـةٍ خَـرْسَـاء مُسْـتَتِراً

خَلْفَ الصَّلِيب غَرِيبُ الوَجْـهِ والصُّوَرِ

أَزِحْ صَلِيبَكَ....! نَنْظُرْ أَيَّ مُقْتَحِمٍ

عَـلَى الحِمَى، أَوْ دَعِيٍّ كاذِبٍ أَشِرِ

---

(١) جمع عذير وهو النَّصير.



مَا بَيْـنَ كُـفْرٍ صَـرِيحٍ فِي عَدَاوتِهِ

وَبَيْنَ دَسٍّ عَلَـى الأَدْيَـانِ مُـعْتكِرِ

* * *

«مُـخيَّمَ التَّـلِّ» كَم وَشَّيْتُ ناحِيَةً

وَكَمْ نَثَرْتَ عَلَـى الأَطْلَالِ مِـنْ زَهَرِ

تَنَفَّـسَ الصُّبْـحُ وَالآمَـالُ زَاهِرَةٌ

تَفَتَّحتْ عَنْ شَـبَابٍ زَاهِـرٍ عَطِرِ

رَعَـيْتَهُ زَمَـناً فـي ظِـلٍّ حَانِيَةٍ

مِنَ الضُلُوعِ وَشَوْقٍ بِالْـمُنَـى خَـضِرِ

غَـذَوْتَهُ مِـنْ لِبَـانِ الحَـقِّ مَكْرُمَةً

هَدْيَ الحَنِيفَةِ فـي قَلْـبٍ وَفـي بَـصَرِ

نَمَا.... ! فَكَانَ الفتَى ! أَنْظَارُهُ عَلِقَتْ

هُنَاكَ.. بالرَّوْضِ، بِالسَّـاحَاتِ بالنَّهرِ

بِزَقْزَقَاتٍ عَلَـى الأَغْـصَـانِ لاغِيَـةٍ

بِجَدْوَلٍ ضَـاحِكٍ بِـالْوَرْدِ مُـؤْتَزِرِ



بِسَاحَةِ المَسْجد الأَقْصَى ورابيَةٍ
وَمُرْتقًى مُعْشِبٍ مِنْهَا وَمُنْحَدَرِ
بِالْوَحَي، بِالْنُّورِ، بِالتَّارِيخ مِنْ حِقَبٍ
زَخَّارَة بِعَطَاءِ الحَقِّ، بِالسِّيَرِ
يَهُزُّه الشَّوْقُ والتَّحْنَانُ مُضْطَرِباً
إِلَى حَنَانٍ وَشَوْق في الرُّبَى نَضِرِ
هُنَاكَ... تَختَصِرُ الأَزْمَانَ نَظْرَتُهُ
وتَلْتَقِي عُصُرُ التَّارِيخِ بِالْعُصُرِ
هُنَاكَ... أَنْظَارُهُ ظَلَّتْ مُعَلَّقَةً
يُقَلِّبُ الطَرْفَ فِي دُنْيَا مِنَ الذُّكَرِ
وَظَهْرُهُ لِذَوِي قُرْبَاهُ مُنْكَشِفٌ
عَلَى مَوَاثِيقَ أَغْنَتْهُ عَنِ الحَذَرِ
دَوَّتْ تُحِيطُ بِهِ أَصْدَاءُ نَازِلَةٍ
وَأَطْبَقَتْ حَوْلَهُ مَحْمُومَةُ النُذُرِ
هَزَّتْهُ وَانْتَزَعَتْهُ فَاسْتَدَارَ لَهَا
مُسْتَبْشِراً بِقَضَاءِ اللهِ والْقَدَرِ



نَادَتْـهُ رَابِيَـةٌ مِـنْ خَلْـفِ رَابِيَـةٍ

لِـمَ الْتِفَاتُكَ الْغَضْبى...؟ إِلى خَطَرٍ...

غـداً سَـأَلْقَاكَ فِي بُشْرَى مُعَطَّرَةٍ

مِـنَ الشَّهَادَةِ أَوْ فِي زَهْوِ مُنْـتَـصِرِ

وعْداً مِنَ اللهِ إِحْـدَى الْحُسْنَيَيْنِ لَنَا

وَوَعْدُهُ الْحَقُّ..! جَدّ الأَمْرُ... فانْتَظِري

وَهَبَّ مِـنْ خَيْمَةٍ مُلْتَاعَةٍ وَمَضَى

لِخَنْدَقٍ مائِجٍ في الـدَّارِ مُصْطَبِرِ

* * *

تَفَجَّـرَ الـحِـقْدُ أَهْوَالاً مُدَمِّـرَةً

تَمُورُ أَحْشَاؤُهَا مَوْراً عَلى سُعُرِ

تُـلْقِي بِـهِ حُمَماً سوداءَ قَاتِمَـةً

وَتَنْجَلي عَنْ لَظىً في الـدَّارِ مُسْتَعِرِ

يَطْوِي النَّهَارَ لَيَالٍ مِنْ دَوَاكِنِهَا

وَمِـنْ سَوَادٍ عَـلى الآفَاقِ مُنْتَشِرِ



وَأَطْبَقَتْ لُجَجُ الأَحْقَادِ وَانْتَشَرَتْ
تُقِيمُ حَوْلَكَ مِنْ سُورٍ وَمِنْ جُذُرِ
وَمَا دَرَتْ أَنَّ عِنْدَ اللهِ كَاشِفَةً
لِكُلِّ مُنْغَلِقٍ مِنْ كَيْدِهَا القَذِرِ

* * *

صَبَرْتَ في خَنْدَقٍ دَامٍ تَشُقُّ بِهِ
دَرْباً عَلَى صُدُقٍ للهِ أَوْ صُبُرِ
أَراعَكَ الطِّفْلُ لَمْ تَدْفَعْ بَراءَتُهُ
ولا ابْتِسَامَتُهُ وَحْشاً مِنَ البَشَرِ
جَرَى لِيَلْقَاهُ مُغْتَرّاً بِطَلْعَتِهِ
يَظُنُّهُ جَارَهُ لِلمَأْزَقِ الخَطِرِ
«عَمَّاهُ» مَا لَمَستْ أَطْرافَ مَرْحَمَةٍ
ولا حَنَانَ قَرِيبٍ أَوْ أَخِي حَضَرِ
فَحَزَّهُ وَرَمَى الأَشْلاءَ وَاخْتَلَطَتْ
مَعَ ابْتِسَامَتِهِ أَصْدَاءُ مُحْتَضَرِ



أمِ الصَّبَايَا إِذَا هَبَّتْ أَوْ ابْتَدَرَتْ
عَزَائِماً فِي ظِلاَلِ الحُسْنِ والْخَفَرِ
تَصُوغُ مِنْ حَلَبَاتِ الْمَجْدِ حِلْيَتَهَا
وَتَنْتَقِي لِلَيَالِيهَا مِنَ الدُّرَرِ
ضَفَائِرُ الغَارِ مَالَتْ فِي تَمَوُّجِهَا
عَلَى المَيَادِيْنِ ظِلاً غَيْرَ مُنْحَسِرِ
حَنَتْ لَهَا خَطَرَاتُ الغِيدِ وَاضْطَرَبَتْ
لِذِكْرِ أَمْجَادِهَا خَفَّاقَةُ الأُزُرِ
أمِ الثَكَالَى وَقَدْ أَلْقَتْ عَلَى غُصَصٍ
أَفْلاذَهَا فَتَلَقَّتْ غُصَّةَ الْخَبَرِ
أمِ الْيَتَامَى عَلَى حَدِّ الظُّبَا انْتَشَرَتْ
أَشْلاؤُهَا قِطَعاً مَوْصُولَةَ الصُّوَرِ
صَبْراً فَتَى «التلِّ» ! كَمْ أَطْبَقْتَ مِنْ هُدُبٍ
عَلَى شَهِيِّ الْمُنَى فِي دَرْبِكَ الوَعِرِ
حَتَّى جَلَوْتَ عَلَى الْمَيْدَانِ صُوْرَتَهَا
نَدِيَّةَ الذِّكْرِ أَوْ مُخْضَلَّةَ العُمُرِ



كتائِبَ الغَدْرِ! لا رَوَيْتِ حَاقِدَةً
مِنَ النُّفوسِ وَلا أَشْبَعْتِ مِنْ نَظَرِ

أَمَامَكِ «التَّلُّ» رَوِّي من مشاهِدِه
طَرْفاً يَعُدْ خَاسِئاً بِالعَارِ والكَدَرِ

ظَنَنْتِهِ هَيِّناً لانَتْ مَسَارِبُهُ
فَارْتَدَّ كَالطَّوْدِ يَرْوِي آيَةَ العِبَرِ

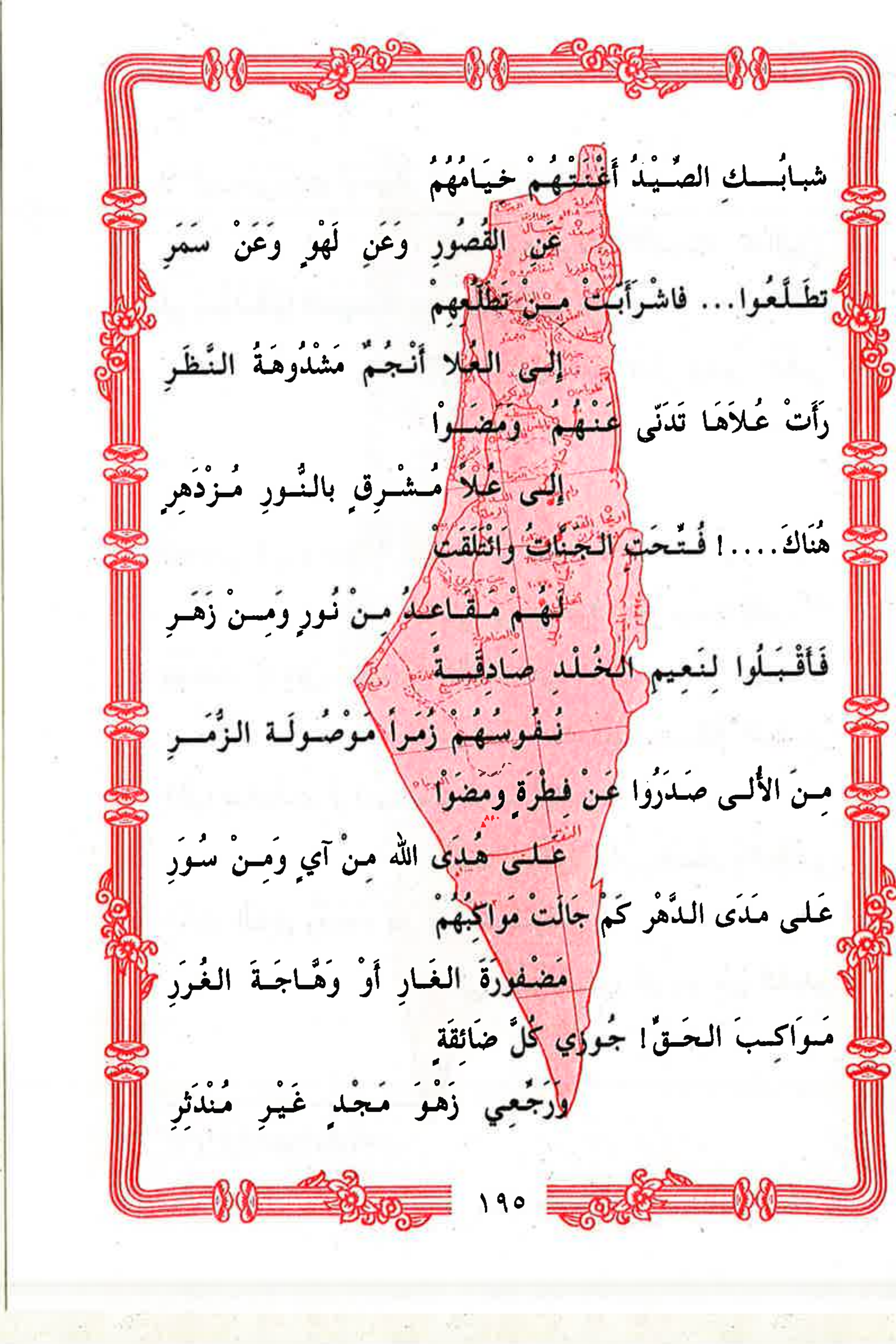
كَمْ جَوْلَةٍ حَشَدَتْ فيهَا ظُنُونُهُمُ
هَوْلاً مِنَ الْكِبْرِ عَادَتْ عَوْدَ مُنْدَحِرِ

تَجَرَّعُوا حَسَرَاتٍ مِنْكَ قاتِلَةً
وَلَوَّعَتْهُمْ لَيالي النَّحْسِ والنُّكُرِ

* * *

صَفَائِحَ الزَّنْكِ! كَمْ أَفْنَيْتِ قُنْبُلَةً
وَكَمْ أَبَيْتِ عَلى الأَحْدَاثِ والغِيَرِ

نَشَرْتِ مِنْ ظِلِّكِ المُمْتَدِّ أَجْنِحَةً
تَضُمُّ شَارِدَةَ الآمَالِ والأُثُرِ



شبابُــكِ الصِّــيْدُ أَغْنَتْهُــمْ خيَامُهُمُ
عَنِ القُصُورِ وَعَنِ لَهْوٍ وَعَنْ سَمَرِ
تطَـلَّعُوا... فاشْرأَبَّتْ مِــنْ تَطَلُّعِهِمْ
إلــى العُلا أنْـجُـمٌ مَشْدُوهَةُ النَّظَـرِ
رأَتْ عُـلاَهَا تَدَنّي عَنْهُـمُ وَمَضَــواْ
إلى عُلاً مُـشْـرِقٍ بالنُّـورِ مُـزْدَهِرِ
هُنَاكَ....! فُـتِّحَتِ الـجَنّاتُ وَانْطَلَقَتْ
لَهُــمْ مَـقَـاعِـدُ مِـنْ نُورٍ ومِـنْ زَهَـرِ
فَأَقْبَـلُوا لِنَعِيمِ الـخُـلْدِ صَادِقَـةً
نُـفُوسُهُـمْ زُمَراً مَوْصُـولَـةَ الزُّمَــرِ
مِـنَ الأُلــى صَدَرُوا عَنْ فِطْرَةٍ وَمَضَواْ
عَـلَـى هُدَى اللهِ مِنْ آيٍ وَمِــنْ سُوَرِ
عَلى مَدَى الدَّهْر كَمْ جَالَتْ مَوَاكِبُهُمْ
مَضْفُورَةَ الغَـارِ أَوْ وَهَّـاجَـةَ الغُرَرِ
مَـوَاكِـبَ الـحَـقِّ! جُوزِي كُلَّ ضَائِقَةٍ
وَرَجِّعِي زَهْـوَ مَـجْـدٍ غَـيْـرِ مُنْدَثِرِ



لاَ تَحْزُنَنَّكِ أَرْحَامٌ إِذَا قُطِعَتْ

حِيناً وَصَيَّرت الآسَادَ كـالهِرَرِ

لم يَحْفَظُوا العَهْدَ فَارْتَدَّتْ عَوَاقِبُهُمْ

إِلى مَزَالِقَ مِنْ نَارٍ وَمِنْ حُفَرِ

* * *

تَجُرُّ في وَحْشَةِ الظَّلْمَاءِ ذِلَّتَهَا

عَلَى صَدَى نَازِفٍ مِنْ جُرْحِهَا الغَبِرِ(١)

نَهَضْتَ يَا «تَلُّ» فَانْفَضَّ الظَّلاَمُ عَلَى

كَوَاكِبٍ نَثَرَتْهَا هَالَةُ القَمرِ

قَالُوا سَقَطْتَ أَو استَسْلَمْتَ مَا صَدَقُوا

وأَنْتَ لِؤْلُؤَةُ الأَمْجَادِ والظَّفَرِ

نِلْتَ الَّذِي رُمْتَهُ، بَلْ جُزْتَهُ شَرَفاً

عَلَى عُلُوٍّ الذي تَرْجو مِنَ القَدَرِ

---

(١) الجرح الذي لا يزال ينتفض.



وبَاءَ غَيْرُكَ.... ! لَمْ يَظْفَرْ بمكْرُمَةٍ
تَخطَّفَتْهُ الدَّنَايَا خَطْفَ مُهْتَصِرِ
هَوى وَخَلَّف أشْلاءً مُمَزَّقَةً
مِنَ المُرُوءَةِ بَيْنَ النَّابِ والظُفُرِ
يَهْوي فَتعْلُو، وَيَسْتَخْذي فَتَنْهَضُ مِنْ
عُلاً على وَثَبَاتٍ للعُلا حُمُرِ

* * *

وَاهاً عَلى أُمَّةِ الإسْلاَمِ صَيَّرَها
حُبُّ الحَيَاة غُثَاء السَّيْلِ والنَّهَرِ
مَالُوا إلى عَرَض الدُّنْيَا وَخُضْرَتِها
وأَدْبَرُوا عَنْ جِهَادٍ مُورِقٍ خَضِرِ
مُدَّتْ لَهُمْ بُسُطُ الدُّنْيا مُرَفَّهَةً
عَلى فِرَاشٍ نَديٍّ الطِّيْبِ والسُّتُرِ
وأَسْلمُوا لِلْعِدَى أَعْنَاقَهُمْ ذُلُلاً
عَلى شِفَارٍ تُدَمِّي رَعْشَةَ الخَورِ



يَا أُمَّةً عَرْبَدَتْ أَهْوَاؤُهَا فَجَرَتْ
عَلى أَعَاصِيرِهَا مَجْنُونَةَ السَّكَرِ

مَاتَتْ بِهِمْ هِمَمُ الأَبْطَالِ وَانْطَلَقَتْ
عَلى السُّرَى هِمَمُ الأَشْبَاهِ وَالصُّوَرِ

رَمَتْ بِهِمْ عَنْ سُرُوجِ العِزِّ أَحْصِنَةٌ
وَمَرَّغَتْهُمْ عَلى الأَوْحَالِ والعَفَرِ

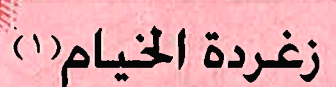
مَسَارِحَ الشَّرقِ... ! كَمْ أَخْرَجْتِ دَامِيَةً
مِنَ المَآسِي وَكَمْ مَوَّهْتِ مِنْ خَبَرِ

تَحَرَّكَتْ خَلْفَكِ الأَشْبَاحُ صَامِتَةً
وَأَنْطَقَتْ «بَبَغَاوَاتٍ» مِنَ البَشَرِ

وَحَرَّكَتْ مِن دُمىً لانَتْ عَلى يَدِهَا
وَدُونَهَا الشَّعْبُ في تِيهٍ وَفِي خَدَرِ

مُصَفِّقاً لِبُطُولاتٍ مُزَيَّفَةٍ
بِكُلِّ لَوْنٍ مِنَ الأَلْوَانِ مُبْتَكَرِ

١٣٩٧هـ/١٩٧٧م



زغردة الخيام(١)

تعرضت مخيمات الفلسطينيين في لبنان لهجوم ومجازر. ولعلّها ابتدأت في «تل الزعتر» سنة ١٩٧٦، ثم امتدت إلى «صبرا» و«شاتيلا» سنة ١٩٨٢م، ثم معارك شديدة سنة ١٩٨٥م حول صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة، ثم كان الحصار الطويل للمخيمات سنة ١٩٨٦م، حصاراً دام أكثر من خمسة أشهر حتى كتابة هذه القصيدة للمخيمات: برج البراجنة، وصبرا وشاتيلا في بيروت، وعين الحلوة والميّة وميّة في صيدا، والرشيدية في صور، وغيرها. ولقد حملت الصحف أخباراً تشير إلى أن الناس كانوا يسألون الفتوى الشرعية لجواز أكل الجرذان والقطط وغيرها. لفتة إيمانية على غصات الكرب وحشرجات الموت.

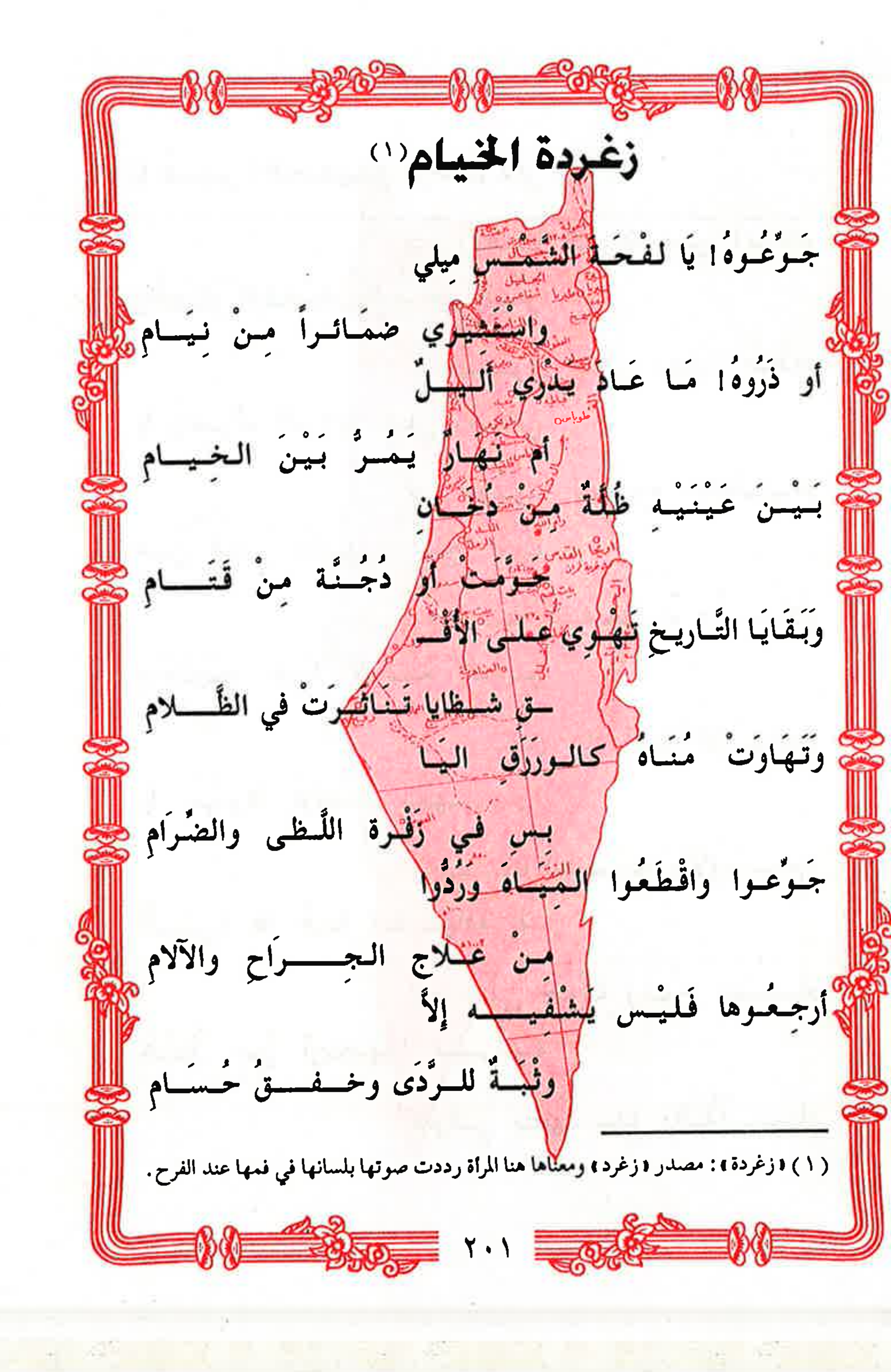
أهدي هذه الأبيات إلى كل مؤمن يقاتل في سبيل الله لينصر الحق ويدحض الباطل.

---

(١) نشرتها عكاظ في عددها (٧٦٢١) في ٣/٩/١٤٠٧هـ (١٠/٥/١٩٨٧م)، والشرق الأوسط في عددها (٣١٥٠) في ١٨/١١/١٤٠٧هـ (١٤/٧/١٩٨٧م). وجريدة الرأي العام الكويتية في عددها (٨٣٨٥) في ٥/٨/١٤٠٧هـ (٣/٤/١٩٨٧م)، ومجلة البلاغ في عددها (٨٩٦) في ١٨/١٠/١٤٠٧هـ (١٤/٦/١٩٨٧م)، ومجلة الإصلاح في عددها (١٢٠) في جمادى الأولى ١٤٠٨هـ (١٩/١/١٩٨٨م)، ومجلة الرائد في عددها (١٠١).



* نقلًا عن كتاب مذابح المخيمات ، لمؤلفه محمد جلاء إدريس ـ الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م ـ دار عبد الرحمن الناصر للنشر والتوزيع ـ الرياض .



زغردة الخيام[1]

جَـوِّعُـوهُ! يَا لَفْحَـةَ الشَّمْـسِ مِيلي
واسْتَثيري ضمَـائـراً مِـنْ نِـيَـامِ

أو ذَرُوهُ! مَـا عَـادَ يدْري أَلَيْـلٌ
أم نَهَـارٌ يَـمُـرُّ بَيْـنَ الخِـيَـامِ

بَـيْـنَ عَـيْنَـيْـهِ ظُلَّةٌ مِـنْ دُخَـانٍ
حَـوَّمَتْ أو دُجُـنَّة مِـنْ قَـتَـامِ

وَبَقَايَا التَّـاريخِ تَهْـوِي عَلـى الأُفْـ
ـقِ شَـظَايا تَـنَاثَـرَتْ في الظَّـلامِ

وَتَـهَاوَتْ مُـنَـاهُ كـالـوَرَقِ الـيَا
بِسِ في زَفْـرة اللَّظى والضِّرَامِ

جَـوِّعـوا واقْطَعُـوا الـمِيَـاهَ ورُدُّوا
مِنْ عِلاج الجِـراَحِ والآلامِ

أرجِعُـوها فَلَـيْس يَشْفِيـه إلاَّ
وثْبَـةٌ للـرَّدَى وخَـفْـقُ حُسَـامِ

---

(١) «زغردة»: مصدر «زغرد» ومعناها هنا المرأة رددت صوتها بلسانها في فمها عند الفرح.



يَا هَديرَ (الحَديدِ) يَزْحَفُ بالمَوْ

تِ وقصفَ النِّيرانِ مِنْ أعْلاَمِ

وانْهيَارَ الفَضَاءِ بالحُمَمِ السَّوْ

داءِ يَهْوي عَلَى بَقَايَا حُطَامِ

يا زُحوف الرَّدَى أَطلِّي وهَاتي

مِن وَقُودٍ لِمَعْمَعٍ ولِطَامِ

مِنْ فتىً مُقْبلٍ وشيخ نزالٍ

وفَتَاةٍ تَلَفَّعَتْ وَغُلاَمِ

ورَضِيعٍ حَبَا لمَلْحمَةِ المَوْ

تِ ونَادَى يَا أُمَّةَ الإِسْلاَمِ!

يَا عُهُوداً تَوَثَّقَتْ بِعُهُودٍ

وحَنَانَ التاريخِ والأرْحَامِ!

أَقْبلي! ها هُنَا الشَهادَةُ للـ

ـهِ عَلَى جَوْلَةٍ ومَوْجِ حِمَامِ

عَبَقٌ مِنْ أريجِهَا نَشَرتْهُ

لِوَفِيٍّ بِعَهْدِهِ والذِّمَامِ



شَــرَفُ الــدَّهْــرِ أنْ يَــهُــبَّ رِجالٌ

لِمَيَادِينِهَا وَضَـرْبِ الـهَــامِ

يا لَـهِـيْـبَ الكُـبُــودِ مِنْ ظَمَــأ دا

مٍ وحَـرِّ الأشْـوَاقِ مــن إقْـدَامِ

ظمــأٌ مَـزَّق الشِّفَاهَ فَغَابَــتْ

بينها صَـرْخَـةُ النِّـدَاءِ الدَّامــي

صَـرْخَــةٌ لَـم تَـزَلْ تدَافَعُ فِي الصَّـدْ

رِ عَلَى شوْقِـهِ الـكبيـرِ الظَّامي

لمْ تـزَلْ تَدْفَـعُ الـحَـيَـاةَ وتَسْري

فِي عُـروقٍ خفَّاقَةٍ وعـظَــامِ

جَـوِّعُــوه! فمـا يـزَالُ لَـدَيْـه

نَـفَـسٌ عـاصِـفٌ ولَـفْحُ ضِــرَامِ

واقْـطَعُـوا المـاءَ! زوَّدَتْــه الليـالي

بَلَلاً مــن صَــلاتِـهِ والـصِّيـامِ

وَخُـشُــوعٍ يُفَـتِّـح الدَّرْبَ نُـوراً

وأمَـانـاً لِـزَاحِـفٍ مِـقْــدَامِ



لمْ تَـزلْ في عُـروقِـه غَضْبَـةُ الحـ
ـق وفي قَـلْبِـهِ إباءُ الكِـرَامِ

بَـيْـنَ كفَّـيْه شُعْلَـةٌ مِـنْ يَقينٍ
أشْرَقَـتْ في دُرُوبِـهِ والظـلامِ

بَيْـنَ جَنْبَيْهِ لَهْفَةُ الشَّوْقِ للنّصْـ
ـر وأنْـدَاءُ فَـرْحَـةٍ وابْـتِـسَـامِ

لا يُـبالي أطَـالَ أم قَصُـرَ الـدَّرْ
بُ، خُطاهُ مَشَاعِـلُ الأيّـامِ

* * *

جَـوَّعُوه وحَاصَرُوا مِنْ خِيَـامٍ
هِـيَ أقْسَـى مِـنْ قَـلْعَةٍ وإكَـامِ

يسْـألُون الفَـتْوى! أيُؤكَـلُ جُـرْذَا
نٌ! حَـلالٌ يَـكُـونُ أمْ مِـنْ حَـرَامِ؟

يا لإشْـرَاقَـةِ اليَـقِـيْنِ مع الكـرْ
بِ وبَـلْـوَى الجـرَاحِ والأسقَـامِ



يا إباءَ الخِيامِ، يا شَرَفَ الإيـ
ـمانِ، يَا زَهْوَةَ الفِعَالِ العِظَامِ
إنْ صَدَقْتُمْ للهِ كُنْتُمْ رِجَالاً
رفَعَتْ أُمَّةً بِغَيْرِ كَلامِ
لَيْسَ يُجْدِي وَقْعُ الحُسَامِ إذا ما
كَانَ في غَيْرِ عِزَّةِ الإِسْلامِ
إنْ يَكُنْ صَبْرُكَ الشَّدِيدُ لغيرِ اللـ
ـه تَرْجِعْ بِذِلَّةٍ وَمَلامِ
كَيْفَ ترْجُو في السَّاحِ مِنْ غَيْرِهِ النَّصْـ
ـرَ وَترضى غَوايَةَ الأقزامِ؟!
كَيْفَ تَمْضِي بغَيْرِ هدْيٍ مِن اللـ
ـه وَتَثُورُ في حُلْكَةٍ وَصِدَامِ

* * *

حَاصِروهُ وَضَيِّقُوا مِنْ حِصَارٍ
وامْنَعُوا عَنْهُ مضْغَةً من طَعَامِ



واقطَعُوا المـاءَ! فالليَالي عِـطَـاشٌ

سَوفَ تُـرْوَى دَماً وَكـأْسَ حِـمَامِ

وَانْـثُـروا بَـسْـمَـةَ الطُـفُـولَـة أشـلا

ءً تَـرَامَـتْ وَمَـزِّقُـوا مِـنْ خِـيامِ

واسْـحَـقُـوها مَـعَ الجَمَاجِمِ، صُبُّوا

مِن دمَـاءٍ عَـلَـى الحصَى والـرَّغَامِ

وَاجْـمَـعُوها مَـعَ الأنيـنِ وَتَـنَـادُوا

يَـا وُحُـوش الغَـابَـاتِ والآجَـامِ

أنْـتِ أحْـنَـى عَـلَـى ابْن آدَمَ مِـنْ أهْـ

ـلٍ وقُرْبَـى ودَعْـوَةٍ مِنْ وِئَـامِ

وَارْفَـعِـيهَـا هَـديَّـةً لِـرِجَـالٍ

بَـاقَـةً مِـنْ (حَـضَـارَةٍ) و (سَـلاَمٍ)!

لِرِجَـالٍ هُـنـاكَ فـي مَجْلِسِ الأَمْـ

ـنِ (كِـرَامٍ) وَثُـلَّـةٍ مِـنْ (عِـظَـامِ)

(لِرِجَالٍ) هُنَـاكَ تَقْـبَـعُ فِي الـوَحْـ

ـلِ وفـي مُـنْـتِنٍ مِـنَ الإجْـرَامِ



يَا حَضَارَاتُ وَلولي واسْتَغِيثي

مِنْ ذِئَابٍ وعُصْبَةٍ مِنْ طَغَامِ

* * *

أَيُّ مَكْرٍ رَمَاهُ في الدَّرْبِ أَلْقَا

هُ غَرِيباً مُشَتَّتَ الأَحْلامِ

مَنْ تُرى سَاقَةُ لِهذي المَيَادِيـ

ـنِ عَلَى مَهْمَهٍ بَعِيدٍ دَامِ

مَنْ تُرَى قَطَّعَ الوَشَائِجَ مِنْ ديـ

ـنٍ وَقُرْبَى الأَخْوَالِ والأَعْمَامِ

إِنَّهُ نَازِحٌ هَوَاه «فِلَسْطِيـ

ـنُ» وَخَفْقُ السُّفُوحِ والآكَامِ

إِنَّ مَيْدَانَهُ هُنَاكَ «فِلَسْطِيـ

ـنُ» رِبَاطٌ لجَوْلَةٍ والتِحَامِ

أيُّ مَكْرٍ يَحُوكُ في اللَّيْلِ أَشْرَا

كاً وَيَرْمِي حَبَائِلاً مِنْ أثَامِ؟!



أهُـنَـا مِـنْ دَمِ المجَازر أنْـهَا
رٌ وهَـذي دَعَـاوَةٌ مِـنْ سَـلام؟!

أيُّ سِلْـم يُـرَادُ يَا قَـوْمُ أمْ هـ
ـذا خِـدَاعُ الألْبَـاب والأفْـهَـامِ؟!

مَـنْ تُـرَى جَـمَّـعَ «الضَّحَـايَا» عَلَى
السَّاحِ وأعْطَى السِّكِّيْنَ لِلَّحَّامِ؟!

انْـزِعُـوا عَـنْكُـمُ القِنَاعَ لِنَلْقَـى
مَـا وَرَاءَ الأسْتَـارِ والأوهَـامِ

يَا لِـنَجْوَى الأشْبَاحِ في عَتْمَةِ اللـ
ـيل ونَجْـوَى المُـؤامراتِ الدَّوامي

يَا لِـقَـاء (الكِبَار) مُؤْتَمـرَ الوَهـ
ـنِ ودَعْـوى هـزيمـةٍ ووئـامِ

مَـنْ تُـرَى مَثَّـلَ (اللُّـجُـوء) لَدَيْـهِ
في مَيَـادين خُطْبَـةٍ وكَـلامِ

احملوا الطِّفْل والرَّضِيع وشَيْخـاً
وبَـقَـايا الأطْـرَافِ والأجْـسَـامِ



ودَعوها لِكيْ تُفاوضَ عَنَّا
هيَ أوْلَى مِنْ فَارس وَهُمَامِ

فَعَسَى أن تُفيقَ فيه قُلُوبٌ
وَعَسَى أن يُفيقَ بعضُ النِّيَامِ

* * *

يَا رِجالَ الخِيَامِ صَبْراً فَلَسْتُمْ
وَحْدكم في أسىً وَشرٌّ مُقَامِ

لَسْتُمُ وَحْدَكُم ضَحَايا حِصَارِ
يَا ضَحَايا الهَوَانِ والإِجْرَامِ

كُلّنَا يَا خِيامُ أسْرَى حِصَارِ
مُطْبِقٍ حَوْلَنَا وأسْرَى حِزَامِ

مِنْ رُبى مَشْرقٍ تناءَى وَغَرْبٍ
يترامَى ومِنْ رَوَابي الشَّامِ

طَوَّقَتْنَا مِنَ الأعَادي حُشُودٌ
وأحَاطَتْ بِنَا دوَاهِي الخصَامِ



وَصَنَعْنَا القُيُودَ مِنْ رَعْشَةِ الخَوْ
فِ وَمِنْ شَهْوَةٍ ومِنْ أحْلامِ
وَرَكَعْنَا بِهَا أذِلاَّءَ نَسْتَجْدِ
ي عَطَاءَ الأنْصَابِ والأزْلامِ
يَا لِهذا الحِصَارِ طَالَ مَدَاهُ
خَلْفَ آفاقِه حُشُودُ الظلامِ

* * *

أوقِدي يَا عُصُورُ مِنْ شُعلَةِ الـ
ـحَقِّ مَنَاراً مِنْ جُوعِهِ والأُوَامِ
سَوْفَ تَعْلُو عَلَى البُرُوجِ بُرُوجٌ
مِنْ جهَادٍ وَقَلعَةٌ مِنْ رُكَامِ
سَوْفَ نَبنِي مِنَ الجَمَاجِمِ أبرَا
جاً وَنُعْلِي شَوَاهِقَ الأعْلامِ
ثُمَّ تَبْقَى يَا «بُرْجُ»(١) أعْلَى وأقسَى
بَيْنَ أنْشُودَةٍ وَبَيْنَ حِمَامِ
مِنْ رِجَالٍ تَمْضِي على العَهْدِ لِلّـ
ـهِ ومِنْ صَادِقٍ وَمِنْ ضِرْغَامِ

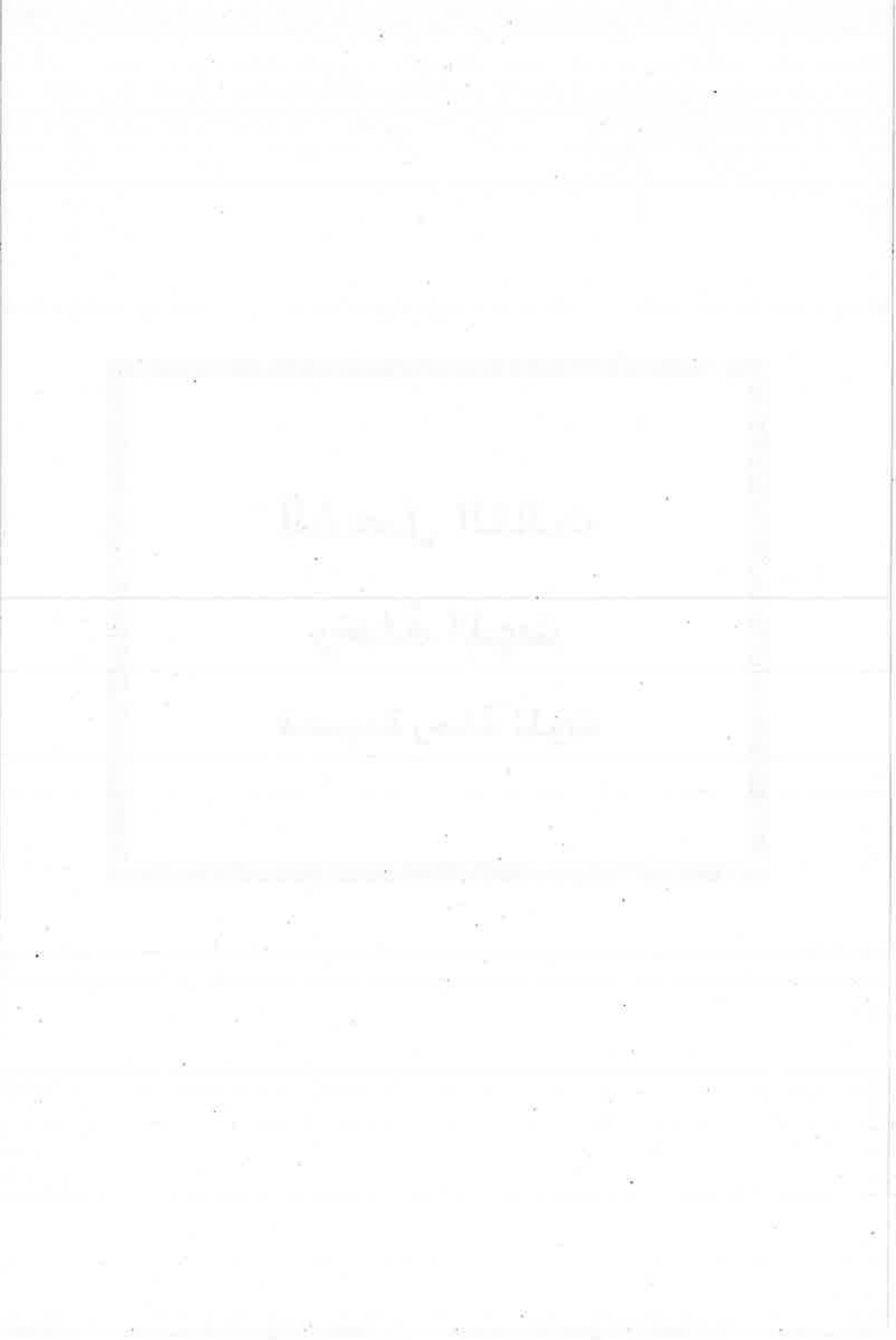
---

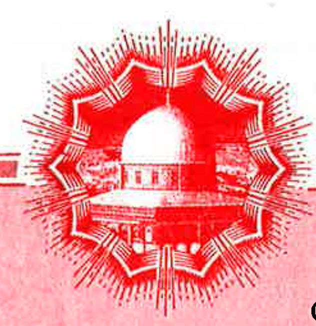
(١) برج البراجنة: حيٌّ في بيروت.

الفصل الثالث

رحلة الموت

قصيدة رحلة الموت





رحلة الموت[1]

في يوم عرفة من عام ١٣٩٧هـ، يوم السبت الموافق ١٩ تشرين الثاني لعام ١٩٧٧م، تحرّك أحد أفراد هذه الأُمّة... لا إلى عرفة، لا إلى منى، لا إلى مشاعر الحج مع أُمّة الإسلام في أعظم أيامها، ولكن إلى أرض فلسطين المغتصبة، إلى أرض الإسراء، ليصافح الغاصب المعتدي في موكب من الحفاوة وزخرف الدنيا، مع شعب صِهْيَون..!

---

(١) ديوان موكب النور، للمؤلف: (ص٦٣).



أَكَفَّ «مَنَاحِيمٍ» . . . ! أَظَافِرُ ثَعْلَب
ومُـدْيَةُ جَزّارٍ وحِقْدُ مُجَاهِرِ
أصافَحْتَها . . . والرِّجْسُ بَيْنَ عُرُوقِها
تَدَفَّق أمْـوَاجَ الخَـطَايَـا الـزَّوَاخِـرِ



رحلة الموت

طَوَى اللَّيْلُ آفَاقَ الفَيافي وأَرْعَدَتْ
عَلَيْهِ ذِئَابٌ دَامِيَاتُ الأَظَافِرِ
تُمَزِّقُ أَحْشَاءَ الضَحَايَا بِنَابِهَا
وتَطْوِي بَقَايَا شِلْوِهَا المُتَنَاثِرِ
وتَطْحَنُ مَا بَيْنَ الضُرُوسِ أَنِينَهَا
وتَخْنُقُ حَسْرَاتِ الأَسَى والمشَاعِرِ
هُوَ اللَّيْلُ... ! أَشْبَاحُ الرَّزَايَا تَنَاثَرتْ
عَلَيْهِ وأَطْيَافُ الجُدُودِ العَوَاثِرِ
فَمَا أَوْمَضَتْ فِيهِ بَوَارِقُ صَارِمٍ
وَلاَ زَمْجَرَتْ فِيهِ حَمِيَّةُ ثَائِرِ
وَلاَ انْتَفَضَتْ دُونَ الدِّيَارِ كُمَاتُهَا
وَلاَ وَثَبَتْ فَوْقَ السُّرُوجِ الضَّوَامِرِ
وَلاَ نَهَضَتْ مِنْ وَهْدَةِ الذُّلِّ كَبْوَةٌ
وَلاَ نَفَضَتْ عَنْهَا غُبَارَ الحَفَائِرِ



مَضَيْتَ... ! وَأَشْلاءُ الأُبَاة تَبَعْثَرتْ
وِدُنْيا المُرُوءَاتِ اسْتَذَلَّتْ لِفاجِرِ

مَضَيْتَ.... وإنْ كادتْ خُطَاكَ لَتَسْتَحِي
وتَرْجِعُ عن غَيٍّ الذَّلِيلِ المُكَابِرِ

فأقْحَمْتَهَا هَولَ الدَّنَايا وصَفَّقَتْ
إليْكَ أكُفّ السَّاقِطَاتِ الفَوَاجِرِ

تَمُرُّ عَلَى الأَمْجَادِ رَعْشَةُ ذِلّةٍ
فَتُغْمِضُ مِنْ أَجْفَانِهَا والمَحَاجِرِ

وَتُغْضِي... وأَصْدَاءُ الجِراحِ حَبِيسَةٌ
تَمُوتُ عَلَى أَصْدَاءِ طَعْنَةِ غَادِرِ

* * *

أَأَشْفَقْتَ أنْ تَبْقَى ثَكَالاكَ بالأَسَى
ودَمْعُ اليَتَامَى بَيْنَ خَدٍّ وَنَاظِرِ

وَمَا أَشْفَقَتْ «صِهْيَوْنُ»... ! كُلُّ رُبُوعِهَا
ثَكَالى وأَيْتَامٌ وفَيْضُ مَجَازِرِ



فَمَا صَرَخَتْ إلاَّ لِتَنْفُضَ يَأْسَهَا
وَتَمْضِيَ في دَرْبٍ شَدِيدِ المَخَاطِرِ
فَتُلْقِيَ أَفلاَذَ الكُبُودِ عَلَى اللَّظَى
وَتَحمِي آمَالَ النُّفُوسِ الغَوَادِرِ
لِتَجْعَلَ مِنْ زُوْرِ الضَّلاَلِ حَقِيقَةً
وَتَرْفَعَ بُهتاناً عَلَى كُلِّ طَاهِرِ

* * *

فَيَا حَسْرَتَاه كَيْفَ لَمْ يُشفِقِ النُّهَى
عَلى شَرَفٍ دامٍ وعِرْضِ حَرَائِرِ
عَلَى القُدْس... ! جِلْبَابُ الظَّلاَمِ يَلُفُّهَا
وَأَمْجَادُهَا مَنْشُورَةٌ كَالجَواهِرِ
عَلَى كُلّ شِبْرٍ مِن فِلَسْطِيْنَ لَمْ يَكُنْ
سِوَى نَفَحَاتٍ مِنْ أَبِيٍّ وَصَابِرِ
سِوَى خَفَقَاتِ الوَحْيِ... ! يُندي رُبُوعَهَا
وَيَسْكُبُ مِن فَيْضٍ ويَهْمِي بِعَاطِرِ



عَلَـى أُمَّـةٍ(1) مـا أَخْـرَجَ اللهُ مِثْلَهَا

إِلَى النّـاسِ أَنْـوَاراً وَطِيـبَ مَـآثِـرِ

* * *

فَوَا أسَفَـا أن ضَـيَّـع الحقَّ «جاهِلٌ»

ومَزَّقَـهُ بَيْنَ المُـدَى والخَنَـاجِـرِ

فَأَهْـوَى بِـهِ «السَّفّاحُ» بَيْنَ مَدَافِـعٍ

تُدَوِّي ومَكْرٍ مِـنْ غَوَايَـةِ كـافِرِ

* * *

فَمَـا كَـان إِبْراهِيم إلاّ مُصَـدِّقاً

بِأحْمَدَ بِرّاً، عاطِـراً بالبَشَـائِرِ

ورتَّلَـهَـا دَاوُدُ نَـفْـحَ نُبُـوَّةٍ

وَرَجَّـعَ تَحْـنَاناً وخَـفْقَ مَـزامِـرِ

---

(1) هِي أُمَّة الإِسلام إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمّة أخرِجَتْ للنّاس...﴾. [آل عمران: 110]

وَصَانَ سُلَيْمَانُ الحَكِيمُ أمَانَةً

لأَحْمَدَ يُوفِيهَا نَدِيَّةَ شَاكِرِ

أُولئكَ... مَاسَاسُوا الدِّيَارَ بِعِرْقِهِمْ

وَلاَ مَلَكُوهَا جَاهِلِيَّةَ سَادِرِ

وَلَكِنَّهَا كَانَتْ صَفِيَّ أَمَانَةٍ

وعَهْداً يُؤَدَّى بَعْدَ حِينٍ لِقَادِرِ

وَرَفَّتْ عَلَى عِيسَى النُّبُوَّةُ والتقت

عَلَى سَاحَةِ الأَقْصَى شُفُوفُ بَصَائِرِ

فَأَمَّهُمُ المختارُ أحمدُ سَيِّداً

لِيَجْمَعَ مِنْ مَاضٍ زَكِيٍّ وَحَاضِرِ

وَيُمْضِي عَلَى الأَيَّامِ دَعْوَةَ رَبِّهِ

جِهَادَ مَيَامِينٍ ونَفْحَ أَزَاهِرِ

وَتَتَّصِلُ الأَزْمَانُ.... بَيْنَ طُيُوفِهَا

نُبُوَّةُ إِسْلام وَصِدْقُ أَوَاصِرِ

وَيُصْبِحُ لِلإِسْلامِ مُلْكُ رُبُوعِهَا

وَعَهْدٌ أَمِينٌ لاَ يُرَدُّ لِفَاجِرِ



فَذَلِكَ إِرْثُ الأَنْبِيَاءِ.. دِيارُهُمْ
مَرَابِعُ تَوْحِيدٍ وَخَفْقُ مَنَابِرِ

* * *

فَوَا أَسَفا أَنْ ضَيَّعَ العَهْدَ جَاهِلٌ
وغَيَّبَهُ في سَادِرَاتِ الدَّيَاجِرِ
ومَزَّقَ مِيثَاقَ النُّبوَّةِ كُلَّهَا
وأَلْقَى بِهِ...! كِبْرَ الشَّقِيِّ المُغَامِرِ

* * *

رَحَلْتَ...! وَفي كَفَّيْكَ غُصَّةُ أُمَّةٍ
وأَشْلاءُ تَارِيخٍ وَبَحَّةُ زَاجِرِ
حَمَلْتَ لهم غُصْنَاً...! فأَيْنَ اخْضِرَارُهُ
وَقَدْ ذَوَّبَتْهُ قَانِيَاتُ الجَرَائِرِ
وأَيُّ هَدِيلٍ للحَمَامِ إِذَا نَزَتْ
عَلَيْهِ شِفَارٌ مِن وَمِيضِ البَوَاتِرِ



وأيّ سَـلامٍ تَرْتـجيـه إذَا انْحَنَـتْ
عَـلَى قَدَمٍ هـامٌ ورَعْشَـةُ صَـاغِـرِ
فَبِعْتَ لَـهُـمْ دَاراً وأيْـكـاً وَسَاحـةً
ومَلْعَبَ أمْجَـادٍ وَحُـرْقَـةَ صَـابِرِ
وَبِعْتَ لَهُـمْ شَعْباً وَتَارِيخَ أُمَّةٍ
وَزَهْواً تهَاوَى تَحْـتَ نَـزْوَةِ خَـائِرِ

* * *

فَأَيَّ يَدٍ صَافَحْتَ... ! مِلْءُ بُطُونِها
مَذَابِحُ... ! أدْمَتْ كُلَّ قَلْبٍ وخَاطِرِ
أَكَـفُّ «مَنَاحِيمٍ»... ! أظَافِرُ ثَعْلَب
ومدْيَـةُ جَزَّارٍ وحِقْـدُ مُـجَـاهِـرِ
أصَافَـحْتَهَا... والرِّجْسُ بَيْنَ عُرُوقِها
تَـدَفَّقَ أَمْـواجَ الـخَطَـايَـا الـزَّوَاخِـرِ



تصافَحتُما... «والدَّيْرُ»[1] ما زال نَازِفاً
عَلَى غَاضِبٍ بَيْنَ النَّجيع وَفَائِرِ
تَصَافَحتُما...! بين ابْتِسَامَةِ مُجْرِمٍ
عَتيٍّ وَكَيْدٍ مِنْ غَوِيٍّ مُحَاذِرِ
فَيَا «دَيْرَ يَاسِين» أطِلَّ بِلَعْنَةٍ
تُزَلْزِلُ أقْدَامَ الطُّغَاةِ الجَبَابِرِ

* * *

فَيَا أَيُّهَا الأقْصَى...! أنِينُكَ مُوْجِعٌ
حَنِينُكَ أَصْدَاءُ العُصُورِ الغَوَابِرِ
وَشَوْقُكَ ذَوْبُ الخَالِيَاتِ من الرُّؤى
لِرَنَّةِ أنْصَالٍ وَوَقْعِ حَوَافِرِ
وخَفْقَةِ راياتٍ وَعِزَّةِ فَاتِحٍ
يَموجُ صَدَاهَا في دَوِيِّ الحَنَاجِرِ

(١) دير ياسين: قرية في فلسطين المحتلة ارتكب فيها اليهود مذبحة كبيرة.



عَصَرْتَ غَنِيَّ الذُّكْرَيَاتِ بِدَمْعَةٍ
عَلَى هُدُبٍ تُغْضِي وَنَوحِ سَرَائِرِ
فَيَا «عُمَرُ الفاروقُ».. أيْنَ صَدَى الخُطَى
إلى المَسْجِدِ الأَقْصَى وإشْراقُ زَائِرِ
وأَيْنَ طُيوفُ المجْدِ حَولَكَ والتُّقَى
وأنْداؤُه رَفَّتْ عَلى كُلِّ زاهِرِ
تَواضَعْتَ... مَا غَضَّ الإباءُ جُفُونَه
عَدَلْتَ... فَمَا ذَلَّتْ طُيُوفُ مَنَائِرِ
وَهَبْتَ.. وَمَا ضَيَّعْتَ حقّاً لِخَالقٍ
عَفَوْتَ... وَفي كَفَّيْكَ عِزَّةُ ظَافِرِ
وَجَمَّعْتَ أَشْتَاتَ الأَمَانَةِ كُلَّها
وَنَظَّمْتَها عِقْداً كَرِيْمَ الجَواهِرِ

* * *

فَيَا أُمَّةً... قَصَّفْتِ في سَاحِكِ القَنَا
وَأَحْنَيْتِ للأَوْثَانِ هَامَةَ خَاسِرِ



بَعُدْتَ عَنِ الرَّحْمَنِ فاشْقَيْ وَوَلْوِلي
عَلَى غُصَصٍ مَلأى بِقَيْحِ الجَرَائِرِ

ألا رَجُلٌ تَهْتَزُّ مِنْهُ إِبَاءَةٌ
وتغْضَبُ للرَّحْمنِ نَخْوَةُ بَاتِرِ

نَشِيْدُكِ أَحْزَانُ المآتمِ فادمَعي
ومَجْدُكِ طَيَّاتُ الثَّرَى والمَقابِرِ

١٩٧٧م

الفصل الرابع

وثبة شراع

وانتفاضة طفل وحجر

١- الشراع الدامي.

٢- فلق الصباح.

٣- من فجّر الصمت العميق.

٤- شرف السلاح زنوده.



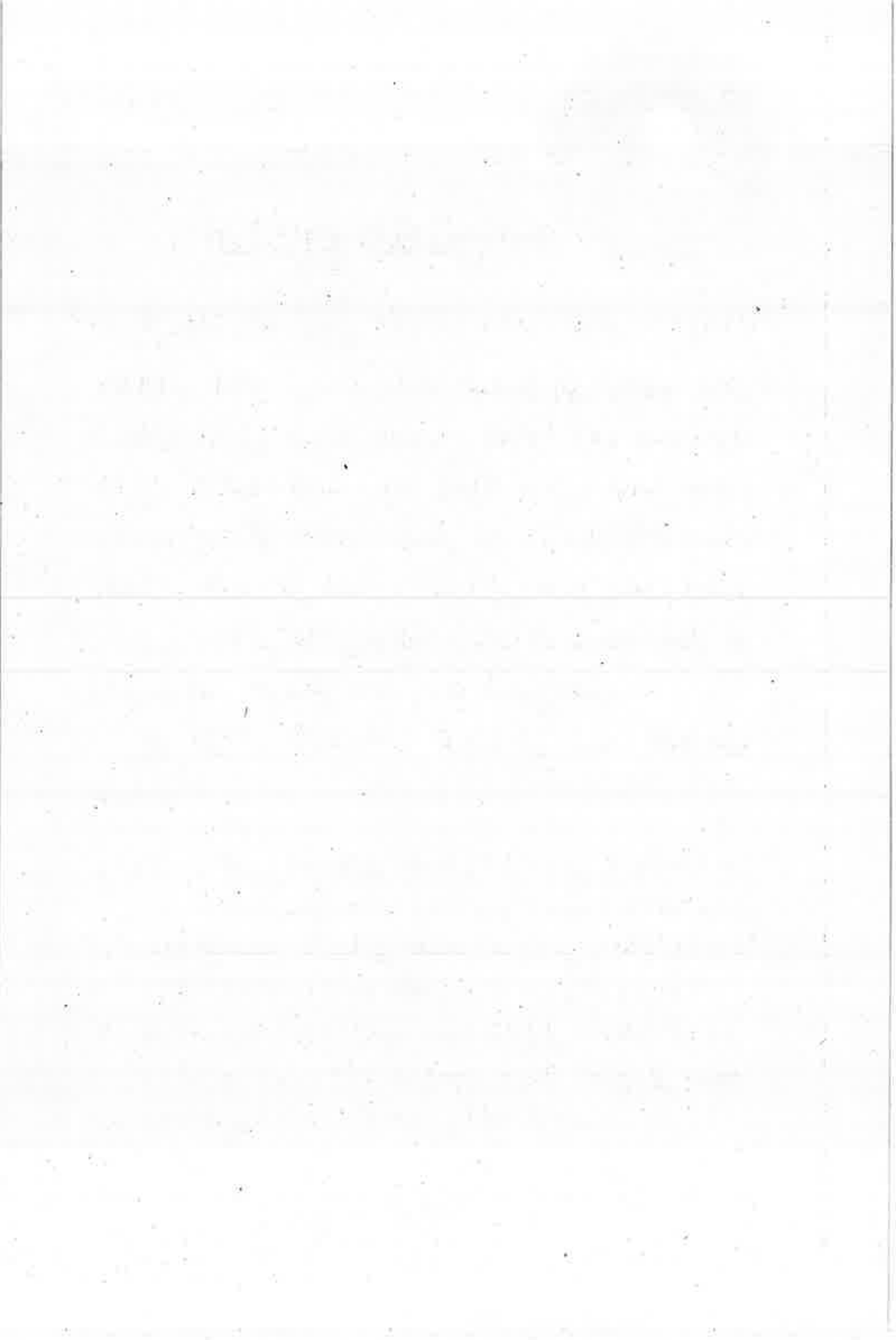
الشراع الدّامي[1]

في ليلة الخميس ١٤٠٨/٤/٥هـ، الموافق ٢٦/١١/١٩٨٧م، انطلق أربعة من أبناء المسلمين إلى أرضهم، أرض فلسطين، الأرض المباركة المغتصبة، انطلقوا وهم يستخدمون طائرات شراعية خفيفة مزودة بمحرك صغير. فبلغوا هدفهم واقتحموا معسكر الأعداء، معسكر اليهود، فأبلوا بلاء حسناً، وقتلوا من اليهود من قتلوا، وارتفعوا إلى حيث يرفعهم إيمانهم وعملهم، وعاد من نجا إلى مواقعه، وندعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل من قضى شهيداً في جنته، إنه هو السميع المجيب.

إلى الأرواح المؤمنة بالله، المجاهدة في سبيله، أُقدم هذه الأبيات..

---

(١) نشرتها القبس الكويتية في عددها (٥٦٧٧) في ٣/٢/١٩٨٨م، وجريدة المسلمون في عددها (١٥٩) في رجب ١٤٠٩هـ، نوفمبر ١٩٨٨م، واللواء الأردنية في عددها (٧٦٥) في ١٦/٥/١٤٠٨هـ (٦/١/١٩٨٨م)، ومجلة الجندي المسلم عدد (٤٨) في ١٤/٤/١٤٠٨هـ (٥/١٢/١٩٨٧م)، ومجلة البلاغ في عددها (٩٣٧) في ١٦/٨/١٤٠٨هـ (٣/٤/١٩٨٨م)، ومجلة المجتمع في عددها (٨٥٥) في ٢١/٦/١٤٠٨هـ (٩/٢/١٩٨٨م).





الشّراع الدّامي

أَطْلِقْ شِراعَكَ في السَّمَاءِ وَحَلِّقِ
واصْعَدْ كَمَا يَهْوَى إباؤُك واخفُقِ
وارْفَعْ ميادينَ الجِهادِ فَحَقُّهَا
وثباتُ صَعّادٍ وَلَهْفَةُ مُرْتَقي
ضَاقَتْ بها السَّاحاتُ فانفَرَجَتْ لها
سُبُلُ الفَضَاءِ وَعَالَمٌ لم يُغْلَقِ
وَتَواثَبَتْ فِيها الصُّقُورُ وحَوَّمَتْ
فِيها النُّسُورُ وهِمَّةٌ مِنْ مُعْرِقِ
وانْهضْ فَهَاتِيكَ الذُّرا قَدْ لوَّحَتْ
للصّادِقِينَ وأشْرَقَتْ للمُتّقي
وَدَعَتْ وُفودَ الطارقين وزَيَّنَتْ
حُمْرَ الدّروب بطَيّبٍ وبشَيّقِ
وتَفَتَّحَتْ خُضْرُ الجِنَانِ عَلَى دَمٍ
حُرٍّ ودَفْقٍ مِنْ عُروقِكَ مشرقِ



وانْهَضْ لِعَهْدِكَ ما أَجلُّ وفاءَه
شَتَّان بَيْنَ مُكَـذِّبٍ ومُـصَـدِّقِ

العَهْدُ للرَّحْمٰن يَصْدُقُهُ الفَتَى
فَينالُ مِـن زَهْوِ النَّعِيمِ المُـورِقِ

للهِ مَـا تَـبْنِي النُّفُـوسُ نَقِيَّةً
يَجْلُو الهُدَى من بِرِّهَا المتَألِّقِ

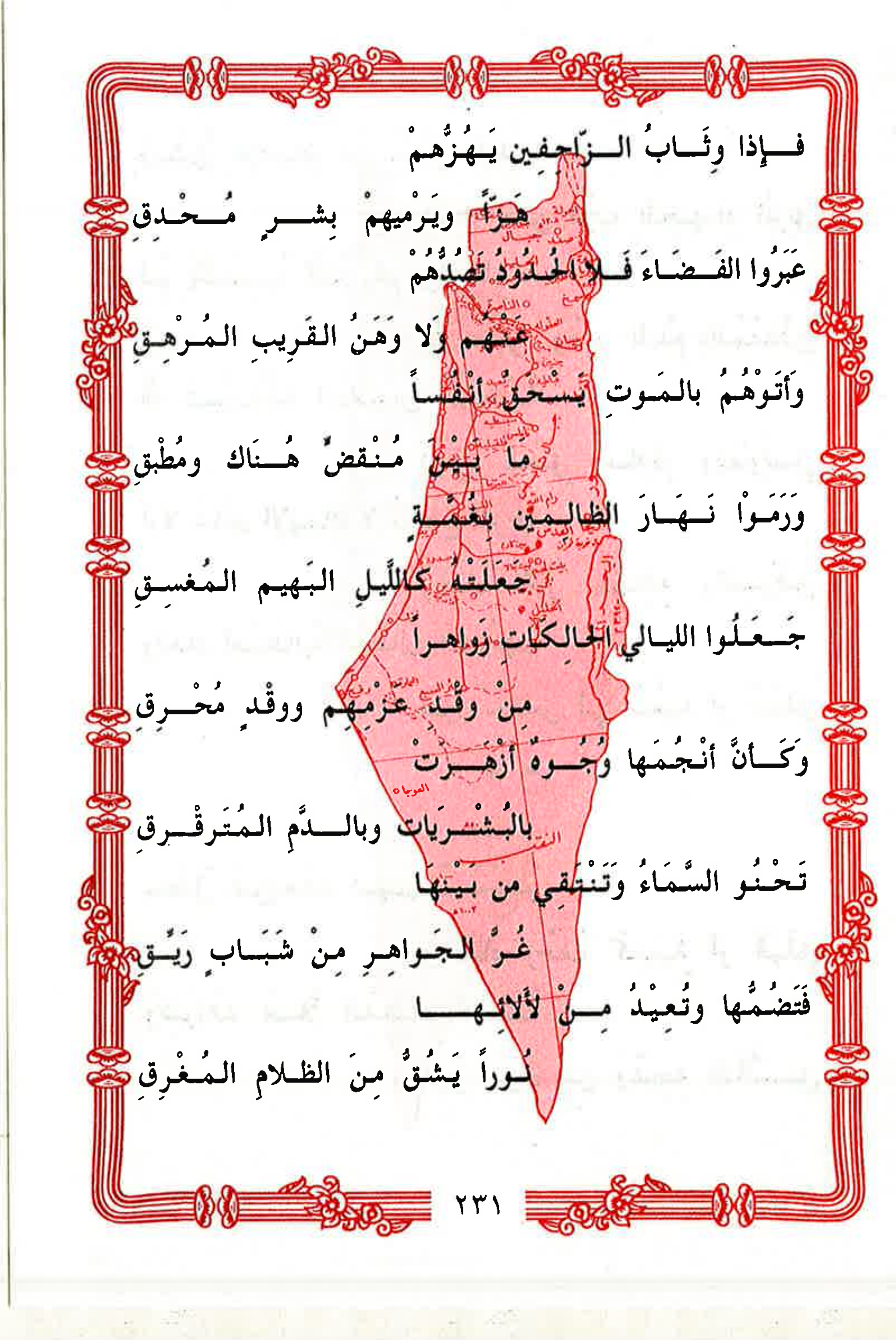
قَالُوا سَقَطتَ وَمَا دَرَوا لو أَنْصَفُوا
قَالُوا وَثَبْتَ إِلى عُلاً لم يُسْبَقِ

المَجْدُ مَا بَنَتِ النُّفُوسُ وما وَعَتْ
شَرَفاً وَمَا وَهَبَتْ بِكَفٍّ مُغْدِقِ

* * *

يَا شَرَّ مـا فَعَـلَ اليَهُودُ بظُلْمِهِمْ
فَغَفَـوا عَـلى وَهْمٍ وَكِبْرٍ مُوبِقِ

حَرَسُوا الحُدُودَ بِهِ وَظَنُّوا أنَّهمْ
أَمِنُوا، وأَيْنَ أمَانُ عَادٍ أحْمَـقِ



فـــإذا وِثَــابُ الــزّاحِفين يَـهُـزُّهـمْ
هَـزّاً ويَـرْميهم بِشـــرٍ مُـــحْـدِقِ
عَبَرُوا الفَــضَــاء فَــلا الحُـدُودُ تَصُدُّهُمْ
عَنْهُم وَلا وَهَنُ القَرِيبِ المُـرهِـقِ
وَأتَـوْهُـمُ بالـمَـوتِ يَسْحَقُ أنْفُسـاً
ما بَيْنَ مُـنْقضٌ هُــنَاك ومُطْبَقِ
وَرَمَـوْا نَــهَــارَ الظَالِـمين بِغُمَّــةٍ
جعَلَتْهُ كاللَّيلِ البَهيم المُغسِـقِ
جَـــعَـلُوا الليـالي الحـالِكَات زَواهِـراً
مِنْ وقْـدِ عزمِهِـم ووقْـدٍ مُحْــرِقِ
وَكَـــأنَّ أنْـجُـمَـها وُجُــوهٌ أزْهَــرتْ
بالبُشْــريَات وبالـــدَّمِ المُـترقْــرِقِ
تَـحْـنُو السَّمَاءُ وَتَـنْتَقِي من بَيْنها
غُـرَّ الجَـواهِـرِ مِنْ شَبَــاب رَيِّـقِ
فَتَضُمُّها وتُـعِيْدُ مِــنْ لألائِـهـــا
نُـوراً يَشُقُّ مِنَ الظـلامِ المُـغْرِقِ



وَيَشُقُّ للإنْسَانِ مِنْ سُبُلِ الهُدَى
سُبُلاً ومن دَرْبِ الجِهَادِ المُونِقِ
لَمْ يَكْتَسِبْ ألقاً ولم يَزْكُ الفِدا
إلاّ على وَهْجِ الدَّمِ المُتَدَفِّقِ
لله تَبْذُلُه النُّفُوسُ سَخِيَّةً
تُوفِي بِحَقٍ صَادِقٍ وبِمَوْثِقِ
لولا هُدَى الإيمانِ لا نْقَطَعَ الرَّجَا
وَلَجَفَّ كُلُّ عطائِهِ والمِرفَقِ
وَلَعَادَ أصْحَابُ الفِعَالِ جَمِيعُهم
مِنْ مُفْلِسٍ في سَعْيِهِ أو مُمْلِقِ

* * *

بَطَلٌ عَزيمتُه لَهِيبٌ مُسْتَعِرٌ
وَخُطَاهُ زَحْفُ كَتِيبةٍ أو فَيْلَقِ
وَشِرَاعُه مَلأَ الفَضَاءَ كأنَّهُ
نُورٌ سَرَى مِن وَهْجِهِ المتألِّقِ



وثابُهُ فَجأ العَدُوَّ بِنَارِهِ
وَرَمَاهُ في شَرَكٍ وزَحْمةِ مَأزِقِ

فَتَراهُمُ ما بَيْنَ مُنْطَلِقٍ جَرَى
فَزعاً وآخَرَ في الرِّياحِ مُمزَّقِ

وَقَفَتْ لَهُ الدُّنيا لِتُبْصِرَ آيَةً
مِنْ هِمَّةٍ تَعْلُو وَوَثْبٍ مُطْبِقِ

يَا يَومَ أن أدَّى التَّحيَّةَ مُجْرِمٌ
لِجَلالِ جُثْمانٍ وعِزٍّ مُحَلِّقِ(١)

مَا نَالَ مِنْ شَرَفِ الحَيَاةِ جَمِيعِها
إلاَّ تَحِيَّتَهُ وَوَقْفَةَ مُطْرِقِ

* * *

(١) إشارة إلى وقوف قائد المنطقة الشمالية اليهودي يوسي بليد أمام جثمان الطيار وأدى له التحية اعترافاً بشجاعته وبطولته. (جريدة الشرق الأوسط عدد ٣٢٩٣ تاريخ ١٣/٣/١٤٠٨هـ الموافق ٤/١٢/١٩٨٧م يوم الجمعة).



يَا يَوْمَ «قِبْيَةَ»(١) لمْ تَزَلْ أصْدَاؤُها
ملءَ الزَّمانِ دَوِيُّهَا لـمْ يُخْنَقِ
كمْ فَرْحَـةٍ قُتِلَتْ عَلى أعْرَاسِهَا
وصَبِيَّةٍ ذُبِحَت عَلى عِرضٍ نقِي
كَـمْ غُـصَّةٍ دُفِنَتْ بِصَدْرٍ كَرِيمَةٍ
وكَرِيمَةٍ دُفِنَتْ بغُصَّةِ مُشْفِقِ
ودَوِيُّ صَيْحَاتِ الكُماةِ يضُمُّهُمْ
شرَفُ الرَّدَى أو وَثْبَةٌ في خَنْدَقِ
شُهَدَاءَ «قِبْيَةَ» ! والمواكِبُ هذه
إشْرَاقُ رُوَّادٍ وطَلْعَةُ سُبَّقِ
حَمَلتْ لَكِ البُشْرَى عَلى أمْوَاجِها
نَصْراً تُجَلِّلُهُ وآيَةَ رَوْنَقِ
وتفتَّحَت أكْمَامُ رَوضِكِ من دَمٍ
عَبِقٍ على زَهَرٍ هُنَاكَ مُنَمَّقِ

---

(١) قبية: قرية في فلسطين تعرضت لمجزرة من اليهود.



وَتَلَفَتَ الزَّيْتُونُ بَهْجَةَ خُضْرَةٍ

رَاقَتْ وغُصْنٍ في رُبُوعِكِ مُورِقِ

والبُرْتقَالُ الحلْوُ في نَفَحَاتِه

نَفَثَاتُ أمجادٍ وسِحْرُ تَشَوُّق

* * *

يا أُمّة الإسْلام طَالَ بِكِ المَدَى

وَشِرَاعُكِ المَطْوِيُّ لَمّا يَخْفُقِ

فَثِبِي لآفَاقِ الجِهادِ وَجَلْجِلِي

مُدّي شِرَاعَكِ في الفَضَاءِ وَحَلِّقِي

ورِدِي حياضَ الموت موْجاً دافقاً

يَرْوِي الزَّمَانَ مِن الحِيَاضِ الدُّفَّقِ

٢٤/٣/١٤٠٨هـ

١٥/١٢/١٩٨٧م

فلق الصباح[1]

مع "الانتفاضة" في أرض فلسطين

مع هذه الانتفاضة في أرض فلسطين المسلمة، الأرض المباركة، خرجت هذه القصيدة. لقد بدأت الانتفاضة بحدود الخامس عشر من ربيع الآخر ١٤٠٨هـ، السادس من ديسمبر (كانون الأول) ١٩٨٧م، على أثر عمليتين فدائيتين جريئتين: إحداهما في القدس، والثانية في غزة، وأعلنت منظمة سرايا الجهاد الإسلامي مسئولياتها عن الحادثتين كما أعلنت استقلالها عن سائر الحركات.

وامتدت المظاهرات إلى الناصرة والخليل ونابلس وغيرها من

---

(١) نشرتها: الوطن الكويتية في عددها (٤٦٤١) في ٣/٦/١٤٠٨هـ (٢٥/١/١٩٨٨م). والقبس الكويتية في عددها (٥٦٦٦) في ٢٠/٢/١٩٨٨م. واللواء الأردنية في عددها (٧٨٤ - ٧٨٥) في (٣ - ٩/١٠/١٤٠٨هـ (١٨ - ٢٤/٥/١٩٨٨م). والمشكاة المغربية في عددها (٩). والاعتصام المصرية عدد (١) سنة (٥٠) في رمضان ١٤٠٨هـ، مايو ١٩٨٨م.

مدن فلسطين، وكان المتظاهرون يجابهون الغاصبين اليهود بالحجارة، فوقع منهم القتلى والجرحى. واستمرت الأنتفاضة حتى يومنا هذا وما زالت ماضية. وعسى أن تكون إشراقة كأنها فلق الصبح يزيح الظلام ويجلو دفقة الدم الطاهر على الأرض الطاهرة المباركة إنه أَمل نرجوه مع انطلاقة الأنتفاضة، فهل يتحقق؟!

واليوم مع هذه الطبعة الجديدة، نرى من خلال تنافس الكثيرين على ادعاء تفجيرها خلال السنوات الماضية، والصراع الذي كان يدور بينهم، نرى أن الأنتفاضة كانت تحتاج إلى نهج أدق وتخطيط أحكم، وإلى مشاركة أوسع، لتكون انطلاقة أُمّة، وهذا ما بيّناه في الطبعات السابقة وما كنا ندعو إليه سواء في النثر أو الشعر، حتى يتوحد الدرب والشعار.

وكذلك نُشِير إلى اضطراب الموازين في مواقف كثيرة مما جعل المواقف تتردَّد أو تتبدّل بين النوازع الإقليمية والإيمانية.

إلى المقاتلين المؤمنين بالله، المجاهدين في سبيل الله، الثابتين على عهده، الماضين في الأرض، أُقدم هذه الأبيات.



فلق الصباح

رَجِّعْ دَوِيَّكَ في البِطَاحِ ودَمْدِمِ
وانْهَضْ لِمَلْحَمَةِ الجِهَادِ وأقْدِمِ
رَجِّعْ نِداءَكَ في الوِهَادِ وفي الذُّرَى
وبِكُلِّ مُنْعَطفٍ يَحِنُّ إلى كَمِي
واطْرُقْ بِصَيْحَتِكَ الفَضَاءَ فَهَاهُنَا
خَنَقُوا النِّداءَ وأطْبَقُوا فوقَ الفَمِ
وَارْفَعْ نِداءَكَ في السَّمَاءِ يَطُفْ على
أفْلاكِهَا حُرّاً وَبَيْنَ الأنْجُمِ
مَنْ ذا يُجيبُكَ والدُّنا قَدْ سَكَّرَتْ
أسْمَاعَها والدَّارُ قبضةُ مُجْرِمِ؟!
فَارْفَعْهُ للرَّحمن خَفْقَةَ مُوقِنٍ
بالله لا غِرٍّ وَلا مُتَوَهِّمِ
وَالْجَأْ إِليهِ فَلَمْ تَزَلْ أبْوَابُهُ
مَفْتُوحَةً للسَّائِلِ المُتَوَسِّمِ



الـمُشْرَعاتُ عَلَى الربَّى ما بالُهَا
طُوِيَتْ ومَا بَالُ الفتَى لمْ يَحْـزمِ
مَا بالُهُمْ وَقَـفُـوا وأضْحَى زَحْفُهُمْ
كالبَـرْقِ مِنْ أُفقٍ شَحِيحٍ مُظْلِمِ
هَلاَّ نَـشَـرْتَ الفَـجْرَ في جَـبَاتِه
ونَشَرْتَ مِنْ بَرْقِ العزائم والـدَّمِ
فانْهَض! فَهَاتِيكَ الربَّى قَدْ فَوَّحَتْ
بالعِطْرِ مِنْ عَبَق الجِـهَادِ المُلْهِمِ
أمجَـادُ تـارِيخٍ ووَحْـيُ نُبُــوَّة
وجَـلالُ إسْراءٍ وعِـزَّةُ مُسْلِـمِ
ورَفيفُ آيَـاتٍ تـمُوجُ بِـسَاحِهَا
نُوراً فيَغْمُرُ مِنْ رُبىً أو مَـعْلَـمِ
قُدْسِيَّةُ الأنْوار يَـخْشَـعُ عِنْدَهَا
قَلبِي ويُطهرُ مِـنْ هَوىً أو مأْثَـمِ

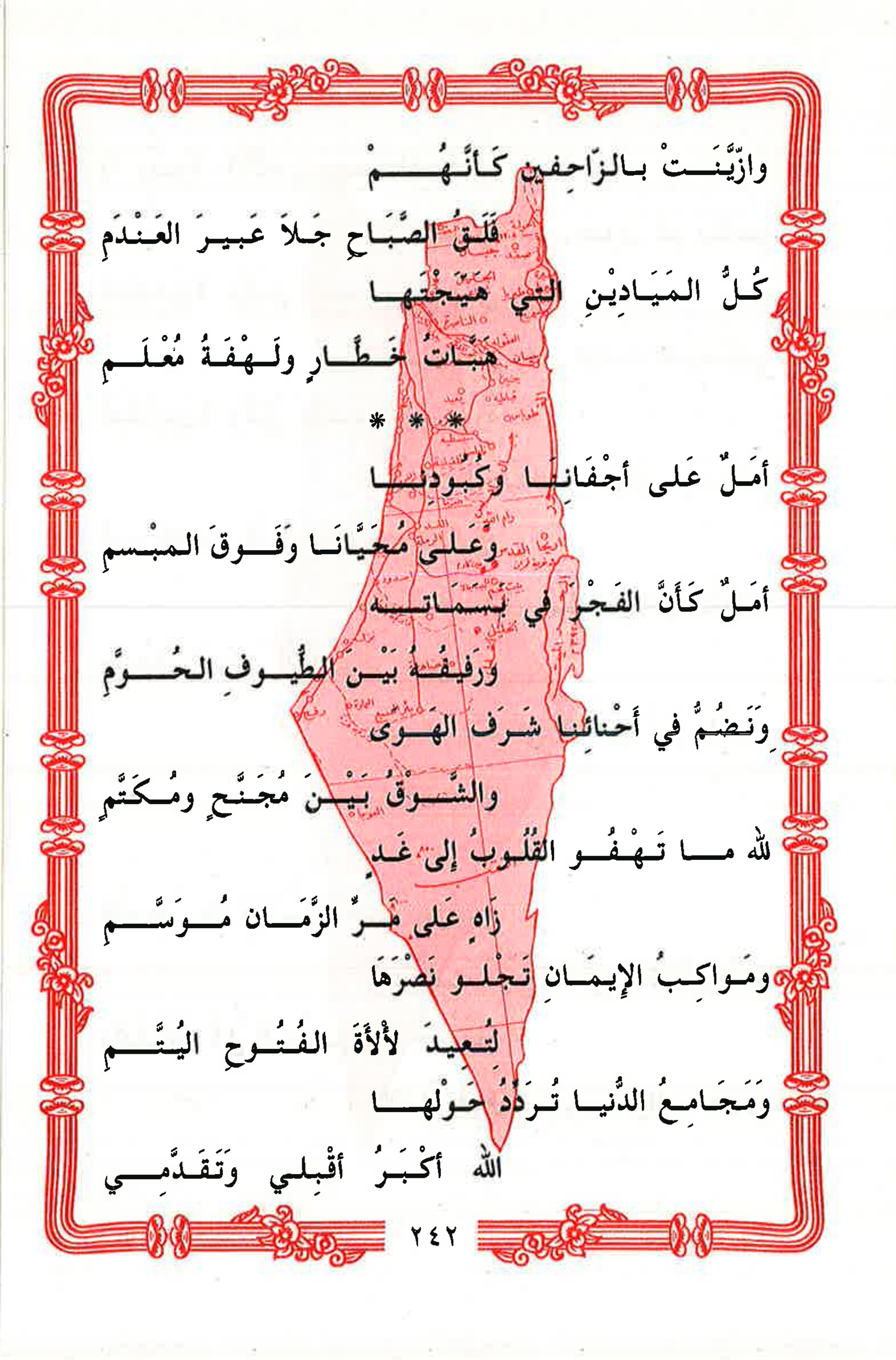
* * *



يَا رَبْــوَةَ الأقْصَى حَنِينُكِ أدْمُعٌ
وأنِينُ صَدْرِكِ مِـنْ جَـوىً لَـمْ يُكْتَمِ
تَتَلَفَّتِينَ! وَأيْـنَ إعْصَــارُ الفَتَى
يُنْجيك مِنْ رَهَقِ الإسَارِ المُحكَمِ
تَتَلَفَّتِينَ! وَكُلُّ يَــــوم ثَــــوْرَةٌ
عَصَفَتْ! وَقَيْدُكِ في الوغَى لَمْ يُحْطَمِ
أيْـنَ الفَتَــى لله يَـدْفَـعُ خَـطْــوَهُ
وَثْباً كَبَـارِقِ صَارِمٍ أو لَهْـــذَمِ؟!
ويَـدُقُّ أبْـوابَ الجِـنَـانِ عَلَى دَمٍ
حُـرٍّ وعَـهْـدٍ في الوَغَـى لَـم يُثْلَـمِ

* * *

فانْهَـضْ إذا أوْفَـيْتَ خُطَّةَ مُؤمِـنٍ
وصَدَقْتَ نَهْجَ الفَارِسِ المُتَـرَسِّـمِ
وَتَحَفَّزَتْ كُلُّ الـرُّبَــى! يَا حُسْنَهَا
والغَـارُ فَوقَ جَبِينِـهَا والمِعْصَـمِ



وازّيَّنَتْ بالزّاحِفين كَأنَّهُمْ
فَلَقُ الصَّباحِ جَلاَ عَبيرَ العَنْدَمِ
كُلُّ المَيادِيْنِ التي هيّجْتَها
هَبَّاتُ خَطَّارٍ ولَهْفَةُ مُعْلَمِ

* * *

أمَلٌ عَلى أجْفَانِنَا وكُبُودِنَا
وعَلى مُحَيَّانَا وَفَوقَ المبْسمِ
أمَلٌ كَأَنَّ الفَجْرَ في بَسماتِهِ
ورَفيقُهُ بَيْنَ الطُّيوفِ الحُوَّمِ
وَنَضُمُّ في أَحْنائِنا شَرَفَ الهَوى
والشَّوقُ بَيْنَ مُجَنَّحٍ ومُكَتَّمِ
لله ما تَهْفُو القُلُوبُ إلىٰ غَدٍ
زَاهٍ عَلى مَرِّ الزَّمَانِ مُوَسَّمِ
ومَواكِبُ الإيمَانِ تَجْلو نَصْرَهَا
لِتُعيدَ لأْلأةَ الفُتُوحِ اليُتَّمِ
وَمَجَامِعُ الدُّنيا تُرَدِّدُ حَوْلَها
الله أكْبَرُ أقْبِلي وَتَقَدَّمِي



لا تَنْثَنـي إلا وَفَتْحٌ مُشْـرِقٌ
وكَرِيمُ عِرْضِكِ في الْوَغَى لمْ يُكْلَمِ
دَارٌ مَبَـارِكَـةٌ وسَاحُ رِبَاطِـهَـا
بَابُ الجِنَـانِ وآيَـةُ الشَّوقِ الظَّمِي
يَا يَـومَ أنْ ثَارَتْ هُنَـاكَ قَـوَافِـلٌ
تَتَـرى تَشُقُّ منَ العَجَاجِ الأَقْتمِ
مَا صَدَّهُمْ فَقْـرُ العَتَـادِ ولا أسَى
ذَاكَ الإِسَارِ ولا فَدَاحَـةُ مَغْـرَمِ
مَا صَدَّهُـم خُـلودُ القَـرِيبِ ولَهْـوُه
وَهَـوانُ أحْـلامِ الغُفَـاةِ النُّوَّمِ
شَـدُّوا أكُـفَّهُـمُ كَـأنَّ زِنَـادَهَـا
وقْـدُ العَزِيمَـةِ في لَهِـيبٍ مُضْـرَمِ
مَا كَان فِيها لو نظرْتَ سوى الحَصَى
قد أرْعَـدَتْ في الأُفْقِ إرْعَادَ الكمِي
وكَأنَّهَـا قَصْفُ المَدَافِـعِ ولْوَلَـتْ
ما بَيْـنَ أعْـرَاسِ الجِـهَـادِ وَمَـأْتَمِ



وَحَـناجِـرٍ خَفَقَتْ كَأَنَّ دَوِيَّهَـا
رَعْـدٌ يُجَلْجِـلُ أَو زَئِيرُ الضِّرْغَـمِ
تركَـتْ قِلاعَ الغَاصِبِينَ كأنَّها
تَهْوِي بِمُنْصَدِعِ الجِدَارِ مُهَـدَّمِ

* * *

أمَلٌ يُدَاعِبُهُ الخَيَالُ فَهَلْ تُرَى
صَدَقَ الخَيَالُ وَجَدَّ بَعْدَ تَوَهُّمَ؟!
أمْ أنَّـهُ بَـرْقٌ! فَيَـا لَعَزَائِـمٍ
هَـبَّتْ لأمرٍ مِنْ مُنَاهَا أَحْزَمِ

* * *

يَا خُطَّـةَ الإيمَـانِ! إنَّ جَلاءَها
بَيْنَ النِّزالِ وبيـنَ رأيٍ مُحْكَـمِ
شَـرَفُ الفَعَالِ يُصَانُ بَيْنَ أسِنَّةٍ
تَجْلُـو عَلَى المَـيْدَانِ نَهْجَ المُسْلِمِ
تَمْضِي السِنُونَ وَكُلُّ يَوْمٍ خِدْعَةٌ
بَيْـنَ «الحُلُول» وأَنَّةُ المتَظَلِّمِ



وَنَكَادُ لاَ نَرْضَى هَوَانَ خديعَةٍ

إلاَّ طَوَيناهَا بِحَلٍّ أشْأَم

* * *

يَا أُمَّةَ الإِسْلاَمِ دَربُكِ مُقْفِرٌ

ما بَيْنَ أوهَامٍ تَدُورُ ومَزْعَمِ

فَدُرُوبُهَا شَوكٌ أشَدُّ عَلَيكِ مِنْ

خَرْطِ القَتَادِ ومِنْ مَذَاقِ العَلْقَمِ

شَرَكُ المُسَاوِمَةِ التي تَرْجِينَهَا

شَرَكٌ يَمُدُّ إليكِ نَابَ الأَرْقَمِ

هَلاَّ أفَقْتِ عَلَى المَيَادِينِ التي

تَهْدِي إلى وَضْحِ السَّبِيلِ الأقْوَمِ

حَقُّ الشُعُوبِ يَنَالُه خَطْفُ القَنَا

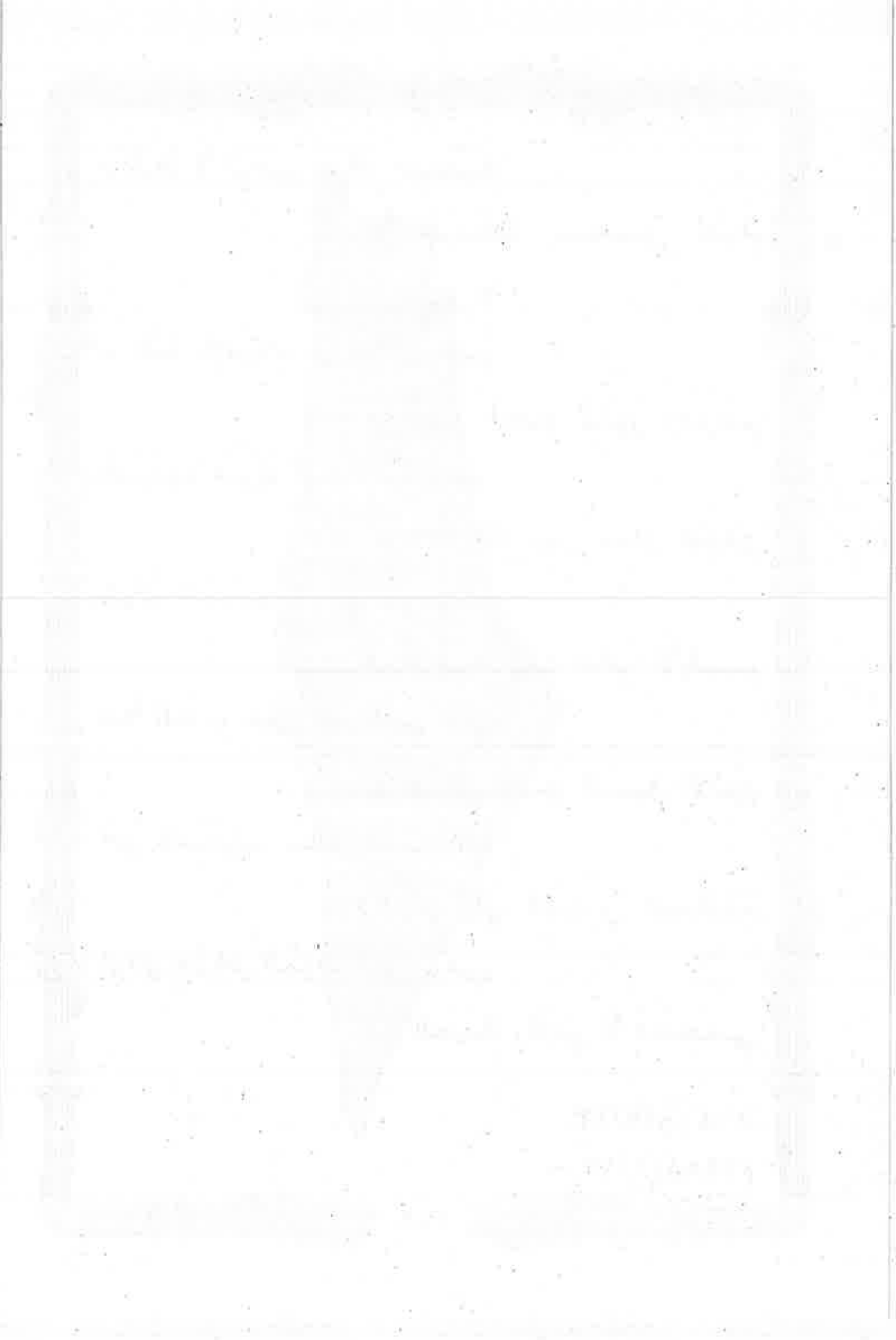
والرَّأيُ رأيُ المُؤْمِنِ المتَقَدِّمِ

فَرِدِي حِيَاضَ المَوْتِ حَتى تُوهَبي

عِزَّ الحَيَاةِ وأقْدِمي لا تُحْجِمي

١٤٠٨/٥/٢٣هـ

١٩٨٨/١/١٢م





من فجّر الصمت العميق[1]

إنها القصيدة الرابعة التي تخرج مع الأحداث الأخيرة في أرض فلسطين المسلمة. لقد امتدت الأحداث أكثر من ستين يوما، وكل يوم يحمل أنباء الصبية والفتيان الأشداء والشيوخ والنّساء، سلاحهم الحجارة تنطلق من أيديهم كأنّها قصف الرعود فهل يعرف هؤلاء دربهم وإلى أين يسيرون؟

من فجَّر الصمت العميق...؟! سؤال ربّما حيَّر الكثيرين في أنْحَاء الأرض.

إنه الإيمان بالله واليوم الآخر، إنّه اليقين برسالة محمد ﷺ حين يتجاوز هذا اليقينُ أوحالَ الأرض وشهوات الدنيا وتنافسَها.

إنهم أُولئك الصامتون الذين يعملون ويرجون الجنَّة، ويتركون

---

(١) نشرتها: المجتمع في عددها ٨٦٠ في ١/٨/١٤٠٨هـ (٢٩/٣/١٩٨٨م).

زخرف الدنيا وتنافسها والله أعلم بما في قلوب عباده.

ولا بأس أن يتساءَل القاعدون، ويتيه الحائرون...!

فعسى أن يعرف حامل الحجر عظمة الإصرار على استرجاع أرض فلسطين كلِّها داراً للإسلام، حتى لا يسقط الحجر في هوّة المساومات...! إذا عرف دربه ورسم نهجه وسار على هدى ونور.



مَنْ فَجَّرَ الصَّمْتَ العميق...

رَجِّعْ مَلاَحِمَهَا وغَنِّ قَصِيدَاً
وامْلأْ نَوَادِيَهَا قَنَاً وبُنُودَا

واسْكُبْ دِمَاءَكَ في سَبِيلِ الله تُنْـ
ـبِتْ في رُبَاهَا عُدَّةً وَعَدِيدَا

سَكَتَتْ مَدَافِعُنَا؟! فَهَاتِ حِجَارَةً
نجْعَلْ مَوَاقِعَهَا لظىً وَحَدِيدا

شَرَفُ السِّلاحِ زُنُودُهُ، ولَهِيبُهُ
قَلْبٌ يَصُبُّ مِنَ الوفَاءِ الجُودَا

وعَقِيدَةٌ تَهَبُ الحَيَاةَ لِمُؤْمِنٍ
بَذَلَ الحَيَاةَ لَهَا فَكَانَ شَهِيدَا

* * *

يا لَلدِّيَارِ يَمُوجُ في سَاحَاتِهَا
لَهَبٌ فَيَقْذِفُ مِنْ لَظَاهُ وَقُودَا

لَهَبُ الدِّمَاءِ يَفُورُ مِنْ أحْنَائِنَا
شُعَلاً تَشُقُّ الصَّخْرَ وَالجُلْمُودَا



مَنْ فَجَّر الصَّمْتَ العَميقَ؟! ومَنْ تُرى
دوّى؟! وَمَنْ مَلأَ الرُّبَى والبِيدَا؟!

اللهُ أكْبَرُ! يا رَوابي أوّبي
أو رجّعي هذَا الدَّوِيَّ نشيدَا

فكأنَّما الدُّنيا تُطِلُّ فلا تَرَى
إلا مَواكِبَ عُرْسِها والعِيدَا

وَملاحماً دَفَعَتْ عَلى أنْجَادِها
غُرّاً تَسابَقُ للرَّدَى أوْ صِيدَا

وَكأنَّما رَهَبُ الخُشُوعِ يَهُزُّها
فَهَوَتْ لخالِقِها رِضاً وَسُجُودَا

يَا للشَّهَادَةِ فَتَّحَتْ أبوابَها
وجِنانَها ومَنَابِراً وشُهُودَا

أرأيْتَ أرْوَعَ مِنْ صَبِيٍّ لم يَزَلْ
عَبَقُ الطُّفُولَةِ مِن خُطَاهُ ورُودَا(١)

---

(١) إشارة إلى ما نشرتْهُ الصحف من أن العدو قتل طفلاً وهو يرشق العدوَ بالحجارة وعمره لا يزيد عن تسع سنوات فكان أصغر مجاهد في الميدان.



مَا جَازَ تسْعاً مِنْ نَضَارَةِ عُمْرِهِ
حتى تواثَبَ للرَّدَى صنديدَا

حَمَلَ الحِجَارَةَ لا يكاد يُطيقُهَا
حَملاً ولكنْ مَا أطَاقَ قُعُودَا

فإذا الجِهَادُ يَهُزُّهُ وَيُعِيدُهُ
رجلاً أبرَّ عَلى الجلاد شَديدا

وثبَتْ عَزائِمُهُ فألقتْ دُونَهُ
صَخراً تدَافَعَ في الزَّمان رُعُودَا

وَإِذا العَدُوُّ رؤى تطَايَرُ دُونَهُ
فَزَعاً وأشباحٌ جَرَيْن شُرُودَا

وَهْجُ اليَقِينِ عَلى جبينك هَالَهُ
والعَزْمُ يكشِفُ دُونَكَ الرِّعْدِيدا

فَرَمَى عَليكَ رَصَاصَهُ فَهَوَى بِهِ
وَعَلَتْ تنْفَحُ للحَيَاةِ خُلُودَا

وَتَدَفَّقَ المِسْكُ الزَّكيّ وإنَّهُ
دَفْقٌ يُفَتِّحُ للعَلاءِ نُجُودَا



وَعَلى مُحَيَّاهُ نَداوَةُ بَسْمَةٍ
وَدَمٌ يَزِيْنُ جبينَةُ والجِيدَا
فلتَسْمَعِ الدُّنيا دَوِيَّ جِهادِنا
شِيباً تَخُوضُ حِمَامَهُ وَوَلِيدا
وَرِجالُنا ونِسَاؤُنا، وطُفُولَةٌ
وَثَبَتْ لِتَزْأَرَ في البِطَاحِ أُسُودَا
عَهْداً مَعَ الرَّحمنِ نُوْفِي حَقَّهُ
لِيظَلَّ يَخْفُقُ في الزَّمَانِ جَدِيدَا
يَا «فَارِسَ» المَيْدَانِ! كُلُّ بُطولةٍ
وَقَفَتْ تحَيّي يَومَك المَحْمُودَا

* * *

يَا رَبْوَةَ الأَقْصَى! جَلالُك آيَةُ الـ
إسْلامِ تجلُو حقَّهُ المَشْهُودَا
فَبِكُلِّ رَابِيَةٍ طُيُوفُ صَحَابَةٍ
وبِكُلِّ مُنْعَطَفٍ ضَمَمْتِ نَجِيدَا



وبكـلُ مَيْـدانٍ تَــدُورُ مَـلاَحِـمٌ
حَمَـلَتْ لَكِ الإِسْـلامَ والتَـوْحيـدَا

وجَـلالَ إِسْـرَاءِ وعِـزَّةَ مُؤمِـنٍ
مَـلأَ الـزَّمَـان مَـوَاكِباً وجُـنـودا

دُرَرٌ تَأَلَّـقُ فـي الـذُّرى وكَـواكِـبٌ
طَلَعَـتْ تُـعِـيد عَـلى الزَّمَانِ جُدُودا

وتُعِـيدُ لأَلأَةَ الفُـتُـوحِ جَـواهِـراً
تُلْقَى عَلَيْكِ قَلائِداً وَعُقُــودَا

* * *

أمَرَابِـعُ الإِسْـلام تَغْفُو؟ والعِـدَى
شَـقُّوا دِيَارَ المُسْلِمِين حُـدُودَا

أجْـرَوا عَلى العُـنُـقِ الذَّليل شِفارَهُمْ
وسَقَوا مِنَ الخَدَرِ المُضِلُّ عَبِـيـداً

يا أُمَّةَ الإِسْـلام! كَـمْ مِـنْ خِـدْعَـةٍ
حَمَـلَتْ بِفِتْنَتِـهَا لَيَـالِيَ سُـودَا



كَمْ أبْرَمُوا عَهْداً إلَيك فَأخْلَفُوا
ورمَوا إلَيك عَداوَةً وجُحُودَا
هَلْ تأمنين؟! وكَيْفَ يُلْدَغُ مُؤْمِنٌ
والجُحْرُ ينفُضُ أسْوداً عِرْبِيدَا
أَلُدِغْتِ منه مَرَّةً أم مرّتَيـ
ـن؟! فَمَنْ غفَا عِنْدَ الأسَاوِدِ زِيدَا
لا تأمَني شَرَكَ العَدُوِّ فإنَّهُ
يَرْمِي به شَرّاً عَلَيكِ مُبِيدَا
ما الدَّار إلاَّ مُهْجَةُ الإسْلام يَخفِـ
ـقُ شوقُهَا عَهْداً عَلَيْكِ أكيدَا
مَنْ ذَا يُقَطِّعُ أرضَهُ وحُقوقَه
مَنْ ذا يُقطّع مُهجَةً ووَرِيدَا؟!

* * *

يا أُمَّةَ الإسْلام خُوضي جَوْلَةً
لله تَجْمَع من بَنِيكِ الصِّيدا
هذي فِلسّطينُ الجريحَةُ أرعَدَتْ
غَضَباً وَصَبَّتْ في البطَاحِ حُشُودَا



وجبالُ أفغانٍ تَميدُ كأنَّها الـ
ـبركَانُ ثارَ عَواصِفاً ورُعُــودَا

وبكُلِّ سَاحٍ من ديارك هَبَّــةٌ
شَقَّتْ لِمُنْطَلَقِ الغِلاب صَعِيدا

هَـلاَّ جَمَعْتِ عَلَى الهُدَى سَاحَاتِها
وجَمَعْتِ أفْئِدَةً بِها وزُنُــودَا

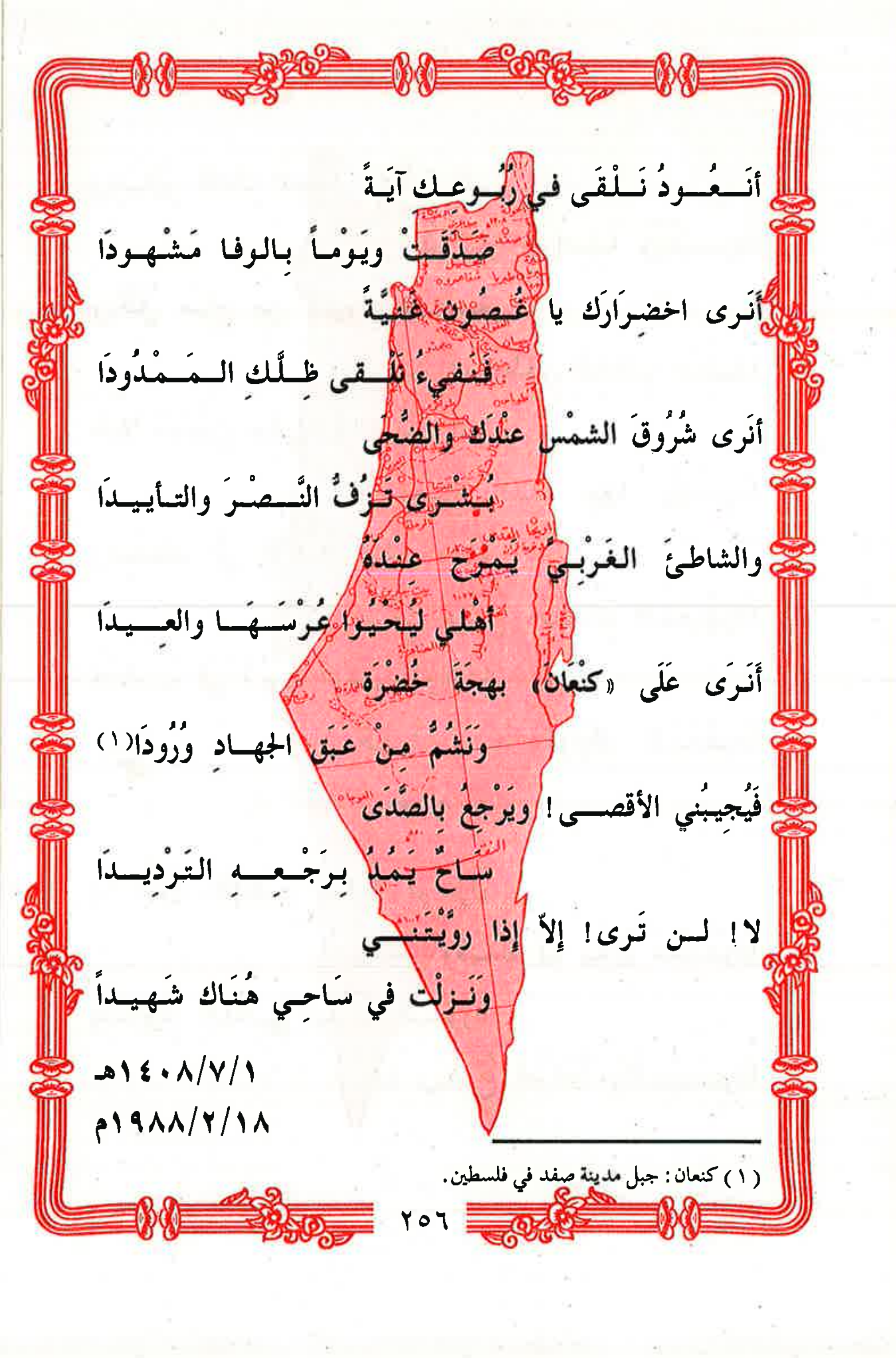
وَضَمَمْتِ في الأكْبادِ صَفْوَ بُنُوَّةٍ
ضَمّاً يَهيجُ حَنَانَكِ المَعْهُودَا

فَنُذِيبُ في لَـهَبِ الرَّدَى أشواقَنَا
طُهْراً يَشُدُّ لِوَاءَكِ المَعْقُودَا

* * *

يا رَبُوَةَ الأقْصَى إِسَارُكِ لم يَزَلْ
يَدْمَى وقَيْدُكِ لَمْ يَزلْ مَشْدُودَا

ونِداؤكِ الدّامي يَدُقُّ صُدورنا
دَقّاً ويَقْرَعُ أضْلعاً وكُبُــودَا



أنَــعُــودُ نَــلْقَى في رُبُــوعِـك آيَـةً
صَدَقَـتْ ويَـوْمـاً بالوفا مَشْهُـودَا

أَنَرى اخضِرَارَك يا غُـصُـونَ غَنيَّةً
فَنَفيءُ نَلْـقى ظِـلَّكِ المَـمْدُودَا

أنَرى شُرُوقَ الشمْسِ عِنْدَك والضُّحى
بُشْـرى تَـزُفُّ النَّـصْـرَ والتأييـدَا

والشاطئَ الغَرْبِـيَّ يَمْرَح عِنْدَهُ
أهْلي لِيُحْيُوا عُرْسَـهَـا والعِـيدَا

أَنَرَى عَلَى «كنْعَانَ» بهجَةَ خُضْرَة
ونَشُمُّ مِنْ عَبَقِ الجهَـادِ وُرُودَا[1]

فَيُجِيبُني الأقصـى! ويَرْجِعُ بالصَّدَى
سَاحٌ يَمُدُّ بِرَجْعِـهِ التَرْدِيـدَا

لا! لـن تَرى! إلاّ إذا رَوَّيْتَنـي
ونَـزلْت في سَاحِـي هُنَاك شَهِيـداً

١٤٠٨/٧/١هـ
١٩٨٨/٢/١٨م

---

(١) كنعان: جبل مدينة صفد في فلسطين.

شرف السلاح زنوده[1]

مع أحداث فلسطين المسلمة المحتلة

مع امتداد الأحداث في فلسطين، الأحداث التي ابتدأت مع منتصف شهر ربيع الثاني لسنة ١٤٠٨هـ، الموافق لليوم السادس من كانون الأول ١٩٨٧م، كان لا بدّ من أن تمتد الكلمة مع كل موقف. وقد مضى أكثر من ثلاثة أشهر حتى اليوم.

وقد تعددت المناسبات التي أخرجت أكثر من قصيدة، فكانت هذه القصيدة مع بعض هذه المناسبات. ومع كل مناسبة ندعو الله أن تمضي الانطلاقة خالصة لوجه الله، لا ترفع إلاّ شعار: فلسطين أرض الإسلام لا تتمزق ولا تتجزأ.

إنها أمنيات وآمال نصفها في هذه الأبيات فهل تتحقق؟!

---

(١) نشرتها: مجلة الفيصل في عددها (١٣٣) في رجب ١٤٠٨هـ (فبراير ١٩٨٨م).



شَرَفُ السِّلاحِ زُنُودُه، ولَهيبُهُ
قَلْبٌ يَصُبُّ مِنَ الوَفاءِ الجُودا
وعَقيدةٌ تَهَبُ الحَياةَ لمُؤمنٍ
بَذَلَ الحَياةَ لَها فكانَ شَهيدا



شرف السلاح زنوده

ادْفَعْ عَلى لَهَب الدِّماءِ نَجيدا[1]
واجْعَلْ نِزالَكَ في المَلاحِمِ عِيْدَا

وارْفَعْ نِداءَكَ في البِطاحِ زَلازِلاً
فَجِّرْتَهـا وَعَواصِفاً وَرُعُـودا

ومِن الدَّمِ الفَوَّارِ فاسْكُبْ دَفْقَةً
تَهَبُ الحَياةَ النُّورَ والتجْديدا

وابْعَثْ بِوَثْبَتِكَ الأبيَّة أُمَّةً
ومِنَ القُبورِ المُلْهِماتِ جُدُودا

وانزلْ إلى السَّاحَاتِ إنَّكَ فَيْلَقٌ
جَعَلَ المُدَجَّجَ دُونَهُ رِعْديدَا

* * *

---

(١) النجيد : الشجاع الذي يمضي، شديد البأس.



مَنْ للظَّلاَمِ يَشُقُّهُ ويُزيحُهُ
عَنَّا وقَدْ لفَّ الرُّبى والبيْدَا

سَكَتَتْ مَدَافِعُنا فَهَات حِجَارَةً
تَجْعَلْ مَوَاقِعها لظىً وحَدِيدا

شَرَفُ السِّلاحِ زُنُودُهُ، ولَهِيبُهُ
قَلْبٌ يَصُبُّ مِنَ الوَفَاءِ الجُودَا

هذي الحِجَارَة أرْعَدَتْ! أسمعتها
تَنْقَضُّ تَسْحَقُ صَخْرَةً وسُدُودا

فانْشُرْ بِهَا أَلْق الزَّمان كواكباً
وَارْفَعْ بِهَا قِمَماً وَشُقَّ نُجُودا

* * *

وَفَتىً مُحَيَّاه طلائعُ أُمَّةٍ
وَرَجَاؤها، بَعَثَ الرجَاءَ جَدِيدَا

النُّورُ مِنْ قَسَماتِهِ، والصِّدْقُ
في عَزَمَاتهِ يُورِي قَناً وزُنُودا



والبَـرْقُ مِـنْ وثَـبَاتـهِ خَطَفَ القُـلُو
بَ فَمَـا تَـرَى إلاَّ هُنَـاكَ طَريـدَا

فَانْزِلْ إلى الميْدانِ وثْبَةَ مُؤْمنٍ
واحْمِلْ جَلاَءَ النَّهْجِ والتَّوْحيدا

يَا سَاحَةَ الإيمانِ؟ كيـفَ يسُومُها
مَنْ كانَ يَصدُقُ للإلهِ عُهُودا

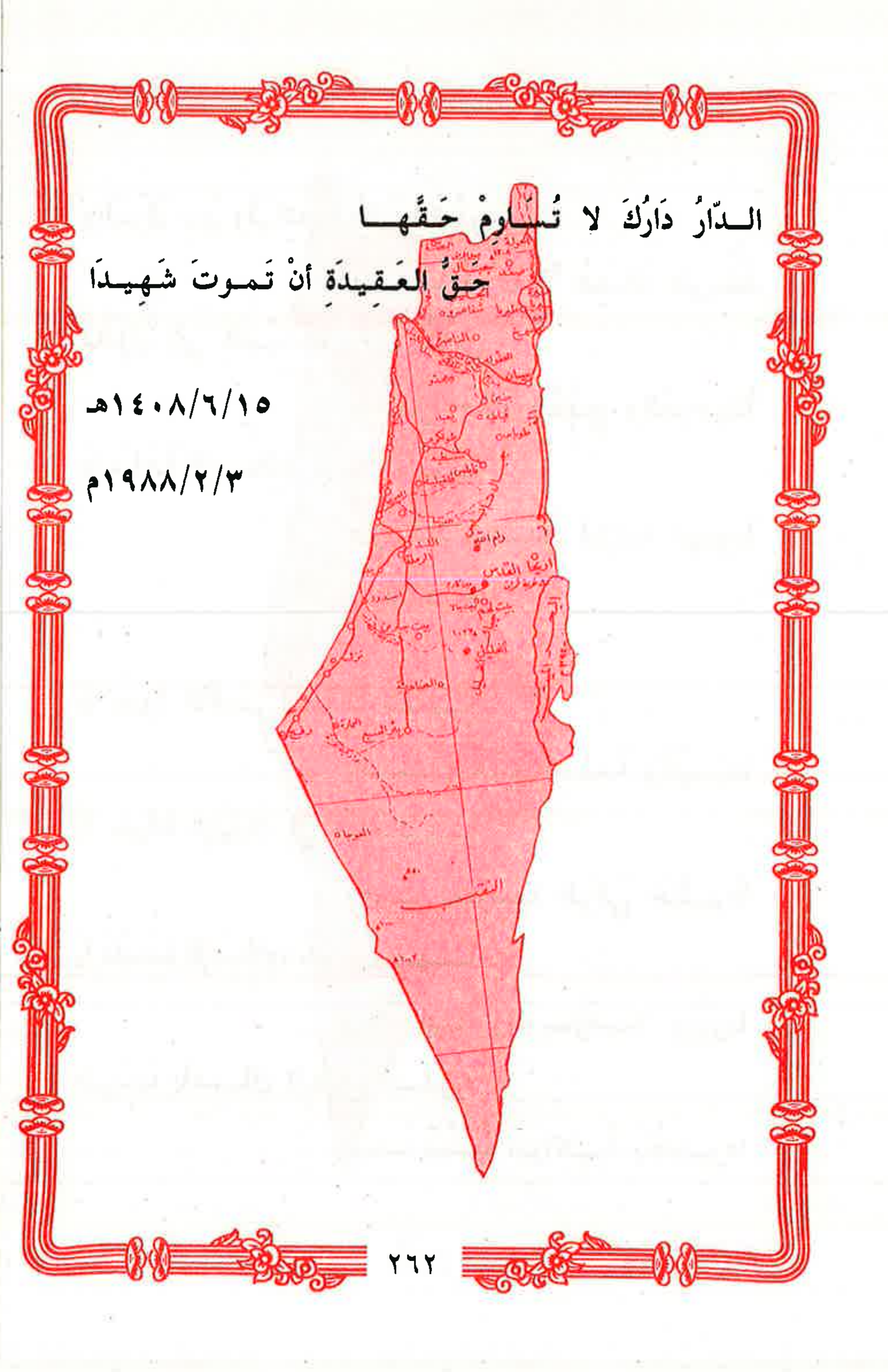
* * *

يَا رَبْوةَ الأقْصَى! هَواكِ مضمَّخٌ
بالمِسْكِ هَيَّجَ أضْلُعاً وَكُبُودا

يَا جَوْلَةَ الإيْمَان في سَاحَاتِـهَا
وَهَبَتْ لفارِسِها الوَفيِّ خُلُودَا

يَا نَفْحَةَ الإسْلام! مَدَّ مُرُوجَهَا
وحُقُولها وثِمَارَهَا ووُرُودا

ضَرَبَتْ بأعماق البِطَاحِ جُذُورَه
دِيناً يَمُدُّ مَواكِباً وَجُنُودا



الـدّارُ دَارُكَ لا تُسَاوِمْ حَقَّهـا

حَـقُّ العَـقِـيدَةِ أنْ تَـمـوتَ شَـهِـيدَا

١٤٠٨/٦/١٥هـ

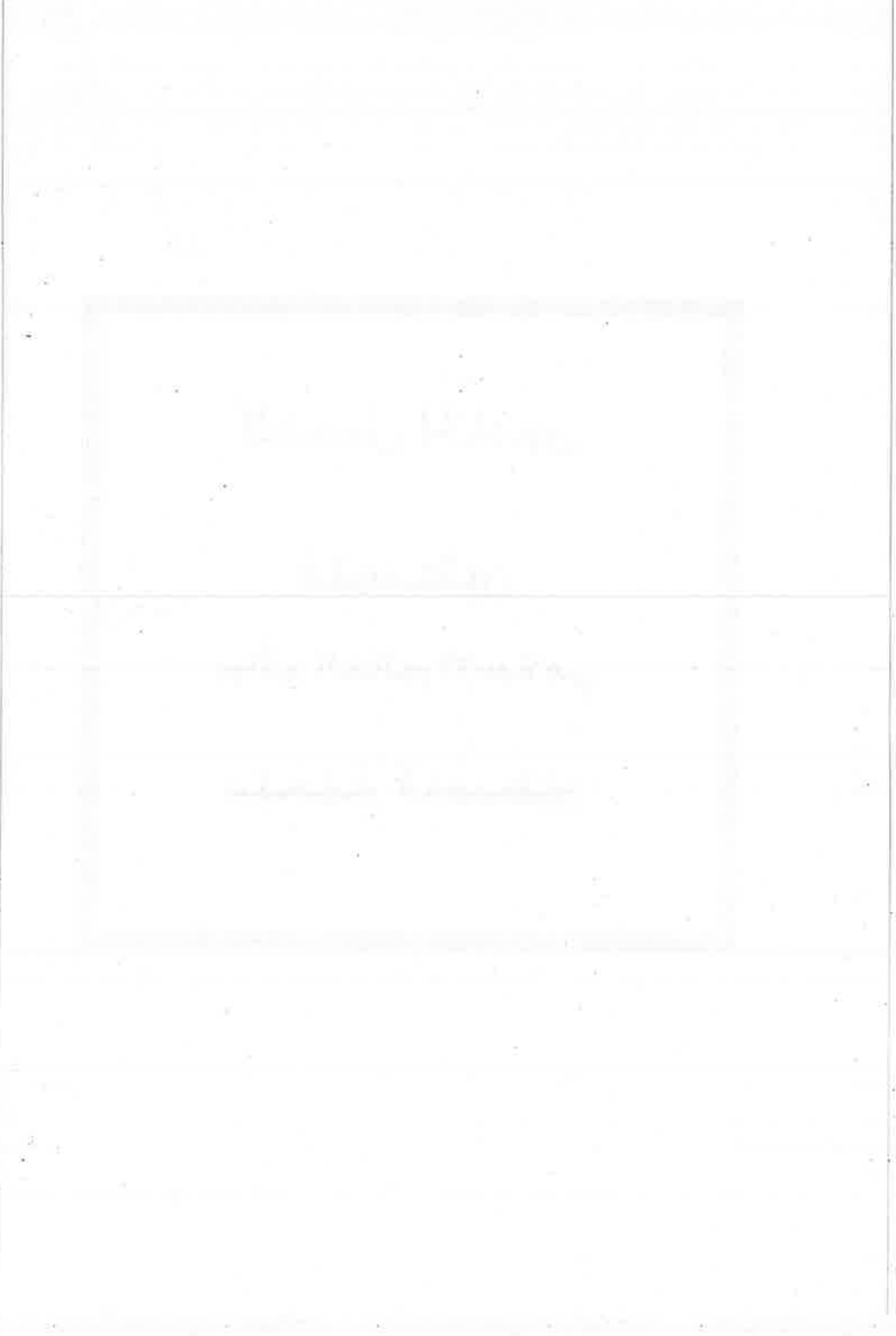
١٩٨٨/٢/٣م

الفصل الخامس

فلسطين

وواقع العالم الإسلامي

ملحمة فلسطين



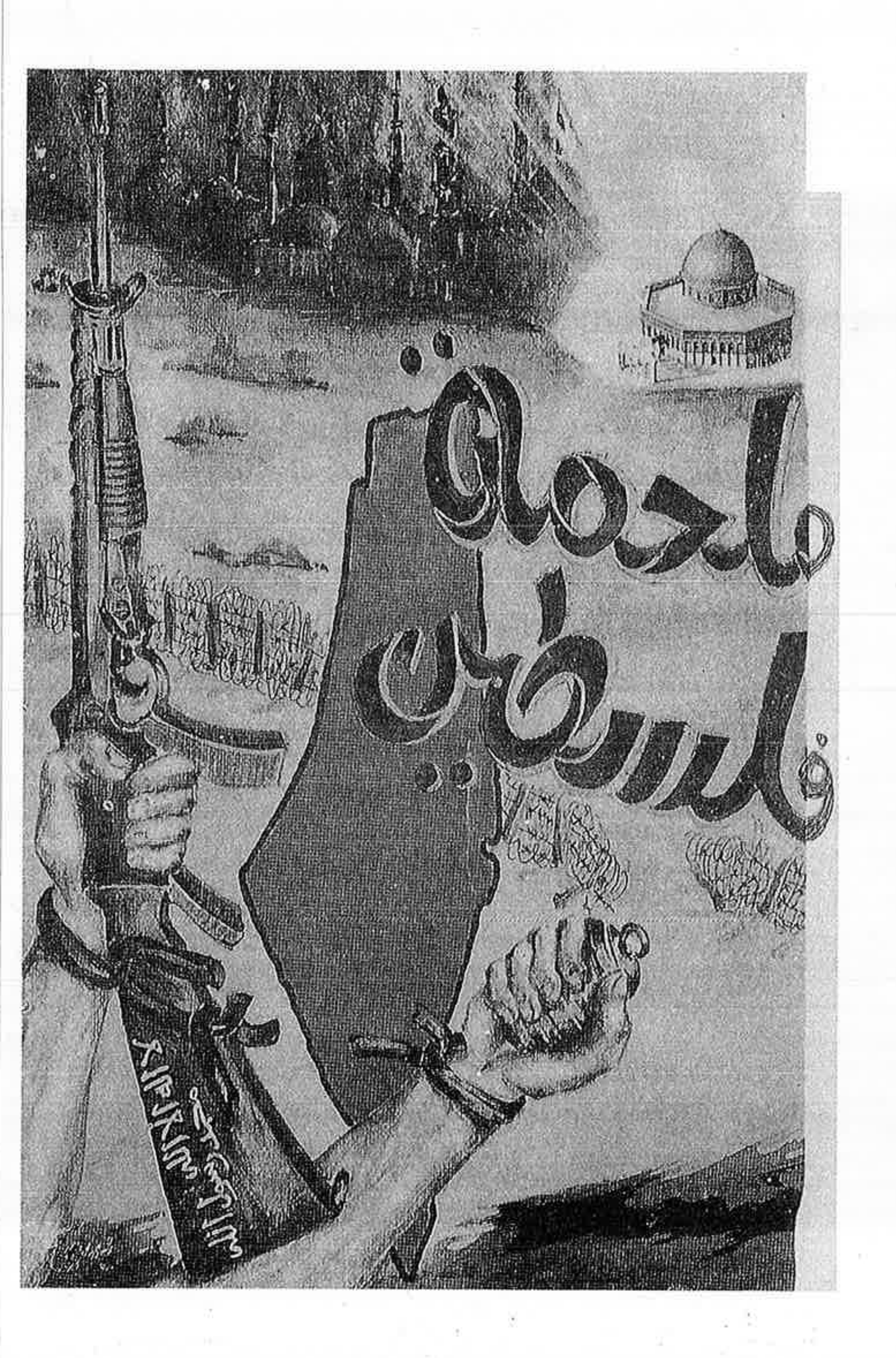
ملحمة فلسطين[1]

مع هذا اليوم المبارك، اليوم الأول من شهر رمضان المبارك لعام ١٤٠٨هـ، الموافق ١٧/٤/١٩٨٨م، يكون قد مضى على الانتفاضة في فلسطين أكثر من مائة وخمسة وثلاثين يوماً، وهي تزداد عنفاً ودماً. وقد دعيت لإلقاء محاضرة عن قضية فلسطين في دبي ورأس الخيمة في دولة الإمارات في ١ رمضان ١٤٠٨هـ (١٧ نيسان (إبريل) ١٩٨٨م)، ووضعت هذه القصيدة، وأسميتها كذلك ملحمة فلسطين، وجعلت من هذا الاسم عنواناً للكتاب والبحث والقصيدة.

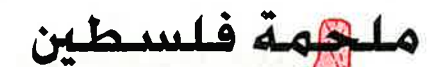
ومع مضي هذه الأيام كشفت الانتفاضة عن صور كريمة من البطولة، تدعو الأمة المسلمة كلها لتتآخى وتتحد، ولتنهض حتى تؤدي واجبها قبل أن تضيع فلسطين. نقف أمام ذلك كله لنحيي القلوب المؤمنة المتصلة بالله، ولنؤكد أن النهج الإيماني يجب أن يبدأ بالنية، ويرسم الدرب خطوة خطوة ويحدد الأهداف، وهو نهج تحتاجه أمتنا كلها، وبغير ذلك لا يتحقق نصر في الميدان أبداً.

---

(١) نشرتها: الوطن الكويتية في عددها (٤٧٩٣) في ١٠/١٢/١٤٠٨هـ (٢٤/٦/١٩٨٨م). ومجلة الدعوة السعودية في عددها (١١٥١) في ١٩/١٢/١٤٠٨هـ (١/٨/١٩٨٨م). ومجلة البلاغ في عددها (٩٥٦) في ١٦/١/١٤٠٩هـ (٢٨/٨/١٩٨٨م).


ملحمة
فلسطين

ملحمة فلسطين



تَـمُـوجُ الـمَـنَـايا حَوْلَـهُ والـمَلاَحِـمُ
وتَـزأرُ مِنْ هَـوْلِ اللِّقَـاءِ الضَّـرَاغِـمُ

وَتَرْجِـعُ في الـسَّاحَاتِ أَصْـداءُ أُمَّةٍ
وتَنْهَـضُ أَمْجَادٌ لَهَا وَعَـظَائِـمُ

فَـهَلْ وَثَبَتْ مِنْ كُلِّ نَادٍ كَتِيبَـةٌ
فَزَلْزَلَ مِنْ شُـمٌ الرَّوَاسي زَمَازِمُ[1]

هَـلِ انتَفَضَ التَّارِيخُ ثُمَّ تَواثَبَتْ
عَـلَى السَّاحِ أَشْوَاقُ الهُدَى والعَزَائِمُ

أَحَقـاً تَـرَى! أَم أَنَّ هذي طيوفُهـا
يَحُومُ بِهَا شَـوْقٌ مِنَ القَلْبِ حالِمُ؟!

أفاقَ! فَمَا يَلْقَى عَلَى السَّاحِ غَيْرَهُ
وإلاّ الصَّدَى غابَتْ عليه الرَّواسِمُ[2]

---

(١) الزمازم: ج زَمْزَمَة وهي صوت من بعيد له دويّ.

(٢) الرواسم: الآثار الباقية من الديار.

كَـأَنَّ الـذي يَـلقـاهُ أَطيَـافُ فَـيلقٍ

تَـدَافَـعُ مِن أَجْداثِـــهَـــا وتَـزَاحَـمُ

تَـلَفَّـتَ! أَيْـنَ الأهْـلُ والعَـهْـدُ والوَفَـا

وأَيـن جُـيُـوشٌ في الدِّيارِ خَضَارِمُ[1]؟!

ونَـادَى! وأَصْـدَاءُ النِّـدَاءِ خَـفـيَّـةٌ

ودَوَّى! وأَصْـدَاءُ الـدَّوِيِّ غَمَاغِمُ[2]

تُغَـيِّـبُـهُ الآفـاقُ والـدَّارُ والـرُّبَـى

وتَـطْـويـه سـاحـات بِـهَـا وعَـوَاصِـمُ

ونَـادَى! وأَيْـنَ الكَـاسِـحَاتُ ومِـدْفَـعٌ

وأَيْـنَ الـقَـنَـا مِـنِّـي وأَيْـنَ الصَّوَارِمُ؟![3]

فلـم يَـلـقَ إلا كَـوْمَـةً من حِـجَـارَةٍ

وصَـيْـحَـةَ أَجْـداثٍ تَـقُـولُ هُـنَـا هُـمُ

---

(١) خَضَارِمُ: ج خِضْرِم وهو العظيم الكبير من كل شيء.

(٢) غماغم: ج غمغمة وهي الصوت المختلف.

(٣) الصوارم: ج صارم وهو السيف القاطع.



تطَايَرَتِ الأحْجَارُ في كفِّه قَناً
وأرعَد منها سَاحَةٌ وغمائِمُ

فَهَلْ لِنْتَ لي يا «صخرُ»! ما أروَعَ الوفا!
وَمَا لانَ لِيْ قَلْبٌ ولا هو راحمُ

أتَبْلُغُ يا «صَخْرُ» المواقِع كُلَّها
ومَا بلَغتْها أعْيُنٌ وقوائِمُ؟!

أتسْمَعُ مِنّي أيُّهَا الصَّخْرُ صَيْحتي
وحَوْلِي لَو تدري أَصَمٌّ ونائمُ؟!

فَلاَ أُذُنٌ تُصْغي وَلاَ أعينٌ تَرَى
وَلا أضْلُعٌ حَنَّتْ وَلا أنا سَالِمُ

نَطَقْتَ! فَمَا أعلَى بَيانَكَ إِنَّهُ
دَوِيٌّ وَعَتْبُهُ في النَّوادِي الأعَاجِمُ

وزَلْزَلَ أرْكَانَ الطُّغَاةِ وَجَمْعَهُمْ
وَمَادَتْ عليهم مِنْ نِدَاكَ الدَّعائمُ

* * *



وَأقْبَلَ! والأَعْدَاءُ دَفْقُ جَحَافِلٍ
وحَشْدُ مَوالٍ حولَهُمْ وسوائِمُ(١)

وَأرْتَالُ آلاتٍ كَأنَّ دَوِيَّها
عَلَى الأُفْقِ بُرْكَانٌ لَهَا وَغواشِمُ(٢)

تَلَفَّت! نَادَى! لمْ يَجِدْ غَيْرَ صَخْرةٍ
رَمَاهَا! فَطارَتْ في السَّمَاء القَشَاعِمُ(٣)

وَهَبَّتْ عَلَى الأعْداءِ مِنهَا عَواصِفٌ
وَزَمْجَرَ آسَادٌ وَثَارَتْ ضَيَاغِمُ(٤)

أنا الصَّخْرُ! لا كَانَتْ عُهُودٌ تَشُدُّني
إذا لَمْ تُفَلَّقْ مِنْ عَدُوِّي الجَمَاجِمُ

وَلا كُنْتُ صَخْراً مِنْ رُبُوعٍ تَبارَكَتْ
إذا لَمْ تُغَيِّبْني الدِّما والحَيَازِمُ(٥)

---

(١) السوائم: ج سائمة وهي الإبل الراعية إشارة إلى اعوان اليهود من أسياد لهم أو عبيد لهم ومن أناس كالإبل الراعية.

(٢) غواشم: ج غاشمة وهي من الغَشم وهو الظلْم.

(٣) القشاعم: ج قَشْعَم وهو النسر الطويل العمر. وسميت المنية أم قشْعَم لطول عمرها.

(٤) ضَياغم: ج ضَيْغَم وهو الذي يعض، والأسد.

(٥) الحيازم: ج حيزوم وهو ما استدار من البطن وضلع الفؤاد.



إذا سَكَتَتْ مِنَّا المدافعُ إنَّني
تَدِيرٌ تَلَظَّى في الوَغَى لا أُسَالِمُ

سَتَعْرِفُني يَومَ النِّزَالِ مَواقِعٌ
وتَعرِفُني بَيْنَ البِطَاحِ المَلاحِمُ

سَيَحْفَظُني عَهْدٌ مِنَ اللهِ صَادِقٌ
وحَقٌّ مع الأيّام مَاضٍ وقائِمُ

لِمَلْحَمةٍ كُبْرَى تَدور وآيةٍ
مِن الحَق تُجْلَى في سَناهَا المعَالِمُ

ويُنطِقُني فيها على الحَقِّ خَالِقي
وتَنْطِقُ أشجارٌ بِهَا ورَوَاجِمُ

لنشْهَدَ هذا مُجْرِمٌ ومُخَاتِلٌ
هُنا ويَهُوديٌّ تَوارَى وغاشِمُ

فَنَدْعُوكَ! عَبْدَ اللهِ! فاقْتُلْهُ إنَّهُ
عَدُوٌّ وشَرٌّ للخَليقَةِ جَاثِمُ

فَما أنا إلا في سِلاحِكَ آيَةٌ
ومَا أنا إلا مُنْذِرٌ عَنْك حَازِمُ



فَجمِّعْ عَلَى السَّاحِ العَدِيدَ وَعُـدَّةً
فَما الحَـرْبُ إلا عُدَّةٌ وعَزائِـمُ

وَعُدْ، إنْ صَدَقْتَ اليَوْمَ، باللهِ وَحْدَهُ
فَما لَكَ إلا اللهُ مِنْ ذاكَ عَاصِـمُ

* * *

وَأَقْبَلَ! والسَّاحاتُ نارٌ تَأجَّجَتْ
وَزَحْـفٌ عليـهِ مُـطبقٌ وَمُـهَاجِـمُ

تَلَفَّتَ! هَلْ لِي خِـنْجرٌ فَأُدِيرُهُ
إذا جَـدَّ مِنِّي في النِّـزالِ التَلاحُمُ

وَهَلْ لِي سِلاحٌ مُنْجِدٌ لا يَخُونُنِي
وعَهْدٌ عَلَى الأيَّامِ صَافٍ وَدائِـمُ

وَهَلْ أَنْتَ في البأساءِ يا «صَخْرُ» مُنْجدِي
إذا شَغَلَتْ أهْلِي الهُمُومُ الدَّوَاهِمُ[1]

---

(١) الدواهم: ج داهمة، من دَهِمَ: غشي.



بَكَى مِنْ أسىً لمَّا رأى ذُلَّ حَيْرَتي

وفاضتْ على الصَّخْرِ الدُّمُوعُ السَّواجِمُ[1]

أتَبْكي ! وَقَدْ كُنْتَ الَّذي لانَ قَلْبُهُ

عَلَيَّ وَفَاضَتْ مِنْكَ عَنّي التَّراجِم

بَكَيْتُ لأني قَدْ رَأيْتُ مَرَابِعاً

وَقَدْ هُتِكَتْ أعْراضُهَا وَالمَحَارِمُ

وَمَا انْتَفَضْت دارٌ ولا هبَّ ضَيْغَمٌ

ولاَ حَمْحَمتْ بَينَ البِطَاحِ الصَّلادِمُ[2]

بكَيْتُ لأني قَدْ رأيْتُ مَوائداً

هُنَاكَ وأشْبَاهُ الرِّجَالِ سَوَاهِمُ

رَأيتُ «بُطوناً» أتْخِمَتْ وسَوَاعِداً

تَرَاخَتْ وعَقْلاً غَيَّبَتْهُ النّواعِمُ

وَكَأْساً كَأنّ المَوْتَ في رَشَفَاتِه

يَمِيلُ بِهِ رأسٌ وتَهْوِي مَكَارِمُ

---

(١) السواجم: الدموع التي تسيل كثيراً.

(٢) الصلادم: ج صِلدِم وهي الفرس الشديدة والصلبة القوية.



بَكَيْتُ «ومَاخُورٌ» يَضجُّ وَفتْيَةٌ
تَهَاوَتْ وَرِجْسٌ مِنْ خَنـاً وَمَآثِـمُ

وَغِيْدٌ كَأنّ الشّوْقَ بَيْنَ عُيُونِها
لهِيبٌ، فَلاهٍ بَيْنَهُنَّ وَحَالِـمُ

فَتُلقَى عَلَى أعْناقِهِنَ لآلِـئٌ
وَتُنْثَرُ مَا بَيْنَ النُّهودِ الدَّارهِم

ويُسْحَقُ عَارٍ في الأزِقَّةِ جَائِـعٌ
ويُسْحقُ مِسْكِينٌ هُناكَ وهَائِـمُ

فَضاعَتْ مُرُوءاتُ الرِّجَالِ وَغُيِّبَتْ
كَأنَّ بَني الإنسانِ فِيها بَهائِمُ

بَكَيْتُ لأَنّي قَدْ رَأيْتُ ذَوي الحِجَا
يَكَادُ الهَوَى يَهْوِي بِهِمْ وَيُدَاهِمُ

أَضَرَّ بِهِمْ حُبُّ الحَيَاةِ وأفْسَدَتْ
مَنَاهِجَهُمْ أَهواؤهُمْ والتَخاصُمُ

بَكَيْتُ لأَنّي قَدْ رأيْتُ وَلاءَنا
تَداوَلَهُ أَعْدَاؤُنا والسَّوَائِمُ



فَهـذا مَعَ «الشَّرْقِ» الـذي هُوَ كَافِرٌ
وَهـذا مَعَ «الغَرْبِ» الـذي هـو ظَالـمُ

وَهَـذا مَعَ الأهْـوَاءِ في كُلِّ مَحْفَلٍ
يُداري «زُعِيماً» أو يُدَارِيِـه حَاكِـمُ

ولا يَصْدُقُ النُّصْحَ الكَرِيمَ مُنَافِـقٌ
ذِئَابٌ تُعَـوِّي أَوْ تَفُـحُّ الأَرَاقِمُ[1]

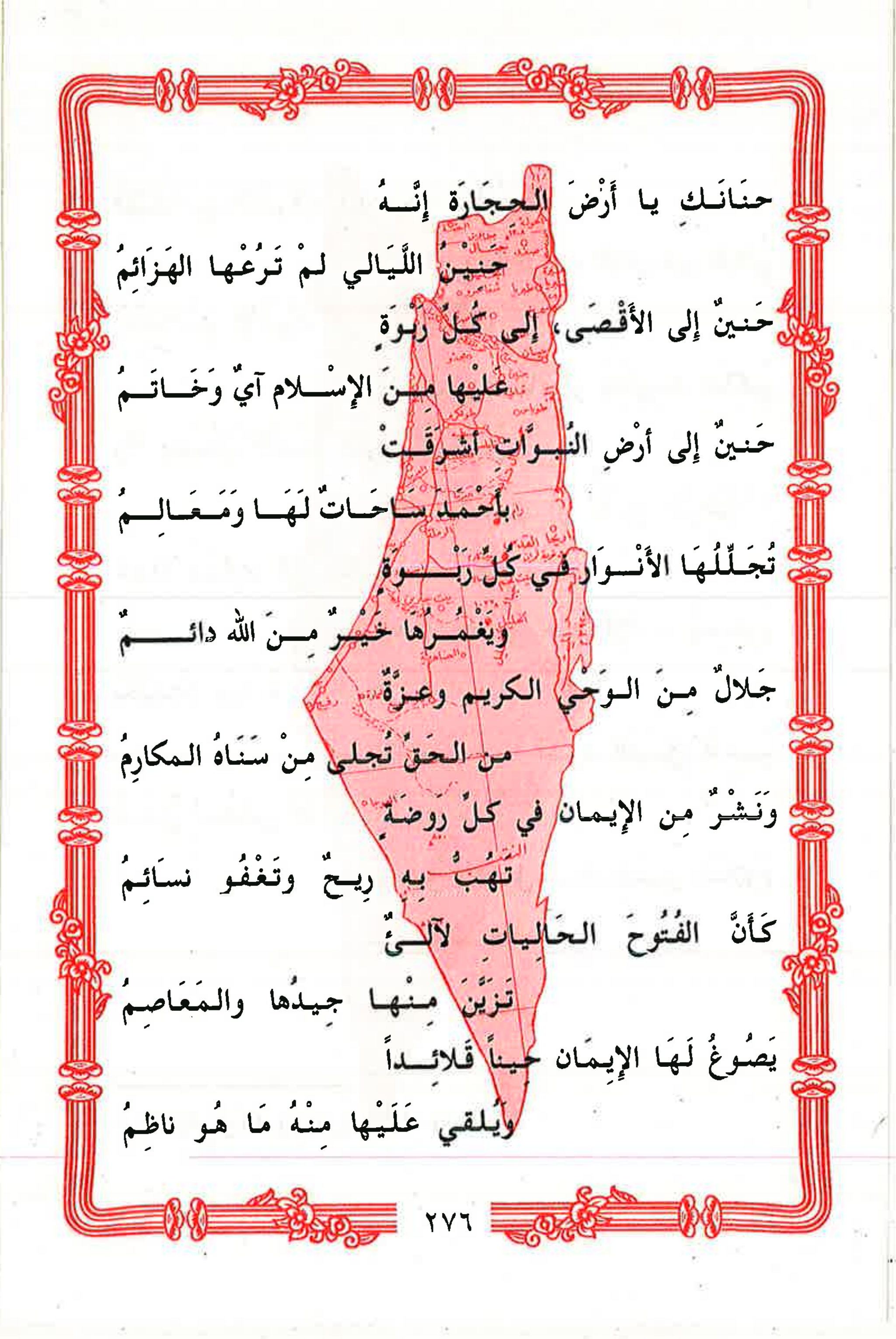
فـهذا يُمَارِي في جَلاءِ قَـضِيَّـةٍ
وَهـذا عَلـى حَقّ الإلـهِ يُسَاوِمُ

بَكَيـتُ! وَيَا هَوْلَ البَلاءِ! أَمَامَنـا
إذا ما غَفَوْنا أَسْوَدُ اللَّيْـلِ فاحِـمُ

فَحَقٌّ لِمِثْلي أن يَصُبَّ دُمُوعَـهُ
وَحَقٌّ لأَهْـلِ الـخافِقَين التَّلاوُمُ

* * *

(١) الأَرَاقِم: ج ارقم وهي نوع من الحيات وهي اخبثها.



حنَانَـكِ يا أَرْضَ الحجَارَة إِنَّـهُ
جنيـنُ اللَّيَالي لـمْ تَـرُعْها الهَزَائِمُ
حَنـينٌ إِلى الأَقْصَى، إِلى كُـلِّ رَبْـوَةٍ
عَليْها مِـنَ الإِسْـلام آيٌ وَخَـاتَـمُ
حَنـينٌ إِلى أرْضِ النُبـوَّات أشرَقَـتْ
بأَحْمَدَ سَاحَـاتٌ لَهَـا وَمَـعَـالِـمُ
تُجَـلِّلُهَا الأَنْـوَارُ في كُلِّ رَبْـوَةٍ
ويَغْمُـرُهَا خَيْـرٌ مِـنَ اللهِ دائـمٌ
جَـلالٌ مِـنَ الـوَحْيِ الكريم وعِـزَّةٌ
مِن الحَقِّ تُجلى مِنْ سَنَاهُ المكارِمُ
وَنَشْرٌ مِن الإِيمان في كُلِّ رَوضَةٍ
تَهُبُّ بِهِ رِيـحٌ وتَغْفُو نسَائِمُ
كَأَنَّ الفُتُوحَ الحَالِيات لآلِـئٌ
تَزَيَّنَ مِـنْها جِيدُها والمَعَاصِمُ
يَصُوغُ لَهَا الإِيمَان حِيناً قَلائِـداً
ويُلقي عَلَيْها مِنْهُ مَا هُو ناظِمُ



وَيَنْثُرُ حِيناً عَبْقَرِيَّ جَواهِرِ
فتزهو رَوابٍ عِنْدها ومَحَارِمُ

* * *

ويا شَجَرَ الزَّيتُونِ أين اخضرارُه؟!
ويا غَرْسَةَ اللَّيْمُون أَيـنَ البَرَاعِمُ؟!
وَيَا نَفَحَاتِ البُرتُقَالِ! إذا سَرَتْ
تحدَّثَ تَارِيخٌ ودَارَتْ مَلاَحَمُ
وَيَا زَهْرَةَ اللّوزِ التي كان عندها
صباي فكم حَنَّتْ إِلَيْكِ الحَمَائِمُ؟!
وَيا شَجَرَ العنَّاب! مِلءُ عُروقِه
دَمٌ سَكَبْتهُ في البطاح اللَّهَاذِمُ[1]
وَنَادَيْتُ أَيْنَ الرَّوضُ والوَرْدُ وَالشَّذَا
فَهبَّ مِنَ الأنجاد لاحٍ ولائِمُ
تلفَّتَ زيتونٌ ومَالَتْ غَرائسٌ
وأقبَلَ من كُلِّ البِطاحِ سَواهِمُ

---

(١) اللهاذم: جمع لهذم وهو القاطع من الأسنّة.



وقالوا تركْنَا كُلَّ عِطْرٍ وخُضْرةٍ

وجَفّتْ يَنَابيعٌ وجَفَّتْ بَرَاعِمُ

تَرَكْنَاهُ حتى يَسْتعيد رُواءَه

شَهيدٌ وتُروى مِنْ دِمَاهُ الرَّمَائِمُ(١)

وتنزلَ للمَيْدانِ أُمّةُ أحْمدٍ

لَهَا في الوَغى عَهْدٌ مَعَ اللهِ لازِمُ

تدُورُ على المَيدان أعراسُ أُمّةٍ

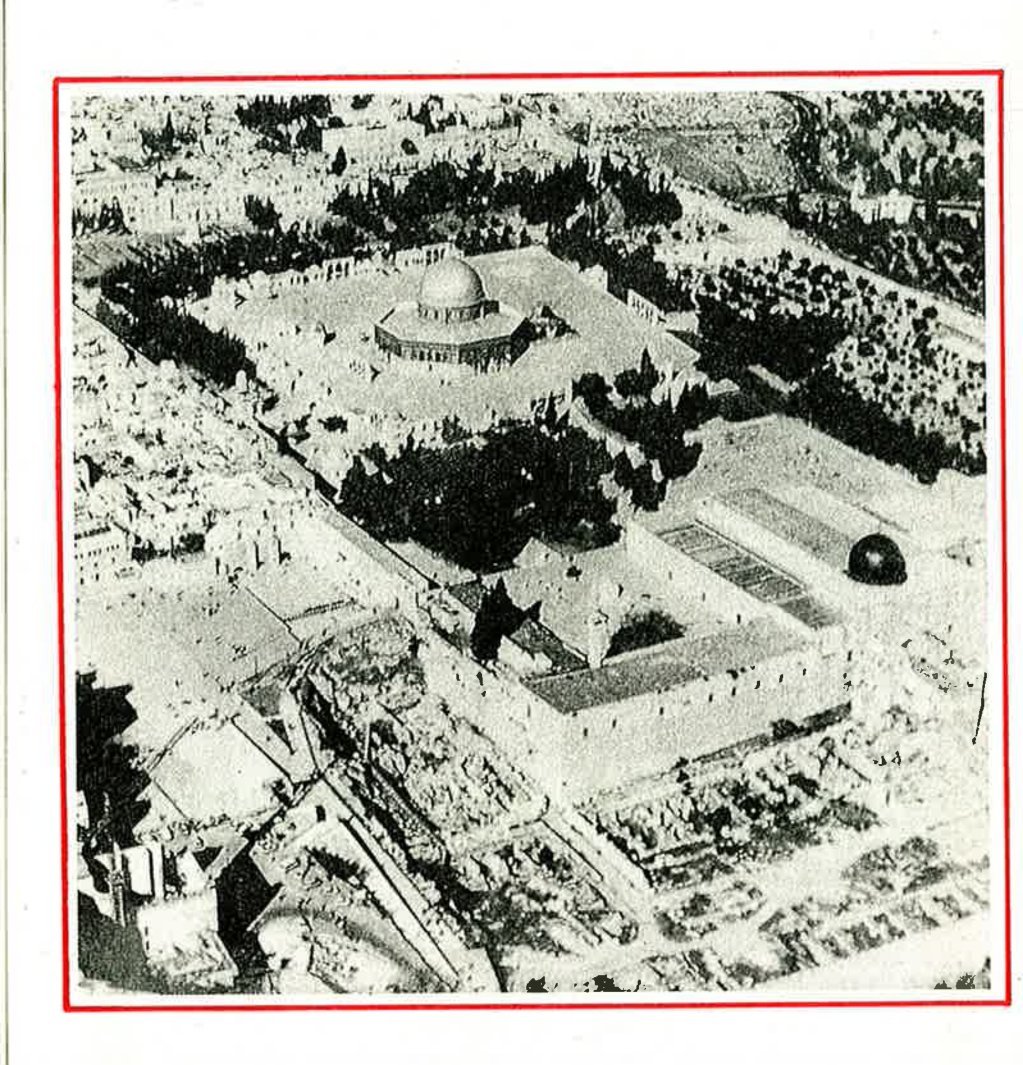
وتُطْوى مآسٍ عندها ومآتمُ

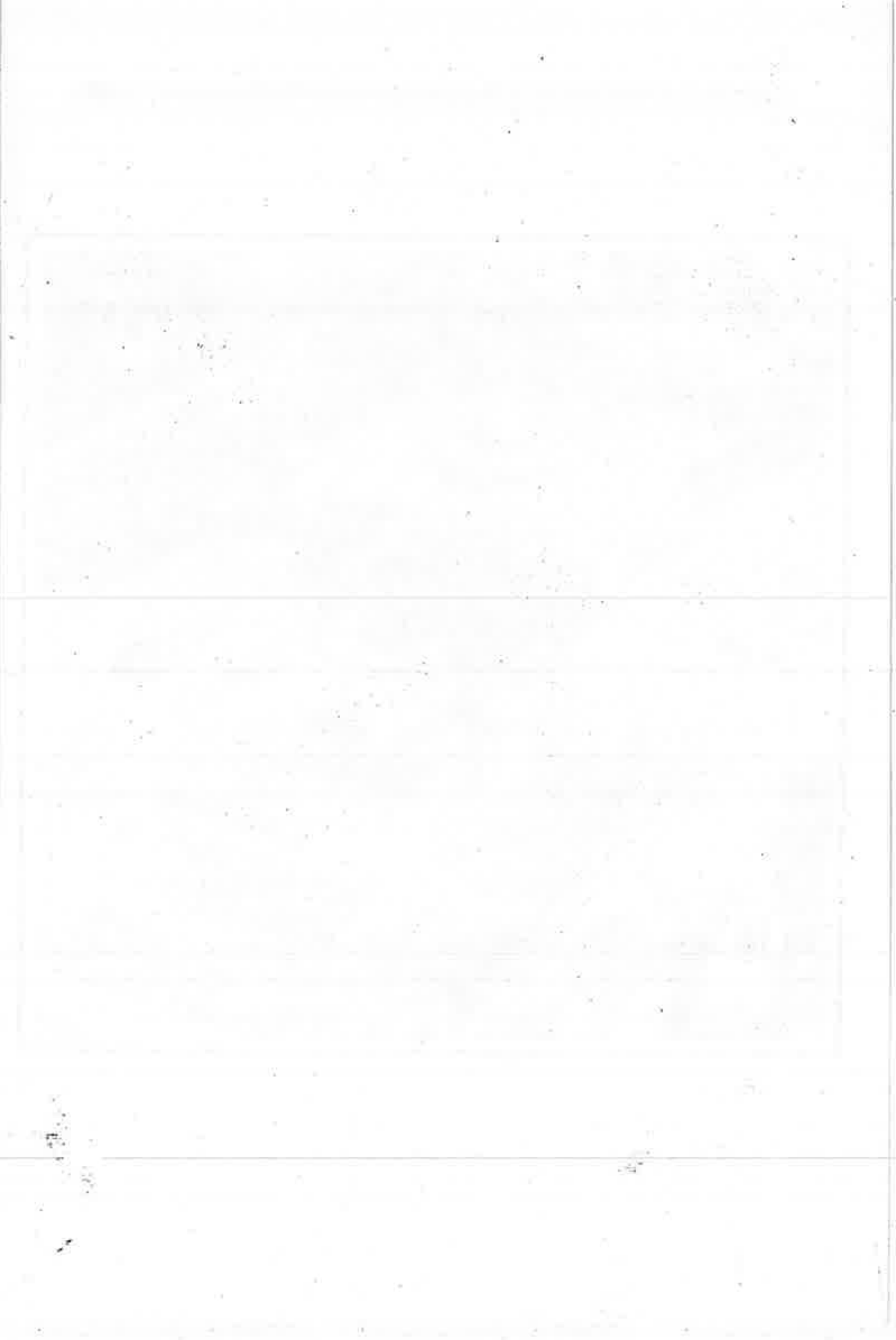
٢٩/٨/١٤٠٨هـ

١٦/٤/١٩٨٨م

---

(١) الرمائم: ج رميمة وهي البالية من العظام. وهي إشارة إلى أنه تكثر الدماء حتى ترتوي العظام البالية في القبور.





الفهرس

• • •

• كتب للمؤلف •

اسم الكتاب

الدعوة الإسلامية

(١) دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية ـ ط ٦

(٢) الشورى وممارستها الإيمانية ـ ط ٣

(٣) الشورى لا الديمقراطية ـ ط ٤

(٤) لقاء المؤمنين ـ الجزء الأول ـ ط ٤

(٥) لقاء المؤمنين ـ الجزء الثاني ـ ط ٢

(٦) لقاء المؤمنين ـ الجزء الأول مترجم إلى اللغة التركية ـ ط ١

(٧) منهج المؤمن بين العلم والتطبيق ـ ط ٣

(٨) منهج لقاء المؤمنين ـ ط ١

(٩) النهج والممارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية ـ ط ٤

(١٠) العهد والبيعة وواقعنا المعاصر ـ ط ٣

(١١) التوحيد وواقعنا المعاصر ـ ط ٢

(١٢) نهج الدعوة وخطة التربية والبناء ـ ط ٢

(١٣) الولاء بين منهاج الله والواقع ـ ط ٢

(١٤) النية في الإسلام وبعدها الإنساني ـ ط ١

(١٥) خطة الداعية "The Caller's Plan" ـ باللغة الإنجليزية ـ ط ١

(١٦) الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام ـ ط ٢

(١٧) أضواء على طريق النجاة ـ ط ١

الأدب الإسلامي

(١) الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ـ ط ٣

(٢) الحداثة في منظور إيماني ـ ط ٤

(٣) تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها ـ ط ٢

الدواوين الشعرية

(١) ديوان الأرض المباركة ـ ط ٦

(٢) ديوان موكب النور ـ ط ٤

(٣) ديوان جراح على الدرب ـ ط ٣

(٤) ديوان مهرجان القصيد ـ ط ١

الملاحم

(١) ملحمة الغرباء ـ ط ٣

(٢) ملحمة القسطنطينية ـ ط ٣

(٣) ملحمة الجهاد الأفغاني ـ ط ٣

(٤) ملحمة فلسطين ـ ط ٥

(٥) ملحمة الأقصى ـ ط٢

(٦) ملحمة الإسلام في الهند ـ ط ٢

(٧) ملحمة البوسنة والهرسك ـ ط ٢

الواقع الإسلامي

(١) على أبواب القدس ـ ط ٢

(٢) الصحوة الإسلامية إلى أين ـ ط ٣

(٣) فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع ـ ط ٤

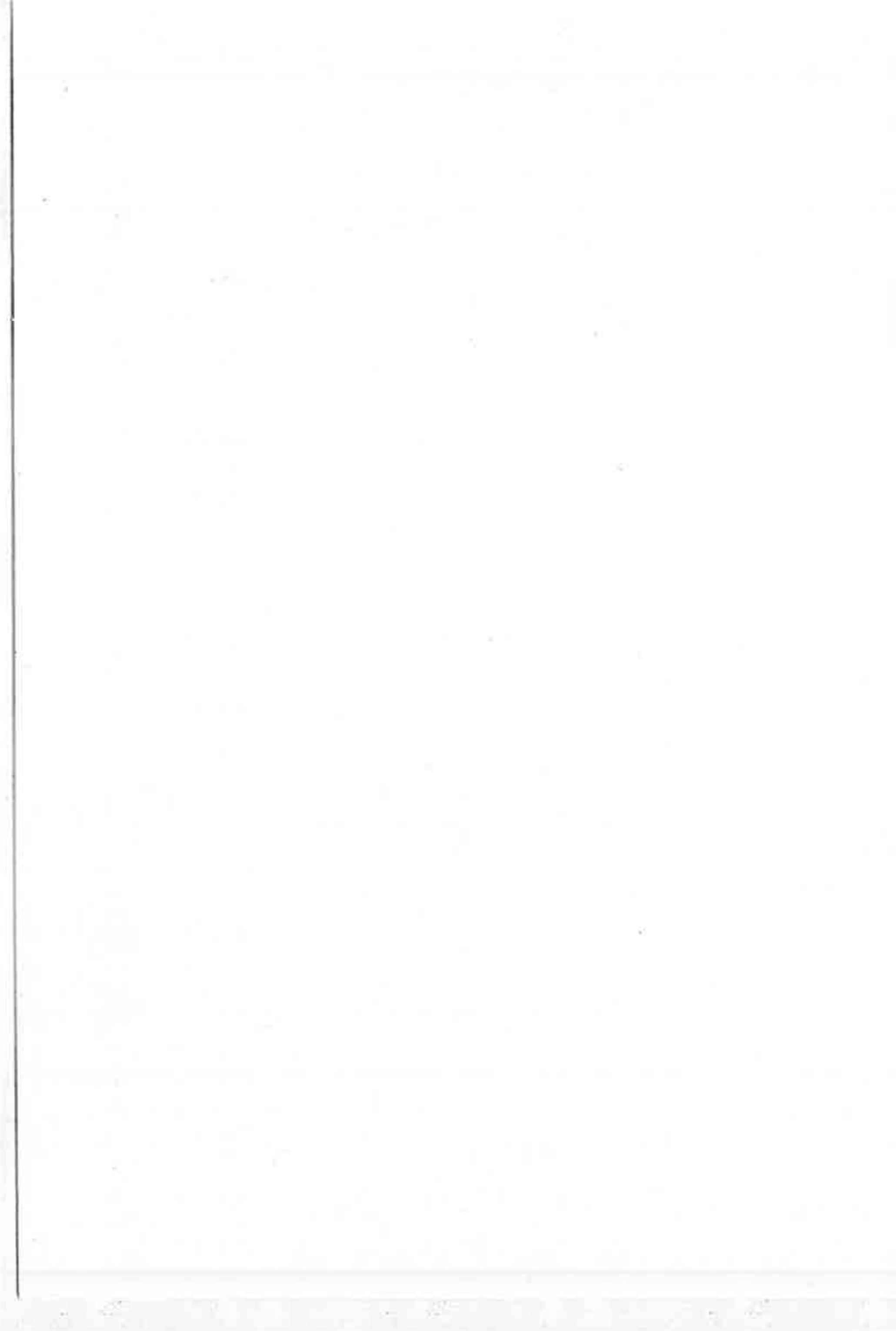
(٤) فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع. مترجم إلى اللغة التركية ـ ط ١

(٥) فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع. مترجم إلى اللغة الإنجليزية ـ ط ١

(٦) عبد الله عزام أحداث ومواقف ـ ط ١

علوم أخرى

(١) دراسة الموجات الالكترومغناطيسية المتوسطة ـ باللغة الإنجليزية ـ ط ١





• مع ملحمة فلسطين •

فلسطين هي الأرض المباركة، هي أرض الملاحم في التاريخ، هي إشراقة النبوة الممتدة في الزمن، وعبق الجهاد الفوّاح، ونور الوحي الممتد من مكة والمدينة، والممتد في الأرض كلها دعوة وبلاغا وقرآنا. إنها أرض الإسلام:

يا رَبْوَة الأقصى جلالُك آيةٌ ... الإسْلام تَجْلُو حَقَّه المَشْهُودَا
فَبِكُلِّ رابيةٍ طيوفُ صحابةٍ ... وبِكُلِّ مُنْعَطَفٍ ضَمَمْتَ نجيدا
وبِكُلِّ مَيْدانٍ تَدُورُ مَلاحِمٌ ... حَمَلَتْ لكَ الإِسْلامَ والتوحيدا
وجَلالَ إسراءٍ وعِزّةِ مُؤمنين ... مَلأَ الزَّمانَ سَواكِباً وجُنُودا
وتُعيدُ لألاءَ الفُتُوحِ جواهراً ... تُلقى عَلَيْكِ قَلائِداً وعقودا

ستعود حين تترك الأمة المساومة على حقها البيّن، ولا ترضى إلا بفلسطين كلها دارا للإسلام:

مَا الدار إلا مهجة الإسلام يخـ ... ـفقُ شَوْقُها عَهْداً عليك أكيدا
مَن ذا يُقَطِّعُ أرضَه وحُقُوقَه ... مَن ذا يُقَطِّعُ مُهْجَةً ووَرِيدَا

وستظل فلسطين كلها أرض الإسلام والجهاد، أرضا مباركة، تبسط ملائكة الرحمن أجنحتها عليها، ويغمرها نور اليقين، ويفوح منها عبق الدماء الزكية.

وستمضي أمّة الإسلام أمّة واحدة إلى أرض الإسراء، فتدخلها بنصر من عند الله، يهبه الله لعباده المتقين، حين تصدق الأمّة ربها وخالقها، ربّ السموات والأرض ورب العالمين.

ستعود فلسطين حين تطرح الأمة كلها وهَن الارتجال، وهَوان العزوف عن الجهاد، حين تضع خطتها المؤمنة الواعية، حتى إذا خطت خطوة، عرفت الخطوة التي منها، فعرفت دربها وأهدافها.

فانهض إذا أوفيتَ خُطّةَ مؤمنٍ ... وصَدَقْتَ نَهْجَ الفارسِ المُتَوَسِّمِ

ردمك: ٧ - ١٤ - ٦٨٧ - ٩٩٦٠